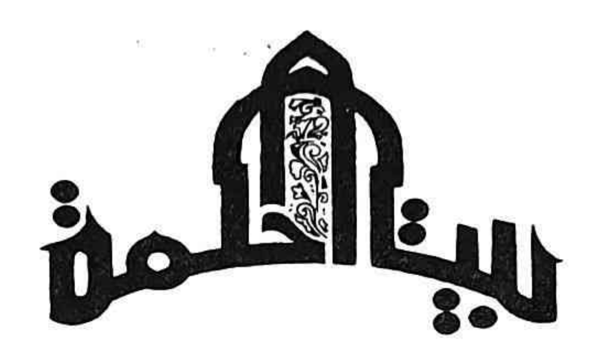
التآمر اليهودي على بلاد الرافدين حتى سقوط بابل عام ٥٣٩ ق.م

دراسة تحليلية

حسن عبيد عيسى

بغداد

2002



التآمر اليهودي على بلاد الرافدين حتى سقوط بابل عام ٥٣٩ ق. م

(دراسة تحليلية)

حسن عبيد عيسى

بغداد
٢٠٠٢

اسم الكتاب : التآمر اليهودي على بلاد الرافدين حتى سقوط بـــابل عام ٥٣٩ق.م- (دراسة تحليلية)
تأليف: حسن عبيد عيسى
الناشر: بيت الحكمة
الطبعة الاولى / ٢٠٠٢

بيت الحكمـــة - العــراق - بغــداد- بـــاب المعظــم - ص.ب. (٥٣٦٤٠) هاتف -٤١٤٠٠١٥ / ٤١٤١٢٠١
فاكس ٨٨٦٣٠١٥
E-Mail: hikma@uruklink.net

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

((لو كنت لأنتظر الكمال، لما فرغت من كتابي هذا الى الأبد))

"تاي تنج" القرن ١٣م

انه تآمر كبير، ذلك العمل الخفي، منذ ما يربو على قرن،والذي بدأ في مدينة (بازل) السويسرية حيث عقد المؤتمر الصهيوني الاول عام ١٨٩٧ م، وما نجم عنه من تأسيس لفكرة إنشاء كيان سياسي يهودي في فلسطين، وانطوى ذاك التآمر على خطط ثانوية ليس لحصرها سبيل جلها مؤامرات ودسائس ضد الجميع، استهدافا لغاية سوداء ذات هدفين متداخلين هما:-

١- ايهام الرأي العام (غير الملزم بالتحقق) بوجود تواصل عنصري بين معتنقي اليهودية المعاصرين، وبين اولئك الذين سرقوا فرصة من التاريخ لتأسيس كيان سياسي يهودي في فلسطين في مطلع الالف الاول ق. م على حساب سكان البلاد الاصليين.

٢- تحميل الجنس البشري ممن لم يتهودوا مسؤولية زوال ذلك الكيان وما ترتب عليه من تشتت اختاره طوعا او لاسباب مفروضة (بسبب دسائسه) سكان ذلك الكيان من يهودي الديانة.

وكان بلوغ أي من هذين الهدفين يتوسل خططا معقدة من التآمر،صار التاريخ الحضاري أحد ضحايا هذه المؤامرات. فدفع قادة الحركة الصهيونية بجم غفير من توابعهم للعمل في المجال التاريخي

وكان تاريخ بلاد الرافدين واحدا من اهم الاختصاصات التي اندس فيها هؤلاء يزورون ويحرفون، املا في تشويه تاريخ حضارة عظيم هو تاريخ بلاد الرافدين، واصطناع تاريخ حضاري مزيف لطغمة دخلت (فلسطين) وهي ترتدي جلود الحيوانات سلاحها التآمر والحقد،اقلقت المنطقة ما يربو على اربعة قرون ثم آل مصيرها الى الاهمال كما كانت في (سيناء). وكان هذا الجهد الذي بذله المندسون في مجال التاريخ تآمرا(حضاريا) مازال يستصرخ ذوي الهمة والعزم على التصدي له.

ولقد تجسدت عظمى معاضل هؤلاء اليهود ببروز قوة لا تعرف غير النصر الا الموت مقرها بلاد الرافدين متمثلة بالدولة الآشورية في أقوى مراحلها، ولم يكن من العقل والصواب في شيء الوقوف،ضدها، وكان الفراعنة يشاركونهم كره أولئك (الاشوريين) ، لذا لم يكن (اليهود) يملكون غير الاماني المرتعشة والأوهام المتلجلجة، ودونوا ذلك في مخلفاتهم التي مازال توابعهم يقدسونها..وعندما تهاوت تلك القوة لاسباب كثار في ظرف لم يخل من غموض، فقد ظهرت دولة اخرى ورثت عن سابقتها ذات النهج وذات التوجه ، كل ما ما في التغير الحاصل من امر ان العاصمة انتقلت من (نينوى) الى (بابل)، فالشعب هو ذاته ، والحضارة مستنسخة عن الدولة المغادرة للمسرح، مع إضافات تزيد الدولة الجديدة قوة ومضاءً.

فهل يعقل ان كيانا هزيلا، انقسم الى كيانين متهافتين في (فلسطين) يرتقي قادته الى مستوى التآمر ضد هاتين الامبراطوريتين اللتين كانت بلاد الرافدين مركز ثقلهما، وحدودهما تعبر ذينك الكيانين حيث يتزاحم جنود الملوك العظام ضد جنود الفراعنة على خطوط الرمال في (سيناء) وفي اماكن بعيدة في العمق المصري احيانا؟.

وما يستوجب ديمومة شد العزم وشحذ الهمم في مجال البحث والتقصي والمتابعة والتصدي، ان ذلك التآمر لم يشمل الكيانات السياسية

لتينك الامبراطوريتين وحسب، وانما شمل النيل من حضارتهما... فـــهي حضارة دموية تجارية مشعوذة ليس لها دور في رخاء البشرية ورقيها.. لا بل حاول ذاك التآمر ان يخلق حضارة يهودية(ذات أســـس ماديـــة) وقوام باذخ الطول والعرض والسمك، ولا عجب فان (وول ديورانـــت) فرط بكثير من مكانته السامقة في عالم اليحث عندما انحـــاز الـــى هـــذا التوجه.

فلقد ركن الى المشورة المنحازة التي شوه بها (ولنفسن) كتـــاب (ديورانت) المهم (قصة الحضارة) حيث يقر بذلك التشويه عندمـــا يقول في مقدمة هذا الكتاب" ولقد صحح الاستاذ هـــاري ولنفســن فـــي جامعة هارفرد اخطاء الجزء الخاص بالدولة اليهودية" كما ولم يخـــف (هاري ساكز) اعتماده في تدوين احداث القرن الثامن ق. م ومـــا بعـــده على اسرائيلي عندما يعترف فـــي الصفحـــة ١٢٩ مـــن كتابـــة القيـــم (قوة آشور) بما نصه" وان ما يأتي قد اعتمد بالدرجة الرئيســـة علـــى تفسيرات العالم جيم ثادمور الاسرائيلي" .

فاذا ما اخذنا ذاك كله بعين الاعتبار وتذكرنا ان امـــهات كتـــب التراث العربي محشوة بالاسرائيليات والفارسيات، تجعلنا نعافها ونحكـــم العقل ونحن ندلج في حقل من الغام الفكر.. فهناك مثالان الاول لياقوت الحموي في ثالث اجزاء موسوعته الباذخة (معجم البلدان) حيث يقـــول في الصفحة(٣١٢) ما نصه" قرأت في بعض كتب الفـــرس فـــي قصـــة سنحاريب ان بني اسرائيل تمزقت بعد موت سليمان بـــن داود عليـــهما السلام، فصار منهم سبطان ونصف سبط في بيت المقدس، فـــهم ســـبط داود ،وانخـــزل تســـعة اســـباط ونصـــف الـــى مدينـــة يقـــال لـــــها

شامين (*) وبها سميت الشام، وهي بارض فلسطين وكان بها متجر للعرب وميرتهم وكان اسم الشام الاول سوريا فاختصرت العرب من شامين الشام وغلب على الصقع كله".. ومثل ذلك ادعاء (حمزة بن الحسن الاصفهاني) في كتابه (تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء عليهم السلام) في الصفحة ٣٦ ان (نبوخذ نصر) وقبله (سنحاريب) كانوا يأتمرون بأمر ملوك الفرس حيث يقول " في سنة ٦٠ من ملك كيلهراس اغزى بختنصر بن ويو بن حودرز (كذا) فلسطين حتى خرب مدينة اورشليم وسبى منها اليهود وصيرهم خدما وخولا لاهل بلدان مملكته. وقد كان بعث اليهم قبل بختنصر سنحاريب (كذا) النينوى، فلم يرتفع على يده الفتح" . فهل كان ملك الفرس يسيّر ملوك الآشوريين والبابليين، وهل استعبد (نبوخذ نصر) اليهود المسببين؟. فكيف سنركن الى مصادر وثق مؤلفوها ما قاله (اليهود) و(الفرس) من لغو ومغالطات؟ وعلى هذا الأساس سار بقية مؤلفي كتب التراث، لذا لم نعتمد ايا منها تحاشيا للمغالطات والركاكة.

وامتثالا لامر كريم لنبينا الهادي (ص) في ان نشكر الناس، فان من لا يشكر الناس لن يشكر الله، ازجي شكري وامتناني الى الاستاذ الدكتور عبد الجبار ناجي رئيس قسم الدراسات التاريخية في بيت الحكمة على توجيهاته القيمة وارشاداته الكريمة، ومثل ذاك الشكر للدكتور نائل حنون عميد كلية الاداب في جامعة القادسية الذي اعارني متكرما بعضا من وقته الثمين مما جعلني افخر باني (على الخبير سقطت).. ولن انسى الجهد المثمر لاصدقائي : القاص

---

* لاشك يقصد بها (شامورين) التي هي (السامرة) بلغة اليهود والتي اتخذها سادس ملوك اليهود الشماليين (عمري) عاصمة لملكه وهنا يكون ياقوت قد تأثر بالاسرائيليات فخبط خبط عشواء وخلط بين (الشام)و(السامرة).

ناجح المعموري الذي لم يبخل على باثنين من مفاخر محتويات مكتبتـــه الخاصة مع صبر طويل على اعارة غير عادية، والناقد لواء الفواز الذي صحح هنات النقل من مسودة الى اخرى والمهندس عبد الالـــه ســامي الذي تحمل عبء تحبير الجذاذات المفيـــدة والصـــبر علـــى النقاشـــات المضنية. واعترافا بأذى كبير واهمال شديد املته عليّ ظروف البحـــث فأني اتوجه الى عائلتي الصغيرة برجاء الصفح والعفو، فكل ما اجـــهدني وضيق عليهم ليس غير خدمة يسيرة لامة عظيمة هم بعض أجزائها ولهم بذلك فخر كبير.. والله الموفق..

حسن عبيد عيسى

العميد الركن

منهجنا في البحث

ان طبيعة هذا البحث خاصة جدا، وبسبب من تلك الخصوصية التي يختلط فيها الدين بالسياسة ويشترك الوهم والخيال بالحقيقة ويمتزج التحدي بالتآمر، فقد اشترطنا الأسس التالية :-

١. يتم البحث بمعزل عن الموروث الديني، فداود وسليمان (عليهما السلام) هما من الانبياء الذين نجلهم ونقدسهم ، ورغم اننا لم نخل بهذا الاجلال والتقديس في بحثنا هذا الا اننا تعاملنا معهما كملكين على وفق ما خلص اليه السالفون من الباحثين.

٢. كان التحليل رائدنا في البحث ولم نشترط النقل الحرفي لمجريات الحوادث الا لما فيه تأثير على تحليلنا ويقود الى استنتاجات، فليس مهماً من هو الملك الذي فتح السامرة (شلمنصر الخامس) ام (سرجون الثاني)، وليس بذي قيمة موت الملك اليهودي (يهوياكيم) حتف انفه أو قتلا في (اورشليم) عندما حاصره(نبوخذ نصر) كون بلوغ بعض الحقائق في هكذا امور لن يغير في النتائج شيئاً.

٣. لم نتشدد في منع تكرار ذكر بعض الحوادث حيثما كان التحليل ملجأ الى ذلك فضلاً عن توخي ضرورة الربط والاحكام.

وعلى اساس القاعدة المتيسرة لنا من المعلومات فقد وضعنا خطة البحث بحيث تقود المتلقي من المعلومات المفيدة الى الخصوصيات الاكثر دقة وكان رائدنا هو التسلسل المنطقي المعتمد على اسبقية الحوادث من حيث الاهمية وزمن الوقوع وكانت فصول البحث(خمسة) فصول تتوزع على (١٦) ستة عشر مبحثاً وكما يلي:-

١- **الفصل الاول** خصصناه لاعطاء فكرة للقارئ الكريم عن طبيعة مكان وقوع القسم الاكبر من حوادث البحث (بلاد الشام) التي شكلت (مسرحا للحرب) في تلك الحقبة وقد تناول المبحث الاول طبيعة وخواص المسرح نحى منحى جغرافيا يبين الصعوبات التي تكتنف

ساحاته وفصل المبحث الثاني التكوين السكاني لعمـــوم المســرح مــع التركيز على طارئية اليهود فيه، ولم نخصص حيزا كبيرا للشعوب ذات الادوار الهامشية في صنع احداث تلك الحقبة.. ولعل كل تلك الصعوبات وما يرافقها من تضحيات كانت لسبب مهم عالجه المبحث الثالث وهــو الاهمية الاقتصادية والعسكرية لبلاد الشام في استمرار الكيان السياســي لكل من الدولتين الآشورية والبابلية في البقاء مع رخاء ورفاهية ليســتا على حساب سكان بلاد الشام.

٢- **الفصل الثاني** تناول بالتفصيل (عناصر الصراع) مع التركـيز على خلفيات كل منهم وابراز دوره في توجيه الأحداث وكان المبحــث الاول (مصر) والمبحث الثاني (الآشوريون) واختص المبحث الثـالث بتفصيل (الكلدانيون في بابل) فيما خصص المبحـــث الرابـــع للكيـان السياسي اليهودي .

٣- **الفصل الثالث** (حركات الآشوريين في بلاد الشام) وقد كــان اول مباحثه تعريف للقارئ الكريم بالعسكرية الاشورية واســس قوتـها ومراحل نشوئها وتطورها . ثم المبحث الثاني(معارك الجبهة الغربية) وهي الحروب التي شنها الجيش الآشوري في بلاد الشــام بينمــا كــان المبحث الثالث (تآمر اليهود وسقوط نينوى) حيث فشل تحالفـــهم مــع (مردوخ - ابلا - ادينا)(*) الذي يسمونه (مردوخ بـــلادان) واعقبــه تحالفهم مع (الكلدانيين) و (الميديين) حيث عرجنا في ختام المبحــث الاخير على فرية اختلقها الدكتور (احمد سوسة) في اكثر من كتاب مـن مؤلفاته وهو وجود امارة يهودية اسمها (امارة حدياب) سكنها اليــهود الذين أسرهم (الآشوريون) وعاصمتها (اربيل) .

(*) يسميه العهد القديم (بردوخ بلادان) وقد نهج بعض باحثينا مع الأسف على استعمال التسمية نفسها.

٤- **الفصل الرابع** (بابل هدف التآمر الخطير) وهو يتعلق بـــدور الكلدانيين في احداث المسرح الشامي (الدولة اليهودية تحديـــدا) وكيفيـــة وصولهم السلطة في(بابل)وتدميرهم للكيان السياسي الآشـــوري ٠ امـــا المبحث الثاني فهو (التحدي اليــــهودي) مكــرس لمحـــاولات التمـــرد والعصيان اليهودي في (فلسطين). فيما بين المبحث الثالث (دور اليهود في سقوط بابل).

٥- **الفصل الخامس**(الدور الحضاري والتآمر المستمر) وقصدنـــــا منه تفصيل الدورالحضاري لبلادنا التي قدمت للبشـــرية اغلـــى ثمـــار الحضارة ، مع الرد على المتخرصين على تلك الحضارة السامقة فـــي المبحث الاول (حضارة الآشوريين) وكذلك المبحث الثـــاني (حضـــارة بابل) في حين خصصنا المبحث الثالث لتفنيد دعاوى وجـــود حضـــارة يهودية مقابلة كما يزعم البعض .

٦- وتسهيلاً لرجوع القارئ الكريم الى مايزيده منفعة في مجـــــال المعلومات فقد وضعنا في اسفل الصفحـــات تحيلـــه الـــى المصـــادر والمراجع التي كانت ضمن قائمة في نهاية كل فصـــل.. بينمـــا حاولنـــا تحاشي الارباك في هذا المجال بان وضعنا حواشي في اسفل الصفحـــات عند اللزوم لشرح بعض المصطلحات خصوصاً وان بعـــض المبـــاحث اخذت طابعا عسكريا مبسطاً وحسب اقتضاء الضرورة مستثمرين بعضا من خبرة هي حصيلة ثماني وعشرين سنة من الخدمة في واحـــد مـــن افضل الجيوش.

الفصل الاول
مسرح الحرب الشامي

*طبيعة وخواص المسرح
*التعدد السكاني
*الاهمية الاقتصادية والعسكرية

منذ وضع (داود) الاساس للكيان السياسي اليهودي، وبسبب من الخلفية الاجتماعية المنطوية على سجايا وخصال شوهاء زادها التيه السينائي سوءاً، فقد كان التعامل السياسي اليهودي ذا طابع تآمري حاقد، فيما بين الكيانين اللذين انقسمت اليهما دولتهم او فيما بين أي منهما والاطراف الخارجية الاخرى.

ولقد سلم النظام السياسي الفرعوني من مؤامرات (اليهود)، وهو أمر له دواعيه سنعرج عليه في الفصل الثاني، ولم تكن الممالك والامارات المنبثة في بلاد الشام ذات قدر وخطر للحد الذي تصير معه هدفا للتآمر اليهودي،فقد انصب جل ذلك التآمر صوب الممالك العظمى التي قادت عالم ذلك الزمان وكان مركزها بلاد الرافدين ونخص بالذكر الدولة الآشورية في عصرها الاخير (الحديث) والدولة البابلية في اخر سلالة حكمتها(السلالة الحادية عشرة) والتي اسسها (نبوبولاصر) الكلداني.

وكانت صيغ ذلك التآمر تتمثل في دسائس وتحريض وعصيان وتحالفات مريبة، ولما كانت القوة العسكرية المتاحة لليهود ضئيلة كسيحة لامجال لمقارنتها بالقوى العظمى في بلاد الرافدين (الاشورية والبابلية)... فقد كان ذلك التآمر متمركزا في بلاد (الشام) لايقوى على مغادرته.

وليس خافيا ان الخطر الجدي على تينك الإمبراطوريتين والقادم من الغرب لم يبلغ الخط الحرج (نهر الفرات) حتى في اشد حالاته أي عندما قدمت (مصر) بقضها وقضيضها وكانت بلاد الرافدين في اشد حالات الضعف لحظة سقوط (نينوى) وبداية نهوض (بابل) (او هكذا يفترض)، فان حشودهم توقفت عند (كركميش) الى ان عبر نحوهم(نبوخذ نصر) واباد حشودهم التي لم يفلت منها غير الفرعون وثلة من حرسه الشخصي.

فالتآمر اليهودي اذن ، كان حبيس بلاد الشام، الا ما تحول الى مراسلات تبادلوها مع الخائن (مردوخ- ابلا - ادينا)و (نبوبولاصر)، ولكنه وان حبس هناك فان تأثيره كان خطيرا على واقع ومستقبل الانظمة السياسية ذات العلاقة في بلاد الرافدين، فموانئ بلاد الشام رئة الاقتصاد لتلك الانظمة، وخشب غابات(لبنان) يسقف كل الصروح العمرانية الكبرى هنا والمعادن التي تحول الى اسلحة ومستلزمات حياتية اخرى،اما ان بلاد الشام مصدرها او هي طريق توريدها، وبضائع الفينيقيين كالأرجوان والزجاجيات والعاجيات وغيرها ضرورية لرفع نسبة الرفاهية والعيش الرغيد لمجتمعات تلك الانظمة... بينما كانت وفرة المال الذي تترع به خزائنها هو مايجبى من جزية مفروضة على دول بلاد الشام.

كل تلك العوامل جعلت الدولتين العظميين المتعاقبتين في بلاد الرافدين متهيئتان لوأد أي تآمر يهودي يظهر في مهده (فلسطين) التي قد شكلت قلب بلاد الشام ، والتي هي المركز الحصين لكل المؤامرات ضد الدولتين الآشورية والبابلية ونقطة انطلاقها.

فبلاد الشام التي يحددها(ياقوت) بين الفرات والعريش عرضا وبين جبل طي وبحر الروم طولا وامهات مدنها منبج وحلب وحماة وحمص ودمشق والبيت المقدس والمعرة، وفي الساحل انطاكية وطرابلس وعكا وصور وعسقلان وغيرها، واجنادها[*] خمسة هي (جند قنسرين وجند دمشق وجند الاردن وجند فلسطين وجند حمص)، وطولها من الفرات الى العريش نحو شهر [1]، تلك البلاد كانت مسرحا ساخنا للفعل العسكري الجريء للجيشين الاشوري والبابلي وهو الامر

---

* الاجناد: جمع مفردها(جند). والجند هي مايماثل منطقة التجنيد في مفاهيمنا (منطقة تجنيد ديالى- منطقة تجنيد الانبار... الخ).

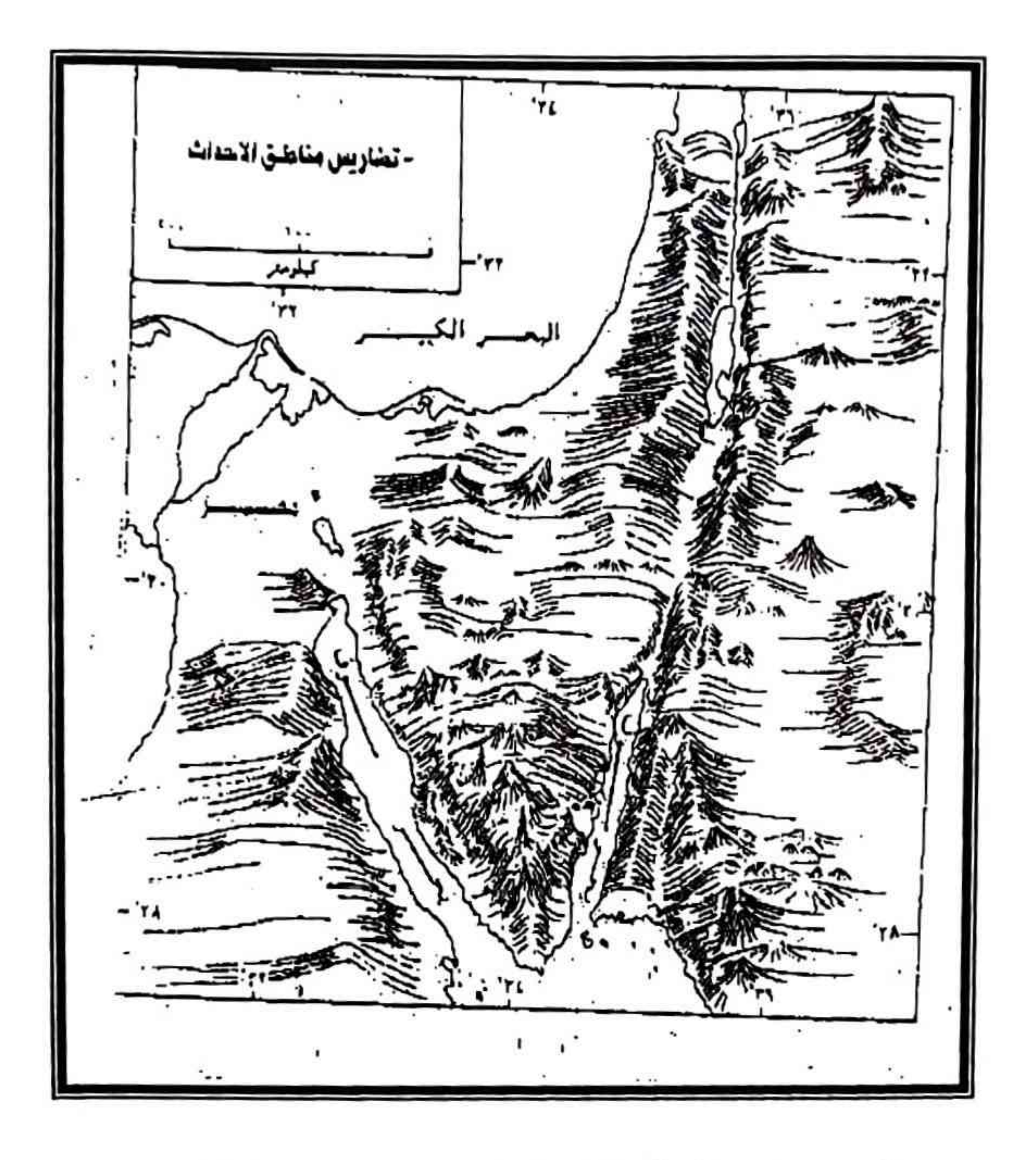
الذي حملنا على اعتبار بلاد الشام مسرحا واحــــداً للحــرب[**] ينبغــي دراسته على هذا الاساس.

ولقد كان لطبيعة ارض المسرح الشامي اثر كبــير علــى ســير العمليات الحربية ابتداء من النقطة الاولى (نهر الفرات) وانتهاء بالنقطة الاخيرة(العريش).

وبتمايز اجزاء الفسيفساء الاجتماعي الذي يتوزع على مســـاحته سكان هذا المسرح كانت الولاءات والتحالفات متغيرة وغــير مســتقرة، وكان التآمر والدس السياسي الذي تزعمه (اليهود) الطارئون على بــلاد الشام يجد وسطا ملائما للانتشار برغم الكراهية العميقة التي يضمرهـــا السكان الاصليون لهؤلاء الطارئين.

وتظل الاهمية الاقتصادية المتمثلة بالاستيراد والتصدير من والــى هذه البلاد الشامية او اعتبارها طريقا للتجارة ومنفذا بحريا، وكذلك مـــا تدره الجزية المفروضة على دولها وغنائم الحرب المتحصلة منها تعمل الى جانب الاهمية العسكرية كحاجز يسهل الدفاع عنه بوجه الطموحـــات المصرية (مع ضعف احتمالها) وكعمق ســـوقي للجيــوش الاشــورية والبابلية عندما تهاجم (مصر) ... تظل تانك الاهميتان مصدر قلق قــاتل وامل وردي يفعل فعله في عقول ملوك الرافدين... ولكن التآمر اليهودي فيه يجعله فسحة يصب عليها هؤلاء الملوك جام غضبهم باستمرار.

[**] مسرح الحرب: منطقة جغرافية واسعة ذات اهمية سوقية.



المصدر: الاختلاف في تواريخ واحداث التوراة ص ١٤٤

المبحث الاول
طبيعة وخواص المسرح

لأغراض هذا البحث(*)،فأن بـــــلاد الشـــام بمكوناتـــها الفرعيـــة (سوريا ولبنان وفلسطين والاردن) تعد وحدة جغرافية واحدة كما كـــان عليه عهدها في زمن وقوع حوادث اليحث.. من هنا فهي تشكل مســرح حرب وعمليات تجزأ لاغراض التحليل الى ساحات حركات، وان تركـز وقوع الحوادث في (فلسطين) بالدرجة الأولى تليها سوريا فلبنـــان ثـم (سيناء)التي هي خارج هذه الوحدة الجغرافية تليها في الاهميـة (الاردن) التي لن نصرف كثيرا من الجهد للتعرف على طبيعتها الجغرافية كونـها ساحة ثانوية لم تطأها حوافر خيـول الدولتيـن العظمييـن (الآشـورية والبابلية) في معارك ضد (اليهود) أو بسبب تآمرهم ضدهما.

فالمسرح الشامي الذي يشكل الحد الشرقي للبحر المتوسط تحـده من الشرق (بلاد الرافدين) وشمال الجزيرة العربية ومن الشمال جبـال (طوروس) الممتدة افقيا لتشكل الحد الطبيعي شمالا ... ويرتكز رأسـه الجنوبي المدبب على (خليج العقبة).

وتبلغ سعة المســـاحة التــي يتـألف منـها المســرح المعنـي (٣٢٠٣٢٠)كم٢ حيث تشغل (سوريا) منها (١٨٠١٨٠)كم٢ و(فلسـطين) (٢٧)الف كم٢ و(لبنان)(١٠٤٠٠)كم٢ بينما يبقى (للاردن)(٩٧٧٤٠) كم٢ ... في حين مساحة (سيناء) التي هي ساحة منفصلة عن هذا المســرح (٥٦)ألف كم٢ تتبادل التأثير احيانا مع عموم المسرح المعني.

أما طبيعة الارض فأننا سنتناولها على اساس الساحات (السـورية واللبنانية والفلسطينية) وتشكل الساحة السورية المساحة الاكـبر. وهـي

---

* اعتمدنا في المادة الأساسية للحقائق الواردة في هذا المبحث على كتـاب(جغرافيـة الوطن العربي) لمؤلفيه د.فيليب رفلة واحمد سامي مصطفى(٣)

مرتفعة في الغرب حيث توجد سلسلتان جبليتان، الغربية كثيفة الانبات والشرقية جرداء (ظل مطر) وبينهما ينحدر مجرى (العاصي) ويبلغ ارتفاع هذه الجبال (١٣٠٠)م تقريبا وتحتوي على مناطق بركانية. وتنتشر في اماكن كثيرة من الساحة السورية صخور جيرية.

جنوب المرتفعات الغربية تنخفض الارض حيث هناك مدينة (حماة) تليها جنوبا جبال (لبنان) الغربية إذ تنطلق منها بعض المجاري المائية تتجه نحو الشرق حيث انحدار تلك الجبال واهمها (بردى).وجنوب تلك المرتفعات وامتداد لها(جبل الشيخ) الذي يصل ارتفاعه الى (٣)آلاف متر وفي عموم هذه المنطقة تتوفر ينابيع للمياه.

وفي أقصى جنوب الساحة مرتفعات (الدروز) التي فيها براكين خامدة ولا يخلو الوسط من مرتفعات حيث يبلغ علو المنطقة الهضبية الممتدة نحو الشرق ألفي متر بين (حماة) ونهر (الفرات) وجنوب المرتفعات الوسطى صحراء الخماد التي معدل ارتفاعها(٧٠٠)م وتمتد عبر الحدود الشرقية والجنوبية حيث تشكل خمس مساحة الساحة السورية . أما أرض الجزيرة ضمن تلك الساحة فهي أرض منبسطة تعلو مستوى سطح البحر بحوالي(٥٠٠)متر ويخترقها نهر(الخابور) الذي يصب في نهر(الفرات).

تشكل انهار الساحة السورية شبكة متعددة الاتجاهات حيث تصب الأنهار الغربية مياهها في البحر المتوسط كالعاصي الذي ينبع من(البقاع) ويتجه شمالا مارا(بحمص)و(حماة) ويعبر (إنطاكية) وهو نهر موسمي يفيض شتاءً وينقص بشكل ملحوظ صيفا. بينما تتجه انهار الجنوب نحو الشرق مثل(بردى) الذي يبلغ طوله(٧٠)كم حيث تشكل موانع طبيعية للقطعات القادمة من الشمال. ويشكل(الفرات) الخط الاكثر حراجة ليس في الساحة السورية فحسب وانما في عموم المسوح الشامي، ويكون مجراه في منطقة الحدود التركية ضيقا منحدرا نحو

الجنوب بشكل عمودي ثم ينحرف شرقا حيث يزداد عرضا ويلتقي قبل خط الحدود العراقية برافده(الخابور) وبين مجراهما تتكون ارض الجزيرة الفراتية.

مناخ الساحة السورية يتأثر كثيرا بالبحر والمناطق الشمالية، فعلى السواحل تهب رياح رطبة واعاصير في الشتاء قد تصل الى العمق عبر منافذ بين الجبال وتنخفض درجات الحرارة في المرتفعات الغربية التي تسقط عليها الامطار بغزارة... بينما تهب من مناطق(روسيا) رياح باردة عندما يرتفع الضغط في المناطق الشمالية. وعموما فالشتاء دافئ حيث أن ادنى درجات تصلها الحرارة في (حلب) هي(٦،٥)°م وفي الوسط(٧)° م بينما الصيف معتدل حيث تصل درجات الحرارة فيه في(حلب)الى (٢٩)° م وفي(دمشق)(٢٧،٥)°م وفي وسط البادية(٢٩)°م.

أما الامطار فأنها غزيرة في الغرب وخاصة فوق المرتفعات الغربية التي تشكل ٢% من مساحة هذه الساحة حيث يكون المعدل السنوي ٧٠٠ ملم في حين ينخفض المعدل في السهول الشمالية التي تشكل ٤٠% من المساحة الكلية للساحة الى ٤٠٠ملم حيث تزرع الحبوب. ويحيط بتلك السهول نطاق صحراوي يشكل مساحة ٢٠% من المساحة الكلية فأن المعدل فيه يتراوح بين ١٠٠-١٥٠ملم حيث يستقي الناس مياه شربهم وشرب حيواناتهم من الآبار. والمطر في(سوريا) ينحصر في الخريف والشتاء.

وتتميز ساحة الحركات اللبنانية بالطابع الجبلي، يتواصل شماله مع المنخفض الأرضي السوري الذي تقع فيه(حمص)و(حماة)، إذ تشترك معهما(طرابلس) في الانتماء الى ذلك المنخفض، وفي جنوبه تقع السلاسل الجبلية المتكونة من جبال التوائية تختلف فيها الصخور بين بازلتية وجيرية مسامية وغير مسامية. ويبلغ ارتفاعها١٠٠٠-١٥٠٠ متر فوق سطح البحر تندفع مياهها الغزيرة لسقي أراض مجاورة واسعة.

ومن منابع تقع في وادي البقاع الكائن شرق السلسلة الغربية تتكون بدايات نهر (العاصي)و(الليطاني) حيث ينحدر الأول شمالا والثاني جنوبا.وهذا الوادي يتميز بالخصوبة في اغلب أقسامه عدا الشمالية منه كون التربة هناك جيرية. (والبقاع) يقع بين السلسلتين الغربية والشرقية. اما السهول الساحلية فهي كما في سهول الساحة السورية الساحلية،ضيقة. ومناخ هذه الساحة لطيف عموما وتهب رياح شمالية وشمالية شرقية باردة في الشتاء تمنح الجبال كسوة ثلجية بيضاء. وفي الداخل تهب رياح حارة ربيعا تأتي من الجنوب، وعلى سفوح الجبال الشرقية تهب رياح دافئة. ينجم عن ذلك التباين في الرياح تباين في درجات الحرارة حيث يتعاظم المدى الحراري في الداخل، وعموما فان درجات الحرارة تبلغ معدلا في الساحل(٢٧)°م صيفا و(١٤)°م بينما في منطقة المرتفعات في الداخل تكون(٢٢)°م شتاءً. المطر المتساقط على بيروت يبلغ (٨٥٠)ملم سنوياً جنوبا ويتزايد شرقا ليصل الى(١٢٠٠)ملم سنويا في حده الاعلى وفي البقاع يبلغ(٤٥٠)ملم. ينتج عن ذلك أن الغابات تغطي المرتفعات حيث تنمو اشجار الارز والصنوبر وفي الداخل حيث المطر اقل تنمو الاعشاب والحشائش.

اما الساحة الفلسطينية فأن سهلها الساحلي ضيق شمالا ويتسع جنوبا وخاصة عند(غزة). وتوازي هذا السهل من الشرق هضبة واسعة(غير متواصلة)يقطعها سهل يسمى (مرج ابن عامر) يعمل على ربط السهل الساحلي بالداخل. القسم الشمالي من الهضبة عبارة عن صخور جيرية هي هضبة(الجليل) حيث يتراوح ارتفاعها بين ٣٠٠-٧٠٠ متر فوق سطح البحر واحد مرتفعاتها يشكل أعلى مكان في(فلسطين) (١٣٠٠)متر فوق سطح البحر أما القسم الجنوبي من الهضبة(جنوب المرج) فثمة هضبتان على الأولى تقع مجموعة مدن أهمها(نابلس).ومن اهم المدن التي تقع على الثانية(القدس والخليل).

وشرق الهضاب يقع المنخفض الذي يحتضن نهر (الأردن) وبحيرة (طبرية). وجنوب الهضاب المذكورة تقع هضبة (النقب) التي تبلغ مساحتها نصف مساحة الساحة الفلسطينية (١٢/٥٠٠كم٢) وهي التي كان لابد من عبورها عند التوجه الى (مصر) في حملات الحروب القديمة. وعموما فهي تشكل امتدادا طبيعيا لهضبة سيناء بصفاتها الصحراوية الموحشة. تتميز منطقة ساحل (غزة) بالكثبان الرملية المتحركة.

مناخ الساحة الفلسطينية يتأثر كثيرا بالأعاصير شتاءً، الكمية الأوفر من الأمطار تتساقط على السواحل وتقل بالأتجاه جنوبا، فهي في الشمال (١٠٠٠ملم) سنويا. تنخفض الى (٦٠٠ملم) في (حيفا) و (٤٠٠ملم) في (القدس) و (١٢٠ملم) في الغور، اما في الشمال الغربي للنقب فهي (١٥٠ملم) سنويا وفي جنوبه (١٠٠ملم).

درجات الحرارة لطيفة على الساحل والهضاب، وصيف السهول الداخلية حار أما معدل درجات الحرارة فيبلغ شتاءً (١٤)°م في (حيفا) و (٨)°م في (القدس) والساحل.

نخرج من هذا الاستعراض المقتضب للجغرافية الطبيعية للمسرح أن صعوبات الحركات فيه كانت تتمثل فيما يلي:-

١. الحاجة الماسة الى وسائل العبور والتجسير حيث يتوخى عبور (الفرات) من طرفه الشمالي كونه أضيق، الأمر الذي يفرض إطالة في المسافة المطلوب قطعها بالنسبة للحملات. يضاف الى (الفرات) شبكة من الأنهار والمجاري المائية المتقاطعة مع طرق التقدم الرئيسة لحملات الآشوريين والبابليين حيث تشكل موانع طبيعية تزيد من صعوبات تلك الحملات.

٢. إن قطع مسافات شاسعة من الصحاري يفرض ما يلي:-

أ. حمل كميات كبيرة جدا من الارزاق والاعلاف.

ب. تأمين كميات هائلة من الماء.

٣. إنَّ طول المسافة وسعة الصحراء التي ينبغي قطعها، يفـــرض انقطاع الحملة عن المركز مما يعني ضرورة اعتمادها علـــى المــوارد الذاتية وعدم انتظار نجدات أو تعزيزات من العاصمة.

٤. حاول قادة الحملات تجاوز والوسط الصحراوي برغم تشـــكيل تدمر (بالميرا) محطة مهمة للقوافل لذا كان تمركز اهتمامـــهم بـــالنواحي الشمالية والغربية.

٥. تفرض طبيعة الارض الصخرية والقطوع والتكسرات صعوبات بالغة في تنقل العربات، ومع أن(الآشوريين) اكتسبوا خبرة عمليـــة مـــن خلال حروبهم في مناطق جبلية، الا أن ذلك غير متحقق بالنسبة للجيوش البابلية.

تنبئنا تلك الصعوبات التي تظهر لقادة وجنود الحملات القادمة من بلاد الرافدين لوأد المؤامرات اليهودية في بلاد الشام... إن حملاتهم لـــم تكن نزهات ترفيهية، وانما هي متاعب ومخاطر وصعوبات جمة، لو أن الامور كانت تجري باسلوبها المعتاد لانتفت الحاجة الى تجشمها ســنويا، وفي بعض السنوات تتكرر الحملات لاكثر من مرة. وقد عانت القطعات من العطش الشديد كما حصل لجيش (اسر حدون) الذي لم ينقـــذه مـــن الهلاك الا بعض رؤساء القبائل العربية الصديقة حيث جلبوا الماء علـــى ظهور جمالهم.

ويشكل العناء والنصب الناجم عن تلك الحملات وما يفعله التـــآمر من تأثير في دواخل النفوس الآشورية والبابلية كمصدر غضب عميـــق يحول أحيانا الى انتقام مبين وخاصة من أولئـــك الذيـــن وراء التـــآمر، وعندما يجد قادة الحملات أن قطاعات من السكان وراء المتـــآمرين أو انهم يتسببوا في زيادة مشقة الحملة وأن وسائل التعامل معهم لـــم تعـد ضمن السبل الدبلوماسية... فأن ترحيلهم يصبح أمرا حتما.

المبحث الثاني

التعدد السكاني

لقد تناثرت على رقعة مسرح الشام مجاميع اثنية متعـــددة غلـــب عليها الطابع الجزري مع وجود عناصر من غير تلك الأرومة حتى بدت بلاد(الشام) وقت وقوع احداث بحثنا هذا تشكل مجتمعات عديدة لكل منها خواصه ومميزاته ودوله وملوكه. وحتى المجتمع الواحد منها صارت له عدة دول. فلم يكن (الآراميون) دولة واحدة بل عدة دول مثل(الفينيقييـــن) بينما اقتصر المجتمع المؤابي والعموني على دولة واحدة لكل لـــه ملـــك واحد ونظام سياسي ثابت. وعلى العموم فأن اغلب تلك العناصر اهميـــة هم كل من:

الآراميون:

تحدد سكن(الآراميين) في المنطقة التي سميت باسمهم والواقعـــة بادئ ذي بدء شمال(سوريا) حيث كان(تجلات بلازر الأول)الذي حكـــم (الآشوريين)(١١١٥-١٠٧٧) ق.م أول من أشار لهم في كتاباته[٤]. فقـــد اشار الى أنه(عبر الفرات ثماني وعشرين مرة...في تعقب الآراميين)[٥].

لقد سعى(الآراميون) الى تنفيذ هجرات استيطانية كبيرة في فترات لاحقه وفقوا خلالها في تأسيس كيانات سياسية صغـــيرة متنـــاثرة فـــي شمال(سوريا) ومناطق معينة من بلاد الرافدين انطلاقا من نقطة الاساس في تواجدهم في بلاد الشام والتي هي جبـــل (بشـــرى) الواقـــع بيـــن نهر(الفرات) ومدينة(تدمر) تلك المدينة التي صـــارت مـــن المحطـــات الكبرى للتجارة العالمية عصر ذاك.

وتسبب ذلك التشرذم والتناثر بحرمان(الآراميين) من فرصة تأليف دولة قوية مرهوبة الجانب اسوة بسواهم من الشعوب والامم الصغـــيرة

والكبيرة مما صيرهم هامشيين سريعي الذوبان، سيما وأن اختلاطهم وطبيعة ارتباطهم بآخرين برزوا لاحقا على هذا المسرح يلقي ظلالا من الشكوك حول قيمة دورهم المستقل في المنطقة. أن البعض يرجع(الكلدانيين) و(الآشوريين) و(الأدوميين) و(الانباط) الى اصل كبير واحد هو الأرومة[٦] المتحدرة من (ارام بن سام بن نوح).

إن اهتمامنا بالآراميين هنا يأتي من الدور الذي لعبوا به في احداث الحقبة التاريخية التي نهتم بها (العهد الآشوري الحديث والدولة الكلدانية في بابل) سواء بالحروب المباشرة معهما أو بالتحالف مع(اليهود) ضدهما اضافة الى التأثير غير المباشر على سير الأحداث. فالحروب بينهم وبين(الآشوريين) كانت قائمة ومستمرة حتى سقوط الدولة الآشورية، وورث(الكلدانيون) أعباء هذا الصراع وهم يتطلعون الى منافذ البحر المتوسط و(فلسطين) ومن ورائها(مصر) مما يعني ضرورة إخضاع(الآراميين) باستمرار مع استحضار أن قبائل آرامية إنساحت الى جنوب وادي الرافدين واندمجت مع(الكلدانيين) في إمارة(بيت ياكين)وساهمت في تأسيس سلالة(بابل) الحادية عشرة مع(نبوبولاصر).

بيد أن (الآراميين) الذين ظلوا محافظين على كياناتهم السياسية في(الشام) كانوا يحسون بثقل وطاة الجزية التي يدفعونها للملوك الأقوياء في(بابل). مع خوف لدى الملوك في(نينوى) و(بابل) من احتمال اقتدار(الآراميين) على فرض سيطرة مؤثرة على نهر(الفرات) وما وراءه مما شكل كابوسا مؤرقا حيث أن(الفرات) يشكل شريان المواصلات الرئيس[٧] وخاصة ما يؤمن نقل البضائع القادمة من (الاناضول) وبلاد الشام اضافة الى أن نقاطا محددة على(الفرات) كانت تشكل الاماكن الوحيدة الصالحة للعبور الى الجانب الاخر.

اما مصدر ثروتهم الرئيس الذي جعلهم يتصدرون قائمة اطماع الملوك الكبار في بلاد الرافدين فهو التجارة، فقد كانوا تجارا ماهرين مما ساعد على الانتشار الواسع للغتهم،ولقد خضع(الآشوريون) الغلاظ لفكرة استخدام اللغة الآرامية في التعامل الرسمي مما يعني ضرورة الاستعانة بموظفين آراميين في مختلف المناصب الحكومية مع اعداد غفيرة من الكتبة الآراميين مما صير الآرامية لغة التداول الرسمي في وادي الرافدين وبلاد الشام[٨]. وكان ذلك الانتشار والتبني الرسمي للغة الآرامية من قبل الامبراطورية الكبيرة، مصدر اعتزاز خاص لدى الآراميين بلغتهم الأمر الذي جعلهم متفردين في الحفاظ على لغتهم دونما حاجة الى الانضمام الى جحافل الناطقين بالفينيقية من سكان بلاد الشام[٩].

وعندما أحس الآراميون بسنوح الفرصة ليكونوا كيانا سياسيا ذا تأثير خطير على مستقبل المنطقة عقب الضعف المشترك الذي حل بكل من القوات الحثية والمصرية وانحسار سيطرة الميتانيين(الجيران الشماليون للحثيين)، فقد أصابهم الإحباط كون دولة عسكرية منتعشة وقوية برزت خلف نهر(الفرات) استثمرت فرصة الفراغ السياسي الحاصل لتملأه بقوة واندفاع وتجعل الإمارات الآرامية المتناثرة مستعمرات داخلية،تلكم هي الدولة الآشورية في عهدها الحديث.

وفي مجال الديانة، فأن الآراميين تأثروا بما في (بابل) من عادات وشعائر وتقاليد وممارسات دينية.

وعودة الى اشارتنا الخاصة بالتشرذم فأن عددا كبيرا من الدول التي كانت قد تأسست من قبل مجاميع آرامية منه(آرام النهرين- فدان آرام-آرام دمشق- آرام صوبة في البقاع- ارام بيت رحوب جنوب آرام صوبة في النقطة التي ينحني فيها نهر الليطاني- آرام معكة-جشور التي تقع بين نهر اليرموك ودمشق- بيت اغواشي في منطقة حماة- بيت

بخياتي ومركزها جوزان أو تل حلف الحالية). كما ظهرت لهم دولتـــان بعد تلاشي الدور الحثي في شمال(سوريا) وهمـــا كركميـش(جرابلـس الحالية)و(حلب). بينما تأسست لاحقا دولة(سمأل) قرب جبل امانوس في عينتيب (زنجرلي الواقعة في تركيا حاليا)[١٠]. إضافة الى دول صغـيرة في بلاد الرافدين مثل(بيت عديني) في (بورســيبا) وجــهودهم الكبـيرة المشاركة في(بيت ياكين).

انصهر هذا الشعب لاحقا مع(الكلدانيين)، ربما بسبب القرابـــة أو التجاور، ثم أن لغتهم كانت مستعملة من قبل (الكلدانيين) في الوظـــائف الحكومية والتعامل الاقتصادي كما كان في زمن(الآشوريين).

الكنعانيون:

سمى الإغريق مدن الساحل السوري التي يعمرهـــا الكنعـانيون (فينيقيا) وسكانها (الفينيقيين) رغم أن هؤلاء السكان ابقوا على تسـميتهم الاصلية(الكنعانيون) حتى أيام السيادة الرومانية[١١]. ولعلنا بالبحث عــن معنى للاسم الاغريقي نتوصل الى تفسير لبعض الاشكالات التاريخيـــة وخاصة بعض اوجه الاهتمام الآشوري في هذه المنطقة.فأن(فينيقيا) يعني اللون الاحمر الارجواني. ويعود السبب الكامن وراء هذه التسمية الى أن سكان المنطقة امتهنوا صناعة الارجوان(الصبغة الحمراء) المســتخرجة من بعض المحار البحري(اصداف الموريكــسMurix)المتوفـرة علـى الشاطئ، حيث اشتق الاسم من التسمية الاغريقية Phonix التـــي تعنـي احمر ارجواني[١٢].

أما مرد الاسم الاصلي(الكنعانيين) فهو بلا شك يدل على اصلـــهم الجزري الذي يدعى هواة حفظ الانساب انتهاءه عند(كنعان بن سام بـــن نوح)[١٣]. في حين ينهج مؤلفو اسفار العهد القديم نهجا آخر ابعاديا ينـأى بالكنعانيين عن(كنعان) بعدهم(حاميين) عندما يذكرون (بنو حام كـــوش

ومصرايم وفوط وكنعان)[١٤]. وثمة شواهد تدلل على الموطن الأصلي للكنعانيين في جزيرة العرب التي نزحوا منها قبل الالف الثالث ق.م واستقروا في سواحل (سوريا).

وكانت مدن الكنعانيين (فينيقيا)ذات نشاط تجاري وصناعي غير مسبوق بمثيل، وكان اكثر نشاطهم التجاري مثلما هو حال المدن الساحلية جنوب موطنهم(من ارومات اخرى)ذات اتجاه مصري خلافا للاقوام القاطنة غرب(الفرات) وشمال (سوريا) حيث كان اتجاهها شرقيا(نحو بلاد الرافدين) ومن امثلتهم(ماري) وغيرها من دول المدن الآمورية* و(تدمر). ورغم ذلك فقد استقبل الكنعانيون النتاج الفكري العراقي والتجار العراقيين، وتستشهد بطموح كاتب ملحمة(كلكامش)بالسيطرة على غابات الارز وخشبها الضروري لتسقيف بنايات المعابد والقصور،وكان(سرجون الاكدي ٢٣٤٠-٢٢٨٤ ق.م) و(حمورابي الآموري ١٧٩٢- ١٧٥٠ ق.م) قد بلغوا تلك المدن وكذلك فعل قدماء(الآشوريين)... الا أن خطا وهميا يرسم على الخرائط شمال(بيلوس)جبيل الحالية يعد حدا فاصلا للممالك التي تتبع الحضارة العراقية والأخرى ذات التأثر بالحضارة الفرعونية [١٥]. وقد يسجل العثور الكثيف على جواهر وكؤوس ونصب ملكية فرعونية في مدن(جبيل وبيروت واوكاريت)[١٦] إضافة الى رواج تجارة لفائف البردي واعتمادها لاحقا في تدوين الوثائق الفينيقية ادلة على الاتجاه الثقافي والحضاري الكنعاني نحو الفراعنة، مع خصوصية الثقافة الدينية ذات الميل الشرقي وتأثيرات عقائد بلاد الرافدين.

---

* اسقطنا الاموريين من اهتمام هذا المبحث بسبب تلاشي وضمور دورهم قبل حقبة الاحداث المعنية بالنقاش هنا.

ونجم عن اختيار مناطق السكن للتجمعات السكانية الكنعانية طابعا متميزا في مجال الصناعة والزراعة والتجارة واساليب النقل(البحري خصوصا) فهم كانوا يسكنون (عكو) عكا الحالية و (اكزيت)الزيت الحالية و (قانة وصور وصرفة) صرفند الحالية و (صيدون الحالية و(بيريتوس) بيروت الحالية و (بيبلوس) جبيل الحالية و ارواد و(اوغاريت) رأس شمرة الحالية و (اريحا و الكرمل). فقد كان خشب غابات (لبنان) الغزيرة الانتاج وخاصة خشب الارز والزان والسنديان يشكل ثروة عظيمة في اكثر من اتجاه، فهي بضاعة بناء تجارية رائجة ذات تأثير سوقي (استراتيجي) وهي مادة خطيرة في صناعة بناء السفن مما اتاح لهم فرصة مخر عباب البحر نحو الاصقاع النائية يحملون بضائع الشرق ويجلبون ما تجود به طبيعة تلك البلدان وعبقريات صناعييها. ولا عجب فقد اوصلتهم سفنهم واندفاعهم وروحهم التجارية المغامرة نحو كل السواحل الاوربية، ووصلوا الجزر البريطانية (جزيرة كاستيرودس) حيث جلبوا الرصاص والقصدير. ولا نستطيع انكار كونهم اول من عبر المحيط الاطلسي، فالادلة التي يوردها الفريق المتبني لهذه الفكرة ما تزال قوية رغم عدم ضرورة مناقشتها في بحثنا هذا حفاظا على صفة الاختصاص وتحاشيا للتشتت.

وكانت صناعة السفن الفينيقية (*) من الصناعات الرائجة والتي تدخل في أساس التجارة كوسيلة للنقل وكذلك للمواصلات، وكان السفانون(**) الفينيقيون مطلوبين حيثما دعت الحاجة الى تصنيع السفن، فقد استقدم (الآشوريون) سفانين فينيقيين لصنع ما يلزم من السفن لتنفيذ

---

* الفينيقيون حيثما وردوا فان المراد بهذه التسمية (الكنعانيين)، وفينيقيا تعني بلاد كنعان.

** السفانون: صانعو السفن.

حملة في جنوب بلاد الرافدين في بيئة مائية،، ظهرت في المنحوتات الى تؤرخ لها، سفن فينيقية يستخدمها جنود اشوريون .

وغير صناعة السفن وصبغة الارجوان المستخدمة في صبغ المنسوجات كانوا ينسجون الصوف والكتان[***] وكان الخزف والزجاجيات من فنونهم الرائجة. اما العاجيات فقد كانت مطلبا ملحا في عموم ممالك العالم المعروف يوم ذلك. وقد تفننوا في الصناعات التحويلية حيث استثمروا مناجم النحاس التي كانت من الخيرات التي نعمت بها ديارهم وخاصة في (صوبة) في (بقاع لبنان) وشمال (فلسطين) حيث كانت بمتناول ايديهم وكان البرونز مادة متيسرة حيث انتجوا كثيرا من الاسلحة والاواني وكان الذهب والفضة اللذان يجلبهما تجارهم من (مصر) عنصرين مهمين في صناعة الحلي والمصوغات ذات الرواج الكبير.

وبسبب خصوبة الارض ومساعدة المناخ فقد نجحوا في ادخال زراعة العديد من الاصناف الجديدة للمنطقة كالزيتون والاعناب والتين والرمان حيث نجحت نجاحا باهرا وما زالت تشكل ثروة من ثروات بلاد (الشام)، في حين برعوا في انتاج انواع الخمور والزيوت للاستهلاك المحلي وللتصدير وكان هناك اكتفاء ذاتي من الحبوب وخاصة الحنطة والشوفان والشعير والذرة والعدس، وقد كثروا زراعة الجوز الذي كانت المنطقة تجود به قبل ان يحظى باهتمامهم .

ولم يقتصر تطورهم الحضاري على تنمية الصناعة والزراعة والتجارة، بل كان لهم دور ثقافي رائد حيث يشهد لهم تاريخ الكتابة بالتحسين الذي ادخلوه على الابتكار العراقي(الكتابة)، عندما ابتدعوا

[***] عرف القطن بوقت متأخر عندما جلب (سنحاريب) الآشوري اشجاره من الهند وزرعها في حدائقه واطلق عليها اسم (اشجار الصوف).

الابجدية التي ساعدت على انتشارها بفضل السهولة واليسر المتحققين بفضل ذلك وكان حجم استيراد لفافات البردي الخاصة بالتدوين دليل رقي ذلك المجتمع، ولا عجب في ان نرى مؤلفي اسفار العهد القديم يقتبسون من الثقافة الكنعانية (الفينيقية) الكثير (١٧). ونستطيع تلمس شواهد ذلك، ففي سفر (ايوب) نجد صوت الاله (بعل) الذي يطلقه(الكنعانيون) على الرعد يتحول على يد كاتب هذا السفرالى صوت (يهوه) (١٨) . اما سفر (أشعيا) فانه اشار الى اسطورة الحيوان الخرافي (لوياثان) الذي يقتله الاله (بعل) عند(الفينيقيين) بعدما جعل قاتله (يهوه)(١٩) ، عدا عن كثير من الحكم والأشعار التي يزخر بها الأدب الكنعاني عندما كان (بنو اسرائيل) يرزحون تحت نير التخلف والجهل في ارض (مصر) يبحثون عن عوامل للخلاص، وليس للترف الفكري الذي تعلموه من (الكنعانيين) فيما بعد.

بيد ان هذا التقدم الذي لم يغفل الجانب العمراني الذي بهر (سترابون)(*) عندما وصف بيوت(صور) بانها اعلى من بيوت(روما) ايام عظمتها، لم يشمل الجانب العسكري في حياتهم، اذ ان الانغماس في المكاسب المادية الناجمة عن الصناعة والتجارة ألهاهم عن التوجه العسكري فاعتمدوا على مرتزقة اجانب احيانا مستثمرين طبيعة المنطقة افضل استثمار نحو تعزيز روح الدفاع، لذا نجد ان الملوك الاشوريين مثلا كانوا يتخطون(**) مدينة (صور) ولايضيعون وقتهم في حصار لا طائل من ورائه. بينما حاصر (نبوخذ نصر) هذه المدينة ثلاث عشرة

---

* سترابون: (٦٤ق.م-٢٣م) مؤرخ وجغرافي اغريقي درس الفلسفة وساح في ارجاء العالم المعروف في حينه.

** التخطي: ترك القوة لمحور تقدمها والمرور حول العدو والاستمرار نحو الهدف التالي(٢١).

سنة، واعجزت (الاسكندر) الذي انفق عشر سنوات في حصارها. المهم ان النـزعة الحربية عندهم كانت محدودة ولا تتعدى النـزعة الدفاعية،قد يكون في ذلك تفسير لانحسار امتدادهم جنوبا على ايدى (اليهود)فيما بعد، بالوقت الذي كان بمقدورهم تأسيس دولة في (لبنان) و(فلسطين) ومنع (اليهود) من ترسيخ اقدامهم هناك.

وكما برع (الفينيقيون) في مهنة التجارة والمال فقد حذقوا فن السياسة ولا عجب فانهم "ككل التجار الأقدمين، لم يكونوا يفرقون كثيرا في اعمالهم، ولا في لغاتهم بين التجارة واللصوصية، فكانوا يسرقون الضعيف ويبتزون مال الغني"[٢٠]. وقد يكون في هذا الوصف تعليلا مقبولا للتقلب السياسي الذي اتسمت به العلاقات السياسية بين هؤلاء الناس وسكان بلاد الرافدين،. ثم لم يكن هناك ما يمنعهم من الشراكة مع (سليمان) في التخطيط من اجل نقل الطريق التجاري الاهم من جزيرة العرب مروا ببلاد الرافدين فسوريا الى طريق مستحدث يمر بالمدن الفلسطينية وينتهي في خليج العقبة، حيث انشأوا ميناءً ومصنعا للسفن، فأي رد آشوري يمكن ان يتوقعه المراقب؟ فالفينيقيون تعاونوا مع اليهود لاضعاف سيطرة الآشوريين للتخلص من سطوتهم السياسية والعسكرية .

الفلسطينيون:

سواء كانت المدن الفلسطينية المهمة (عزة) غزة الحالية و(اشدود) و (اسقلان) عسقلان الحالية و (عقرون) و (وجت)، اسسها الكنعانيون بين ٢٥٠٠-٢٣٠٠ ق.م أم الفلسطينيون فان انتشار تلك المدن على الساحل الفلسطيني باستثناء (جت) حيث تقع الى الخلف، يحدد مناطق سكن الفلسطينيين مما دعا المؤرخين لان يطلقوا اسمهم على ذلك القطاع الحيوي من الارض فسميت (فيلستا-او فيلستينا). كل هذا تم قبل ان يعبر (موسى) بقومه خليج (السويس)نحو (سيناء).

لقد تميز هؤلاء القوم بالشدة وقوة البأس وصلابة الاسلحة التي يجيدون صنعها ورغم ان تلك المهنة كانت تعتبر من الاسرار القومية لدى بعض الشعوب كالحثيين، وكانت تلك الصفات دافعا لهم لغزو (مصر) ذاتها، وحققوا هدفهم ايام حكم (رعمسيس الثالث ١١٩٨-١١٦٦ ق. م)وبسبب عظم الخطر وعدم جدوى المواجهة المباشرة فقد خطط (رعمسيس) للايقاع بالفلسطينيين عن طريق المباغتة في الاسلوب والمكان..وكانت الخطة المصرية تعتمد على شن هجوم بحوي مباغت، وتحقق ذلك عام١١٧٤ ق. م باستخدام جنود بحر مرتزقة. ولم يكن نجاح(رعمسيس) مضمونا لولا تلك المباغتة التي جعلت (الفلسطينيين) يتراجعون الى الدخل تاركين الساحل المشتعل نهبا للغزاة.

ولان فراعنة (مصر) كانوا يرحبون بالجنود المرتزقة الذين يبحثون عن حروب يقتاتون على غنائمها، فانهم قبلوا الوفا من (الفلسطينيين)(يسمونهم جنود البحر) في جيشهم، فهم مقاتلون اشداء يكفيهم فخرا ان ينقش عدوهم الاكبر (رعمسيس الثالث) لوحة تذكارية منحوتة بالصخر تبلغ مساحتها الاف الاقدام المربعة تصف الوقائع الحربية التي كانوا واياه طرفيها، حيث يخلص الى انهم" لم يستطع أي قطر من الاقطار ان يصمد امام قوتهم القاهرة"[٢٢]. وكان (الفلسطينيون) الذين خدموا في الجيش المصري قد علموا المصريين طريقة صنع رؤوس نحاسية للسهام.

ركز العديد من المؤرخين انظارهم صوب التجهيزات الحربية الفلسطينية كونها نمطا متقدما في هذا المجال.. فهي تتألف من اسلحة قوية ودروع متينة حيث يرتدي المقاتل خوذة لوقاية الرأس حاملا سيفا عريض النصل وترسا مدورا مع رمح مسنن. وكانت تحت تصرفهم عربات تجرها ثيران ضخمة، وتحت تلك العربات عجلات مدورة مؤلفة من قطعة واحدة[٢٣].

وعقب الوفاة الغامضة (لموسى) ودخول بني (اسرائيل) ارض((كنعان) فقد كانت اول مواجهة لهم هناك مع هؤلاء (الفلسطينيين)، وفشل (يوشع) خليفة (موسى) وكذلك (يهوذا) الذي تزعم قومه فيما بعد في تحقيق أي نجاح ضد هؤلاء المقاتلين الشرسين.

ويصف مؤلفو اسفار العهد القديم واحدة من المعارك التي دارت بين الطرفين بأنها خيبة ومرارة حيث هزم(اليهود) خلال المعركة مخلفين(٣٠)الف جثة تفترش ارض المعركة، ومن بين القتلى الكاهنان الكبيران(فنحاس وحبقي) وصار تابوت العهد غنيمة بيد(الفلسطينيين) ضمن كميات كبيرة من الاسلاب والغنائم. وكان وقع ذلك شديدا على قائدهم المدعو(عالي) والذي كان يقود من الخلف حيث تسببت الهزيمة في موته المفاجئ.

ويسجل تاريخ الصراع المتقدم ذاك أن خوف (اليهود)من (الفلسطينيين) كان وراء مطالبة (اليهود) بتنصيب ملك عليهم يقودهم كما يفعل الملوك ويخطط لمعاركهم كما لمستقبلهم، حيث جرى تنصيب(شاوول) أول ملك عليهم ولكنه انتحر عقب فشله في ادارة احدى المعارك التي قتل فيها ثلاثة من اولاده وأنهزم جيشه فيها أمام(الفلسطينيين).

لقد حظر(الفلسطينيون) نقل تقانة انتاج الحديد الى جيرانهم الجدد(اليهود) الذين يحكمهم(قضاة) ويدفعون الضرائب بشكل منتظم الى الجيران الاقوياء(الفلسطينيين). وكان هدف قادة(الفلسطينيين) من هذا الحظر منع(اليهود) من الالمام بصناعة الاسلحة. وابقوا كما كان شأن(الحثيين) هذا الامر سرا قوميا لا مجال للتفريط به الى درجة أن(اليهود) كانوا يلجأون الى الحدادين الفلسطينيين لشحذ سكاكين مطابخهم [٢٤]. وكانت تلك السكاكين ضمن تجهيزات معدنية اخرى قليلة سمح(الفلسطينيون)لليهود بحيازتها استمراراً لاعمال الزراعة عندهم

وليضمنوا استمرار تدفق الضرائب عليهم حتى أن البعض سجل أن(شاوول) الملك وابنه(يوناثان) الوحيدان اللذان كانا يملكان اسلحة، اما بقية جيشهم فلم ير فيه من تسلح بسيف أو رمح [٢٥].

اليبوسيون:

اليبوسيون هم فرع من(الكنعانيين) كما يشير سفر التكوين ويسمي هذا السفر أباهم(اليبوسي) الذي هو كما يقول السفر المذكور احد أولاد(كنعان). وأن بدايتهم معروفة لدينا حيث هاجروا ضمن الموجة الكنعانية من جزيرة العرب بحدود ٣٠٠٠-٢٥٠٠ ق.م ولكننا آثرنا مناقشة موضوعهم على انفراد عن(الكنعانيين) لأهمية علاقتهم بالقدس(اورشليم)التي أسسها ملكهم(سالم) وسميت باسمه (اور سالم أو اورشليم)[٢٦]. ثم أخذت تمييزاً لها كحصن عن بقية الحصون اسم(حصن اليبوسيين) أو(يبوس) كما ورد في سفر القضاة الذي يعترف بأنها غريبه عن بني(اسرائيل)[٢٧]. وكان هذا الحصن والمدينة التي يحتضنها هو العمل العمراني الأول لليبوسيين.

وكان هذا الحصن منيعا قادرا على الصمود وكسر ارادة المهاجمين(اليهود) في كل محاولاتهم قبل واثناء حقبة حكم (القضاة) حيث عجزوا عن اختراقه واغتصاب المدينة من سكانها الأصليين. وتنفيسا عن حقدهم على اهالي هذا الحصن فقد حرقوه بعد فشلهم في احتلاله، وبعد أن نصب(داود) ملكا عليهم فقد كان في مقدمة اهتماماته احتلال(اورشليم).

وعدا عن الإبداع اليبوسي المتحقق في بناء مدينة وتسويرها بحصن يعجز الاعداء عن اختراقه، فقد سجلوا ابداعا لا يقل اهمية وتميزا عن سابقيه وهو مشروع ارواء المدينة حيث حفروا نفقا داخل الجبل بنقر الحجر ينتهي بخزان كبير تحت مركز المدينة يزودها بالماء بواسطة قناة تجلب الماء من نبع (جيحون) تمر داخل النفق الذي ينتهي

بالخزان ولغرض سحب الماء من الخزان فقد حفروا الطبقة الحجرية التي فوقه بعمق(٨،٢م) وابعاد فوهة الحفر(١،٨×١،٢م)يمكن سحب الماء عبره بواسطة دلو وحبل. وكان هذا النفق السري هو الوسيلة التي استغلها(داود) في احتلال الحصن بعد دفع عدد من رجاله بالتسلل عبره والظهور داخل المدينة[٢٨]. مما تسبب في انهاء مقاومتها التي استمرت اربعة اشهر مع حصار منع فيه الامدادات الغذائية عن الوصول الى المدينة.

الحثيون:

ضمن الاجتياح الهند اوربي الذي عم بلاد الرافدين والشام جاء الحثيون نازلين من(الاناضول) نحو السهول السورية، وعندما بلغوا(ماري) شمال (البو كمال) الحالية على (الفرات)، وكان ذلك عام ١٥٩٥ق.م فلم يتأخروا في المدينة التي تحكي خرائبها قصة غضب(حمورابي) على اقربائه (الأموريين) هناك، فتجاوزوها نحو(بابل) التي نهبوها وغادروا سريعا نحو اماكن انطلاقهم شمال(سوريا)، وبذا قدموا الى (الكاشيين) فرصة العمر دون أن يقرروا ذلك،حيث دخلت (بابل) عهد السيطرة الكاشية الطويل.

وفي اماكن الاستقرار التي قبعوا فيها شمال(سوريا)، خمد ذكرهم مئات السنين الى ان ظهر بينهم القائد الاشهر (شيبلو ليوما) المتوفي حوالي ١٣٣٠ ق. م وهو الذي وجد الظرف ملائما لاطلاق العنان لطموحاته المتهورة حيث كانت ثورة (اخناتون) تعصف (بمصر)، و (الآشوريون) قد دخلوا دهليز السبات. وكان الاندفاع جنوبا خطوته الاولى، بيد ان (المصريين) هاجموه في معركة (قادش) ١٢٨٦ ق. م التي لم تسفر عن حسم وانما ختمت باتفاقية ترنو الى الشرق حيث بوادر نهوض اشوري قوي كما سيمر علينا في حينه.

لم تندثر القوة الحثية دفعة واحدة، وانما بقيت تتردى حتى العام ١٢٠٠ ق . م حيث تلاشت تحت تأثير المخاطر الاشورية وما استجد من خطر قادم من بحر (ايجة) متمثلا بالشعوب البحرية. ورغم كل هذا الظرف الصارم فقد برز بين الفلول الحثية المتنافرة خائرة القوى رجال اتصفوا بالعناد قادوا تلك الفلول وغيروا اتجاه سيرها من الخلف الى الامام حيث تشبثوا بمواقع ولو صغيرة ولكنهم نجحوا في تأسيس كيانات صغيرة وقد خلق هذا الانتشار واقعا جديدا تجسد بانتشار عدد كبير من الدول الحثية الصغيرة لايقل عددها عن اثنتي عشرة دولة اهمها في (حماة) و (حلب).

ان الشهرة التي اكتسبتها دولة (الحثيين) الموحدة جاءت من احتكارهم سرا تقنيا رهيبا هو سر إنتاج وتصنيع الحديد المطاوع[٢٩]. وعدوه سرا قوميا خطيرا لا مجال للتفريط به أباحته لملوك الدول الاجنبية اطلاقا، وكانوا يتباهون أمام الملوك الكبار في زمانهم بما لديهم من تقنية خاصة من خلال إهدائهم أسلحة مصنوعة من الحديد المطاوع، وكان ذلك ينطوي على دعاية تجارية اضافة الى الاثر النفسي الذي يكسبونه من جراء اشعار الاخرين بقوتهم. وقد لاقت تجارتهم في مجال انتاج وتصنيع الحديد رواجا كبيرا واخذت الدول الاخرى تتقدم بطلبات شراء اسلحة ومصنوعات حديدية من انتاجهم. وكان اهتمامهم بسرية هذه التقانة ينبع من ان خامات الحديد متوفرة في اغلب أصقاع الأرض مما يسهل استخراجها وتصنيعها خلافا للبرونز الذي كان استخدامه سائدا وقتذاك حتى منح اسمه صفة لذلك العصر. فالبرونز هو سبيكة من النحاس والقصدير يتطلب الحصول عليهما بذل جهود واموال طائلة خلافا للحديد. فاذا ما بقيت تقنية الحديد حكرا على (الحثيين) فان ذلك يعني تدفق ثروات طائلة عليهم ، واكسابهم قوة مضاعفة ضد اعدائهم. ولكن هذا السر تسرب فيما بعد الى شعوب اخرى عندما تشرذم

(الحثيون) موزعين سرهم القومي حيثما حلوا، وكان (الفلسطينيون) قد اجادوا التعامل معه وعدوه سرا وطنياً وقومياً كما كان (الحثيون).

وعموما فان مجيء ملوك اقوياء الى عرش الدولة الاشورية الناهضة في العصر الاشوري الحديث (كشلمنصر الخامس) وخليفته (سرجون الثاني) مبعث نحس وسوء طالع لتلك الدويلات حيث اخذت تتهاوى وتتلاشى، ولم يحن عام ٧٠٨ ق.م الا وكانت قد ازيلت تماما.

المهم في سالف ايام هؤلاء القوم انهم عقب تشرذمهم انتشروا على شكل رعايا في عموم بلاد الشام حتى ان (اليهود) عندما قدموا الى (فلسطين) عايشوهم واستخدموهم في حروبهم وصاهروهم وان قصة زواج (داود) من (باشيشبا ابنه ايليام وزوجة اوريا الحثي القائد العسكري) معروفة للجميع[٣٠] وكان (سليمان) قد تزوج من اخواله (الحثيين) عددا من النساء وان العهد القديم يسمى هؤلاء (الحثيين) باسم (خطي)[٣١] ربما اقتباساً من اسم عاصمتهم (حاتوشا واحيانا خاتوشا او خاطوشا). بينما يرد اسمهم الصريح المعروف لدينا في مواضع اخرى من تلك الاسفار التي يمكن تلمس اخطاء كاتبيها بسهولة في اماكن عديدة منها. فهم يحسبون هؤلاء (الحثيين) من اصل كنعاني" وكنعان ولد صيدون وحتا. الخ"[٣٢]متجاهلين اصولهم الهند اوربية كما فعلوا مع العيلاميين الذين ردوهم الى (سام بن نوح) من طرف ابيهم (عيلام بن سام)[٣٣].

ونرى هنا ضرورة التصدي لرأي – (ديورانت) بخصوص التزاوج اليهودي الحثي ومناقشته فيما ذهب اليه. حيث يعزو الانف الاقنى الشديد القنى عند اليهود والذي هو حسب زعمه خاصية عبرية (ارية) حقة، الى اختلاطهم قديما بالحثيين [٣٤] ويصر على صواب رأيه بالعودة اليه وتكراره موثقا مزاعمه عندما يقول" فالأسرى العبرانيون الذين نرى صورهم في النقوش المصرية والآشورية يشبهون كل الشبه

اليهود هذه الايام، رغم تحامل الفنانين وتحيزهم، ففي هذه النقوش نرى الانف الحثي الطويل الاقنى والوجنتين البارزتين، وشعر الرأس واللحية الملتوي"(٣٥).

وتفنيدا لما سبق نقول يبدو ان (ديورانت) لم يطلع على صفات ادعياء اليهودية من الاحباش (الفلاشا) والهنود سكان جنوب (فلسطين) ما بعد ١٩٤٨ م. ثم ان المليون روسي الذين وصلوا الى (فلسطين) منذ العام ١٩٨٩ م ولغاية منتصف عام ٢٠٠٠ وما زالوا يتقاطرون يملكون صفات جسدية غير ماهم عليه (يهود) الصور الآشورية والفرعونية، ثم ماذا عن (يهود الخزر) الذين تهودوا؟

الم يكن (ديورانت) قد جانب الصواب بزعمه المتهافت ذلك؟

جماعات اخرى:

حفلت بلاد الشام بجماعات اثنية اخرى كثيرة اقل اهمية ودورا في صنع الاحداث وتكوين التاريخ وخاصة فيما له علاقة بموضوع بحثنا وسنلقي قبسا خافتا على الاهم منها ونهمل ما سواها تحاشياً للإطالة وتمسكا بمنهج البحث الذي قررناه:

الادوميون:

يرجع اصلهم الى (عيسو بن اسحاق) اخي (يعقوب) وكانت منطقة سكناهم جنوب البحر الميت وهي منطقة اثبتت التحريات الاثارية انها كانت منطقة مأهولة بكثافة منذ الالف الثاني ق. م بعد ان اسقط بيد (موسى) ورأى أن لا فرصة له للمرور الى الشمال عبر التجمعات الكنعانية، قرر ان يستأذن (الادوميين) بالمرور عبر ديارهم متوسلا بصلة القربى معهم كما عرض سفراؤه الى ملك (ايدوم). ولكنه رفض

خوفا من عواقب الامور، فهذه الجموع متخلفة غير منضبطة لايضمن حسن سلوكها.

عندما رسخ (داود) اسس حكومته واتخذ (اورشليم) عاصمة له وهيأ جيشا قويا، رأى ان الفرصة سانحة لتحقيق نياته التوسعية، فاستولى بادئ ذي بدء على بلاد(ادوم) التي بقي شعبها يتربص (باليهود) ويتحين الفرص لانتزاع استقلاله بعد ان اباد (داود) ثلثي رجال الدولة وجميع افراد العائلة المالكة باستثناء شخص واحد نجح في الهرب والوصول الى (مصر) وهو(حداد) حيث اقترن بأخت قرينة فرعونها وولدت له ابنه (جنويت)[٣٦].

وفي زمن (سليمان) كان أسطوله يتاجر بالمصنوعات الحديدية الادومية والتي كان(الادوميون) يجيدونها كما (الفلسطينيون) بعد ان تعلموا صهر وتصنيع الحديد من أهل (مدين) على مايظن.

وعقب موت (سليمان) وانقسام دولته، فقد كان (الادوميون) حصة المملكة الجنوبية(يهوذا)، وعندما ملك رابع ملوك (يهوذا) المدعو(يهورام ٨٤٨-٨٤١ ق. م) وجد (الادوميون) في ضعف الكيان الاستعماري اليهودي فرصة لتحقيق طموحهم في التحرر والاستقلال خاصة وان الامير الذي لجأ الى (مصر) كان قد عاد وقاد صفوف الثوار وحرر بلاده من الاستيطان اليهودي.

بقيت (ادوم) هادئة تتمتع باحترام وحماية الملوك الآشوريين حيث كان ملكهم (ملخ رام) محافظا على علاقات طيبة مع (سنحاريب) وكذلك كان خليفته (كيموش جابر) في علاقاته مع خليفة (سنحاريب)الملك الآشوري (اسرحدون).

وخلال حركات (نبوخذ نصر) في فلسطين عام ٥٩٧ ق. م فقد اناط بالادوميين مهمة احتلال(رامات نقب) لاحكام السيطرة على (اورشليم) ومنع اتصالها بمصر وتم لهم ذلك[٣٧].

ويبدو ان (نبو خذ نصر) كافأ الادوميين بعد ازالته مملكة (يهوذا) حيث منحهم المناطق الجنوبية منها والممتدة من (الخليل) الى (بئر السبع) فوادي العربة الفاصل بين (النقب) وبلاد الشام (ادوم). ومما يذكر ان هؤلاء حكموا (فلسطين) في فترة ميلاد السيد المسيح حيث كان (هيرودتس) ملكا من ٣٧ – ٤ ق. م واعقبه ابناؤه كل من (ارخيلاوس) و(انتياس) و (فليب).

المؤابيون:

وكان كيانهم شمال دولة الادوميين(شرق البحر الميت) حيث عثر هناك على لوح كتابي يعود الى أواخر الألف الثالث ق.م مما يدلل على سكن تلك المنطقة من قبل أقوام ذات قدم راسخ في الحضارة. انماز هذا الشعب بالشجاعة الفائقة والقسوة مع الأعداء، وكانت لهم مواقف مشهودة أبرزها التاريخ باهتمام كبير وخاصة خلال صراعهم المرير مع(اليهود) ومحاولاتهم الجادة في إحباط المساعي اليهودية لاستعمارهم واستبعادهم.

فقد طمع سادس ملوك إسرائيل(عمري ٨٨٥-٨٧٤ق.م) ببلاد (موآب) وتمكن من مباغتتهم واحتلال(مأدبا)عاصمتهم (٢٤كم جنوب شرق مصب نهر الاردن في البحر الميت) وكان تعامله معهم ينطوي على الحقد والانتقام حيث هدم كثيرا من مدنهم، وفرض عليهم جزية مقدارها(٢٠٠)ألف رأس غنم سنويا. فهذه المملكة يمر بها الطريق التجاري الرئيسي الذي تنقل عبره منتوجات(اليمن) وجزيرة العرب وما يرد من الهند الى بلاد الشام وخاصة البخور الذي لا يمكن الاستغناء عنه في كل المعابد حيث يستمر الطريق الصاعد مع البحر الاحمر فالعقبة ثم بلاد(موآب)ويتجه نحو(دمشق)...وعندما حاول ملك موآب(ميشا بن كيموش كاد) الخروج على الهيمنة اليهودية فقد هاجمه تحالف يهودي فريد من نوعه ضم جيشي الدولتين اليهوديتين لأول مرة في تحالف من

اجل عمل مشترك، وبعد حصار طويل تضرع خلاله الملك(ميشا) الى الاله(شمس) وضحى بابنه البكر قربانا فحرقه حيا أملا في فك الحصار عنه،ويتقبل قربانه فتنهزم جيوش الغزاة ويطاردهم(ميشا) فيأسر منهم سبعة الاف جندي. وشكراً للالهة واعترافا بفضلها فقد ذبح كل الاسرى[٣٨] قربانا. وطفق يوسع حدود مملكته مستثمرا انتصاره على حساب جيرانه من إمارات شرق(الاردن)[٣٩].

إنَّ اهم ما ترك هؤلاء المؤابيون هو نصب تذكاري خلد على صفحته ملكهم الثائر(ميشا) قصة الفعل التحرري الذي نفذه ضد(اليهود)، وقد عثر على النصب في مدينة(ذيبان) شمال جبل(شيحان) في شرق الاردن مكتوبا بلغة سامية وابجدية فينيقية، فهو يتكلم عن تحرير العاصمة(مأدبا) و(اثاروت) ومنطقة جبل(نيبو) ثم تحريره لمدينة(جاهاز) ثم(ديبون) التي هي(ذيبان) حيث عثر على النصب، وأنه استخدم اواني(يهوه) التي غنمها من اليهود في معبد الهه(كيموش). وهذا النصب الذي شمت فيه(ميشا) من المجزرة التي نفذها(ياهو) بحق عائلةً(اخاب بن عمري) حيث يقول "سررت حين تحطم اخاب وعائلته، لقد ماتت اسرائيل الى الابد" [٤٠] موجود حاليا في متحف اللوفر[٤١]. فهل نعجب عندما يخصص مؤلفو الاسفار حيزا واسعا من كتاباتهم لموآب، حيث يتمنى(اشعيا) دمار موآب[٤٢] ومثلها كانت اماني(ارميا)؟

العمونيون:

كان(صموئيل) اخر قضاة بني اسرائيل قد اختار(شاوول) ملكا عليهم لدوره المتميز في قتال (العمونيين)، وكانت (عمون) دولة صغيرة يحكمها ملك، عاصمته(رابرا) أو(عمون ربا) التي هي (عمان) الحالية.

ولقد صمد العمونيون بوجه الطمع اليهودي المتمثل بهجوم صارم وقاموا بشكل مثير للاعجاب وتناولوا الغلبة على عدوهم، الا أن

زعماء(اليهود) رأوا أن يستنجدوا بالمدعو(يفتاح) القادم مـــن(جلعـاد)، وسلموه قيادة جيشهم الذي اوشك على الفناء، فنجح في مهمته وتمكن من انقاذهم من قبضة العمونيين بعد أن نذر ابنته كما يفعل الوثنيون. وعندما تحقق على يده انقاذ(اليهود) عمد الى ابنته فضحى بـــها قربانـــا وايفـاء بنذره.

وفي ايام(داود) الذي أعقب (شـــاوول) وبســبب رغبـــة(داود) باحتلال (عمون) فقد قدم ملك(صوبة) لينجد الملك العموني، ولكـن(داود) نجح في دحر التحالف فضم(عمون) الى دولته وحول سكانها الى عبيد ثم هاجم(صوبة) في (بقاع لبنان). وفي زمـــن(سـليمان) وبـــهدف تهدئـــة الخواطر خشية من التمردات والعصيان، فقد تزوج(نعمى) العمونية التي ولدت له (رحبعام) خليفته.

لقد كان(سينب) ملك(عمون) مواظبا على دفع الجزية الى الملـــك الاشوري (تجلات بلارز الثالث) بينما ســجل(ســنحاريب) أن(بوديـل) ملك(عمون) المعاصر له كان مخلصا للآشوريين وكذلك كـــان(فضيـل) ملك(العمونيين) ايام(اسر حدون) وكانت الجزية المفروضة عليه من قبل الآشوريين مقدارها منين من الذهب.

المدينيون:

وهم اهل مدين حيث كانت منازلهم تنتشـــر فـــي جنـــوب الاردن الحالية في الفسحة الواقعة بين خليج (العقبة) والبحر الاحمر وحتى شمال الجزيرة العربية ولم يستطع اليهود الخارجون مــــن(ســيناء) الوقــوف بوجههم والصمود تحت هيمنتهم فهربوا الى المرتفعات شمالا حيث كـان اللقاء ساخنا مع (العمالقة) و(الفلسطينيين) و(الكنعانيين) الـــذي اجمعــوا على رفض فكرة مرور(اليهود) عبر ديارهم.

العمالقة:

وهم سكان منطقة(النقب). لقد نشبت بين(اليهود) و(العمالقة) معارك شرسة حيث كان كلا الطرفين يقاتل بحماس منقطع النظير، (فاليهود) الذين اصطدموا(بالميدينيين) اضطروا للتوجه شمالا حيث منعهم (العمالقة) من المرور عبر منازلهم، مما جعلهم يقاتلون مستميتين طلبا للنجاة من تيه صحراوي جديد، و(العمالقة) قاتلوا قتالا شديدا دفاعا عن مساكنهم وعوائلهم واموالهم لئلا يغلبهم عليها (اليهود) الذي ليس لديهم ما يخافون عليه، وهم طامعون بما في ايدي الاخرين. وعندما كان(داود) لاجئا عند الفلسطينيين ايام حكم (شاوول) وفي الوقت الذي كان ينفذ فيه غارات لصالح (اخيش بن معوك) ملك (الفلسطينيين) وبصحبته عصابة من اليهود القي القبض على عبد ابق من(العمالقة)، وبعد استنطاقه تعرف على مواطن ضعف(العمالقة) حيث هاجمهم وغنم منهم مالا كثيرا أرسله بصفة هدايا لزعماء (اليهود). ولم يكن دور هؤلاء(العمالقة) ذا قيمة بعد ذلك الا ما ندر. وبسبب دورهم في منع(اليهود) من تحقيق اغراضهم فان(صموئيل) امر(شاوول) بذبح ملك(العمالقة)، وعندما تردد (شاوول) في التنفيذ، تقدم(صموئيل) لذبح الملك بيده ونفذ ذلك فعلا.

العرب:

وإن لم يكن ثمة تماس بين العرب واليهود في الحقبة التي هي موضوع بحثنا هذا الا أن وجود العرب في بلاد الشام وقتذاك ونشاطهم المفضي الى انتاج احداث لها دور غير مباشر في موضوعنا جعلنا نثبت وجودهم ونناقش بعضا من نشاطهم ذاك.

فبفضل تدجين الجمال كان الانتقال العربي الى الشمال امرا ميسورا (٤٣) حيث بدا لهم دور هناك اوردته اشارات يعود اقدمها الى

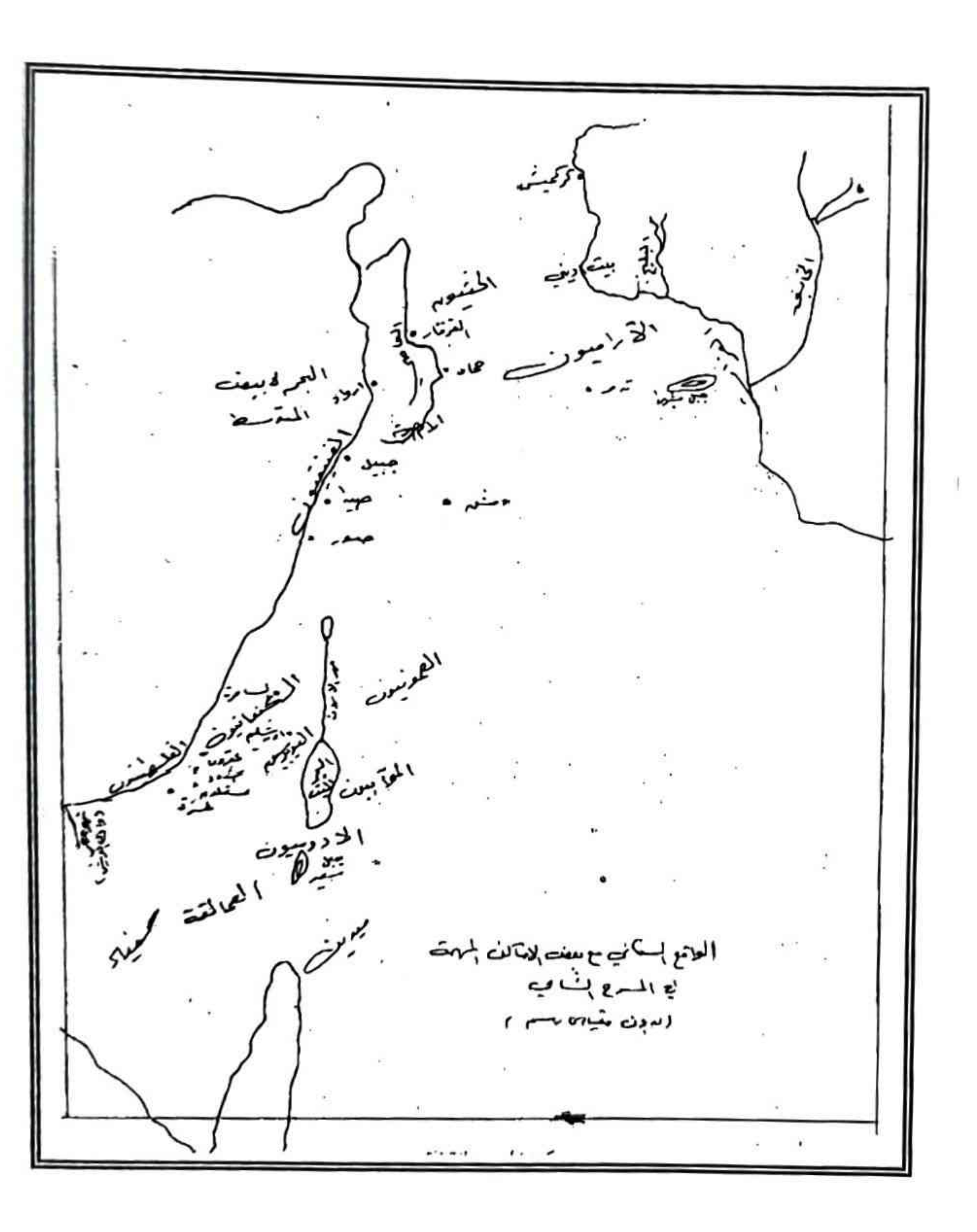
العام ٨٥٤ق.م [٤٤] ومحط اهتمامنا هنا بالذين هم عرب الشام لقد كـــانوا يتكلمون اللغة التي نزل بها القرآن الكريم ودون بها الشعر الجاهلي [٤٥]. فهؤلاء كان لهم دور محدود في التاريخ الاشوري لم يعمدوا الى توثيقـــة لنطلع على وجهة نظرهم، فهم ساعدوا(شـــمس- شـــم- اوكـــن) ابـــن (اسرحدون) المعين على عرش(بابل) وولي عهد اخيه(آشـــور بانيبـــال) عندما قرر أن ينفصل عـــن الدولـــة الاشـــورية ويتـــوج نفســـه ملكـــا على(بابل)[٤٦]. وعقب تمرد ملك(العرب) الذي عينـــه(اشـــور بانيبـــال) تضامنا مع(بابل)، فقد جرد الملك الآشوري حملة ضده. فـــانضم الملـــك العربي الى(النبط) ضد الملك الآشـــوري الـــذي فتـــح مقـــره المتقـــدم في(دمشق) وارتكب احدى حماقاته عندما توغل في الصحـــراء مدمـــرا مصادر المياه فيها الى أن القى القبض على الملك العربي واهانه بربطـــه بطوق عند باب نينوى [٤٧].

لقد كانت(سيناء) حافلة بالمخاطر والصعوبات، فهي خاليـــة مـــن الأنهار وكانت مسالكها وطرقها المتعددة تدفن تحت الكثبان الرملية، وقد سجل وجود انواع من الأفاعي التي يخشى الملوك بأسها، فهي قاتلة لـــها رأسان كما يصفها(اسرحدون)[٤٨]. أما وسائط النقل في تلك الصحـــراء الرملية القاحلة فهي بالدرجة الاولى الجمال.

ولما كان(العرب) وحدهم قادرين على التعامل بسلام مـــع شـــبه جزيرة سيناء[٤٩] فأن جهودهم وخيراتهم وجمالهم مطلوبة في الحمـــلات التي كانت تهدف احتلال(مصر).لذا فقد كان(اســـرحدون) يبحـــث عـــن زعامات عربية تقبل الولاء للآشـــوريين ليجعـــل منـــهم قـــادة للقبـــائل العربية.وعندما تورط جيشه في مأزق خطير في(سيناء) حيث شحة الماء وصعوبة استخراجه من الابار(بالدلو والحبل) مع قلة ما يســـتخرج فقـــد انقذ(العرب) الموقف بان جلبوا الماء على ظهور الجمال.

ولم نتطرق في استعراضنا السريع لمكونات المجتمع الشامي اللاعب بدور ما في مسرح الحرب هناك الى(النبط). وسبب عدم إشارتنا إليهم هو انهم بعض(العرب)، ولو أن ثقافتهم آرامية(حتى غلبت الآرامية عليهم)[٥٠]. وحتى لو كان هواهم باتجاه الأرومة الآرامية فأن الآراميين كانوا جزءا من إستعراضنا مما لا يستوجب عزل(النبط) في حقل منفرد.

ولضمان إزالة أي لبس، فإن إستعراضنا هذا التزم بمناقشة ماله علاقة بالامم والشعوب التي لها نشاط ما خلال حقبة الاهتمام التي هي مادة البحث ولم نلتزم بالتطرق الى اخرين زالوا أو انقرضوا قبل تلك الحقبة أو ظهروا بعدها ممن لا تأثير لهم على سير الاحداث في المسرح المعني(كالاموريين) الذين لم يسجل لهم أي دور فعال في تلك الحقبة مع أن فضلتهم كانت باقيه اضافة الى(الفرزيين)و(الحويين) الذين سخرهم(سليمان) لاغراض بناء قصره والمنشآت الاخرى [٥١].


كركميش
بيت عديني
الخابور
الحثيون
قرقار
حماه
الآراميون
تدمر
البحر الأبيض المتوسط
أرواد
الفينيقيون
جبيل
صيدا
دمشق
صور
العمونيون
الكنعانيون
الفلسطينيون
المؤابيون
الأدوميون
العمالقة
سيناء
مديين
الواقع السكاني مع بعض الأماكن المهمة
في المسرح الشامي
(الدون مقياس رسم)

المبحث الثالث

الأهمية الاقتصادية والعسكرية

لسنا معنيين هنا بتحديد المكان الاول الذي نزح منه(السومريون)الى جنوب بلاد الرافدين، ولكن ما يهمنا هو أنهم في سكنهم الجديد أبدعوا في صنع الحضارة الأساس لرقي العالم وتقدمه، أي نستطيع الزعم أنهم استثمروا ارضا بكرا بعبقرية مبدعة. ولكن ليس بالفكر المبدع وحده تنتج الحضارات وانما يحتاج ذلك الى المواد الخام ليصار الى التصنيع والانتاج وتطوير الحياة نحو الافضل، ذلك ما كانت ارض جنوب(العراق) تفتقده عندما اختارها هؤلاء(السومريون) سكنها لهم.

لماذا ترى لم يخلق(السومريون) حضارتهم في موطنهم الاصلي الذي لا أحد يجزم انه سهل رسوبي ليس فيه من المواد الخام غير الطين كما هو الحال جنوب(العراق)، في حين صنعوها هنا حيث لا أثر لاية مادة تعين على صنع الحضارة غير الطين وما يسد الرمق؟.

الاحتمال الاكثر قبولا كجواب على السؤال المار هو أن جو المنطقة يوحي بالابداع، ربما بسبب الامان من مخاطر كبرى كانوا يخشونها في موطنهم الاصلي، اما أن تكون وفرة الغذاء في جنوب بلاد الرافدين سببا في اختيارهم لهذا الصقع وابداعهم فيه، فلا نظنه كذلك، حيث أن حجم التواجد السكاني العالمي القليل نسبيا يومذاك يوحي بان الوفرة الغذائية متحققة حيثما توفر الماء وبضمنه اصقاع كثيرة من الجزيرة العربية، وما اكثر الماء وقتذاك حيث لا احتكارات ولا سدود ولا خزانات.

ثم كيف كانت البداية الموفقة في ظرف تغيب كل المواد الخام عدا الطين كما اسلفنا، فلا خشب للتسقيف(جذوع النخيل تحتاج الى الات معدنية غير متيسرة لجعلها مؤهلة للتسقيف إذا قبلنا بقلة كفاءتها مقارنة بالانواع الاخرى من الاخشاب) ولا معادن إذ حتى خامات الحديد غزيرة

الوجود في الطبيعة كانت وما تزال غائبة عن التربة الغرينية للسهل الرسوبي. يكفي القول انه حتى تماثيل العبادة والزينة لم يكن في جنوب العراق من الاحجار والصخور ما يساعد على نحتها، لذا كان يؤتى بالحجارة من اماكن بعيدة في اقصى جنوب الجزيرة العربية(عمان) التي كانوا يسمونها(ماكان) واجمالا فأن(ارنولد توينبي) يوجز ذلك بوصفه(السومريين) انهم "جازفوا بمستقبلهم اعتمادا على استغلال مادة واحدة من المواد الخام هو الغرين"(٥٢).

إذن عليهم أن يستوردوا كل شيء يحتاجونه عدا الطين والغذاء، ولما لم يكن هناك نظام نقدي يؤمن شراء الاحتياج من المواد خارج حدود المجتمع السومري، فقد كان يتعين عليهم أن يستصحبوا في رحلاتهم التجارية مواد غذائية، واصوافا يقايضون بها مشترياتهم.

وعند استعراض المواصلات ووسائط النقل التي كانت متيسرة للسومريين لكي يجلبوا كل تلك الاكداس الضخمة من المواد الاولية الصخور والاخشاب للشروع بالبناء الحضاري الضخم، فأن هذه الصور وسواها تقودنا الى استنتاج ان هؤلاء كانوا يمارسون التجارة في رحلات قصيرة مع اسواق قريبة نوعا ما. فالصادرات ثقيلة والواردات اثقل منها والوسائط المتاحة محدودة الحمولة وبطيئة الحركة.

ولاينكر ان (ملوخا) التي ربما قصدوا بها (الهند) كانت أحد أهم مصادرهم للحصول على بضائع حيث وجدت كسر طينية تتضمن اشارات لذلك الصقع، ولكن بلاد الشام اقرب بكثير مع لزوم تذكر الخطر العيلامي الذي كان يهدد الامن والنهوض في (العراق) منذ ظهور هذا العنصر على الحدود الشرقية، فهو غير مؤتمن على قوافل البضائع في طريقها بين (الهند) و (العراق)، مما يرجح التعامل مع السوق الجديدة في (سوريا) على سواها. فمن منافع هذه السوق، ان المقايضة تشمل الاعداد الكبيرة من الحمير (واسطة النقل المعتمدة)، فالبضائع الواردة

ستطفو على صفحة (الفرات) فوق الاخشاب الشامية المستوردة، حيث لا مخاطر ولا اعلاف ولا مشاق، وبذا نكون قد فسرنا سبب نشوء الحضارات على ضفتي(الفرات) اكثر منه على ضفتي (دجلة).

ان العطاء الفخم للفكر السومري يدفعنا للتمسك باهداب هذه النظرية حيث يطفح الاهتمام الكبير بغابات الارز بين مقاطع ملحمة(كلكامش) فيضحي هو وصديقة (انكيدو) من اجل تحرير تلك الغابات وفي المدن الساحلية على المتوسط، عبد (الفينيقيون) باخلاص(عشتار) التي منحت اسما محليا حيثما اقيم لها معبد هناك. ومن هناك انتقلت عبادتها الى (اليونان) لتصير فيها (افروديت) وفي وقت لاحق تعلم (اليهود) من (الكنعانيين) النواح على تموز(حبيب عشتار) في الفكر السومري الى الدرجة التي دفعت (حزقيال) لان يشتكي من هذا النواح الوثني.

ومع وجود وثائق تثبت قيام علاقة تجارية بين (السومريين) و(مصر) مباشرة وبدون وسطاء، فان ذلك يعني ان (الشام) عموما كانت تحتضن عددا من محطات الطريق التجاري الذي سلكته قوافلهم، وفي (فلسطين) تقع اهم المحطات كونها نقطة الانطلاق نحو (سيناء) ذات المخاطر.

وعندما حصلت الكارثة البيئية الكبرى حيث ضربت الملوحة اطنابها في مساحات شاسعة من جنوب (العراق) وتقلصت مساحة الارض المعطاء، وربما سبب ذلك هو الاستثمار الجائر للارض تأمينا لمزيد من الغذاء يكفي للاستهلاك المحلي والمقايضة في الخارج، ثم دمرت الحروب مع (العيلاميين) مشاريع الري، وتبعا لذلك تقلصت الثروة الحيوانية. كل ذلك كان دافعا لان يتجه الثقل الحضاري مهاجرا من الجنوب الى الشمال حيث الخصوبة اكثر والنماء اوفر.

لقد فرض ذلك الوضع زيادة في النشاط التجاري الذي شمل استيراد الغلة هذه المرة مما فرض ضرورة إضافية هي تأمين سلامة القوافل

وحمايتها خلال التنقل الطويل، وداخل حدود الدولة المعنية. واستجابة لذلك جهز (سرجون الاكدي٢٣٧١-٢٣١٦ ق. م) حملة عسكرية لنجدة تجاره [٥٣] ، ولم يستثقل قيامه شخصياً باعباء قيادة حملات عسكرية لفرض احترام تجاره على ملوك الدول الاجنبية ، وبهذه الطريقة وجد نفسه في (الشام)، حيث ضمن تدفق كميات كافية من الاخشاب والمعادن الى عاصمته عن طريق نهر (الفرات)[٥٤].

ومع البداية المتواضعة والضعيفة التي زاول (الآشوريون) فيها ادارة شؤونهم،فقد احسوا بأهمية ان يوفدوا التجار الى الغرب والشمال لتأمين ورود السلع والبضائع الضرورية وخاصة النحاس والقصدير اللازمين لانتاج البرونز المعتمد يومئذ في صناعة الاسلحة والدروع والاواني وغيرها، اضافة الى سلع اخرى لاغراض الرفاه كالذهب والفضة والخشب ثم شملت القوائم بضائع اكثر نعومة كالعطور والارجوان والاحجار الكريمة والعاجيات والاصباغ والبخور، والمنسوجات ... الخ.

وعلى الرغم من وعورة الارض عبر حدودهم الشمالية، فان ذلك لم يحد من نشاطهم التجاري مع تلك الاصقاع مع وجود مخاطر اجتماعية متمثلة بعصابات قطاع الطرق من مجيدي الاختفاء السريع في الوديان وبين الجبال، وقد وسعوا نشاطهم التجاري في بلاد الشام الذي يزدهر كون الطريق الى هذه البلاد اكثر سهولة وامانا. ولفرط اهتمامهم بهذا النشاط فقد حصلوا على فضل السبق في تأسيس الغرف التجارية ذات الادارة الديمقراطية[٥٥].

لقد ساهمت السوق العراقية التي تحتاج كل شيء، في رفع شأن التجارة الفينيقية ودفعها الى آفاق ما كانت قد بلغتها، حتى ان التجار الفينيقيين حققوا احتكاراً لتجارة العالم المعروف وقتذاك. فمن الشرق كانوا يبحرون محملين سفنهم ببضائعه (حبوب، خمور، منسوجات،

اسلحة.. الخ) وعندما يعـــودون يمـــلأون مخـــازن الموانـــئ الفينيقيـــة بالرصاص والحديد والنحاس والقصدير والذهب من بـــلاد (الاغريـــق) و(الاناضول) و (قبرص)، ومن (افريقيا) كانوا يجلبون العاج ومـــن (انكلترا) القصدير ومن (اسبانيا) الفضة. ويروي عنهم (ديورانت) انهم اغروا في مرات عدة سكان (اسبانيا) وقايضوا قليلا من الزيت بكميـات من الفضة لم تتسع له سفائنهم، وحلا لهذه المشكلة فقد تخلصوا من كـــل الحديد والحجارة التي كانت في مراسي السفن وابدلوها بكتل ضخمة من الفضة [٥٦]، وغير التبضع من السوق الشامية، فان بلاد الشـــام كـــانت طريقا للتجار المنطلقين من بلاد الرافدين ،عموما فان بلاد الشام كـــانت بالنسبة لبلاد الرافدين وخصوصا في زمن الآشوريين (مصدر الايـــدي العاملة، والمصدر الرئيس للخشب من الامانوس ولبنان، اضافـــة الـــى تحكمها بطرق الآشوريين نحو الموانئ وآسيا الصغرى وكان المصـــدر الرئيس لتزويد المعادن والخيول هو الاناضول واسيا الصغرى)[٥٧] .

وكانت طرق العراقيين لبلوغ الموانئ المتوسطية عبر البر عديـــدة اضافة الى الطريق النهري(الفرات) الذي يستخدمونه باتجاه واحد فقـــط واهتموا بأمن وسلامة تلك الطرق التي كان أهمها يبدأ من نقطة ما قرب (الفلوجة) الحالية ويحاذي (الفرات) الى (ماري) شمال البو كمال ثـــم يتجه نحو (دير الزور) فمدينة (تدمر) فالهوام التي منها تخرج عـــدة شعب الى الموانئ والى (دمشق) والى المدن الفلسطينية[٥٨].

وان المشاكل التي عانى منها (الاكديون) و (الاموريون) خـــلال التنقل على هذا الطريق تتلخص في قلة موارد المياه اضافة الى استمرار تعرض قطاع الطرق واللصوص على سالكيه.

اما الطريق الثاني الاكثر أماناً وراحة فهو الذي يخرج من (نينوى) نحو مدينة (شوبات انليل) فكوزانا التي هي (تل حلف) ثـــم (حـــران) حيث يعبر (الفرات) عند (كركميش) جرابلس الحالية وهنـــاك يكـــون

(الفرات) في اضيق نقاطه، ثم يتجه الى (حلب) وعند تقاطعه مع نـــهر العاصي يتشعب نحو الموانئ و(دمشق) والمـــدن الســـورية الاخـــرى. وكانت المدن التي يمر بها هذا الطريق تعد محطات لتمويـــــن القوافـــل بالماء والطعام والعلف، وكانت محدودية المسافات بين محطاته وتيســـر حاميات على جانبيه تجعله اكثر امانا.

وفي حقبة ما قبل تدمير (ماري) على يـــد (حمورابـــي) حليفـــها السابق رغم القرابة التي تربطه بملوكها، قامت هذه المدينة بـــدور فـــي ربط مراكز التجارة والاستهلاك ربطا، فقد انشأت طريقاً تجاريا يبدأ من جزر (دلمون) البحرين الحالية يحاذي نهر(الفرات) صعـــــودا، يمـــر بحلب قبل ان يبلغ موانئ البحر المتوسط[٥٩].

ويستمر الملوك الآشوريون بالسهر على تنظيـــم التجـــارة وتـــأمين مستلزمات الامان والاحترام لقوافلها، فان واحدا من اهم ملوكهم (آشور - اوبلط الاول ١٣٦٥-١٣٣٠ ق . م) يحدد سياسته على وفق ثـــلاث مهمات، ثلثاها ذات علاقة بالتجارة:

١.حماية الجبهة الشرقية.

٢.تأمين طرق التجارة نحو الغرب وخاصة موانئ البحر المتوسط.

٣.تأمين طرق التجارة نحو الجنوب وخاصة طريق الخليج العربـــي الذي يخترق الجزيرة العربية نحو (اليمن).

ويشعر هذا الملك بالحرج امام الفرعون الذي يستفســـر منـــه عـــن اسباب تأخر السفراء الذين بعث بهم الى الملك الآشـــوري، فيجيبـــه ان سبب التأخر هو ظهور متمردين وقطاع طرق في بلاد الشام وانه اتخـــذ الترتيبات اللازمة لاستئصال شأفتهم قريبا [٦٠].

اما (تجلات بـــلازر الاول ١١١٥-١٠٧٧ ق. م) فيقـــاتل ثمـــاني وعشرين مرة في براري الشام من اجل تأمين سلامة طـــرق التجـــارة

حيث يقول" نازلت الاخلامو- ارامیین في ثماني وعشرين معركة. وفي احدى الحملات عبرت الفرات مرتين"[٦١].

كل ذلك الاهتمام الآشوري من اجل تحقيق الامن والاستقرار في المسرح الشامي كان قبل بروز الكيان السياسي اليهودي، ففي غفلة من الزمن وفي حقبة ضعف آشورية وتواطؤ ارامي- كنعاني مشوب بالخوف يظهر(داود) قائداً لجنوده في انحاء متفرقة من بلاد الشام ولو لفترة مؤقتة[٦٢]،فكيف ستغفو عيون الاشوريين ازاء هذا الخطر الذي يقرع ابوابهم، ويسلخ منهم الشام الذي سقوا زهرة الامان فيه باغلى الدماء.

اما (بابل) في زمن الكلدانيين وريثة كل المجد الحضاري العراقي القديم فقد عاشت نهضة كبرى وصارت حاضرة العالم بأسره، وكانت الانظار متجهة صوبها باستمرار تتلقف عنها ما تبتدع حتى (المودة)، فهي باريس الشرق[٦٣] يومذاك. وكانت مصاهر المعادن فيها لاتضاهى جودة في الصهر والسبك، ومنسوجاتها الصوفية والقطنية مطلوبة بالحاح، فهي نتاج ايد ماهرة من النساجين والمطرزين والصباغين، وبفضل تطور وسائط النقل فان التجارة في عهد الكلدانيين صارت سهلة وواسعة الامتداد، فلا عجب ان يعمد (نبوخذ نصر ٦٠٤ – ٥٦٢ق.م) الى تحسين طرق التجارة خدمة للتجار الذين يساهمون بجهودهم في النهوض الحضاري حيث يكتب "لقد جعلت الممرات الوعرة وغير المطروقة طرقا ممهدة صالحة" [٦٤]. وليست مبالغة ما قرره المؤرخون القدماء من أن ما يدخل (بابل) من تجارة كانت تنقل غلات نصف العالم. وكان لهذه التجارة الواسعة اثر في عظمة(بابل) التي صارت في عهد(نبوخذ نصر) سوقا عظيمة تعج بالبضائع والتجار[٦٥].ولهذا السبب يتجنى البعض على الحضارة الزاهية التي صنعها الابداع البابلي ويصفها بأنها (حضارة تجارية في جوهرها) [٦٦].

وكان(نبوخذ نصر) شديدا وعنيفا مع المغامرين الذين يتحرشون بتجار(بابل) والتجار الفينيقيين الذين يخدمون نهضة(بابل)، ولم يتساهل مع الحكام الذين يفرضون اتاوات أو ضرائب ترانزيت على قوافل أولئك التجار.

وانيط بحاميات الطرق واجب مطاردة وتدمير فلول قطاع الطرق ، ولم تقتصر خدمات تلك الحاميات على تجار(بابل)، بل شملت عموم التجار المارين بالامبراطورية وخاصة تجار(صور) و(صيدا)و(ارواد) المخولين بالانتفاع من هذه الميزات الحمايوية طالما كانت جهودهم التجارية تخدم اقتصاد(بابل)، وانهم يدفعون الضرائب ثمنا لتلك الواجبات.

وبسبب من الفهم الرسمي لواقع التجارة، فقد فكر تجار الشام الطموحون في توسيع نشاطهم عبر(بابل) ليشمل بضائع (الهند) التي كانت تجلب من ضفاف(الاندوس) عبر العراق مارة(بكابول) (فهرات)ثم اكبتانا (همدان الحالية)* ثم(بابل). ومن (بابل) المركز التجاري الاول في العالم يتفرع طريق التجارة الدولية الى فرع شمالي تذهب شعبة منه الى مدن الساحل السوري والاخرى الى الاناضول بينما يتشعب الجنوبي الى شعبة تذهب الى الخليج العربي والاخرى نحو(تيماء) فمدن(الحجاز)

---

* كان هذا هو الطريق المعتمد ايام(نبوخذ نصر) في حين كان في السابق يدخل الحدود من مدخلين اضافيين هما(حاج عمران) و(حلبجة).أما المدخل الرابع فهو منطقة (بدرة) الحالية وهو نقطة عبور القوات الغازية في مختلف الحقب. وللمزيد يمكن مراجعة(الادب العربي في شبه القارة الهندية) لمؤلفه زين احمد ترجمة عبد المقصود محمد شلقاجي– منشورات وزارة الثقافة والفنون بغداد ١٩٧٨ ص٥٠ فما فوق والذي سقطت الاشارة اليه سهوا.

ثم(اليمن) ، ولهذه الشعبة امتداد يذهب الى (فلسطين) يمر بمحاذاة البحر الميت ففلسطين والمدن الفينيقية.

وبسبب مخاطر الاتجار عبر (ايران) فقد بحث التجار عن طريق تستمر بضائع (الهند) بالتدفق عبره فلم يجدوا طريقا يتحاشى (فارس) سوى البحر حيث يسيرون بمحاذاة الساحل الهندي ثم يعبرون بحر العرب نحو (اليمن) و (حضرموت) ثم يتجهون نحو الشمال ليماشوا سواحل البحر الاحمر الى (سوريا) او الى (العراق) واما الفرع السوري فانه يتفرع عنه طريق فرعي يذهب الى (مصر)[٦٧].

انه تشابه قوي وتلاحم شديد في المصالح السياسية التي تعتمد عليها اسس الحضارة ، ذلك هو طبيعة العلاقات الاقتصادية بين بلاد الرافدين وبلاد الشام، وتبادل للمنافع لامجال لتجاهله قطعا. ولكن ضغوط السياسة تلعب الاعيبها بفعل المؤامرات والمصالح الفردية لقادة الشعوب التي تألف منها عالم ذلك الزمان. اضافة الى تآمر ينطوي على احقاد، ذلك هو الذي يجعل من تلك العلاقات المتزايدة الترابط، تتصف بالتقطع والارتباك أحيانا، مما كان سببا وراء حركة ملوك الدولتين الآشورية والبابلية بتصحيح مسار العلاقات التي يراد لها الخروج عن طريق الصواب. وليس أوضح من محاولة اليهود زمن حكومتي(داود) و(سليمان) حمل الفينيقيين بشتى الطرق لحصر طرق التجارة الفينيقية وجعلها حكرا على (فلسطين) كما مر بنا وكان تخطيط (داود) يهدف الى احتكار التجارة وطرقها من خلال خطوط بحرية من خليج (العقبة) للقضاء على كل امل تجاري لبلاد الرافدين،لذا كان يأمل بمساعدة الفينيقيين لتحقيق اهدافه،وكما يقول (لودفيغ)"لان اليهود كانوا يجهلون الملاحة، وهم لم يصيروا قط أمة بحرية كما لم يصر حفدتهم في الثلاثة الاف سنة التي اتت بعدئذ"[٦٨].

واذا ما نوينا تجاوز الاقتصاد الذي وضع امامنا أهمية بلاد الشام في مضماره، فان أهمية شامية من نوع آخر تفرض نفسها لتفسير ما ينطوي عليه التآمر وما يبرر الرد القوي على ذلك التآمر. فعندما برزت الامبراطورية الاشورية، كان وجه العالم قد تغير، فقد عرف المجتمع البشري الصراع الواسع بين القوى الكبرى، وكانت نزعة السيطرة على العالم اكثر تطورا مما كانت ايام (سرجون الاكدي)و(حمورابي) الذي جاء بعده بعدة قرون، فالصراعات في زمنيهما كانت عبارة عن معارك محدودة ضمن صراعات واطئة الشدة غاياتها واهدافها محدودة واليك ما نظنها اسبابا وجيهة:-

١-كان التطور التقني ذو التأثير على سير الاحداث الحربية محدودا، فمثلا لم تكن (مصر) دولة الفراعنة الطموحين جدا قد عرفت الاسلحة البرونزية شديدة الصلابة ولا العربات التي تجرها الحيوانات، وان اسلحة جنودها الهجومية كانت الحربة والبلطة وكان القوس سلاحها الرئيس الا انه لم يحظ بنصيب وافر من الاهتمام التطويري، وبقي حال التخلف الحربي سائداً حتى جلب (الهكسوس) اسلحة وتجهيزات قتالية متطورة اضافة الى أساليب وفنون قتالية نجحت في تجارب كثيرة. فقد استخدموا عند احتلالهم (مصر) العربات الحربية والتي هي اختراع عراقي قديم، والقوس المتطور(المركب) والخيول التي كان العراقيون عسكروها واستخدموها في الحرب بعد ان اخذوا فكرة تدجينها من الحثيين. وكان المصريون بحاجة الى فترة زمنية لهضم واتقان تلك التقانات،اضافة الى ضرورة وجود عدو ضعيف يجربون عليه خبراتهم واسلحتهم الجديدة بعمليات حربية حقيقية غايتها الاولى تدريب القطعات. ولم يكن هناك افضل من الشعوب القاطنة في بلاد

الشام لتحقيق تلك الغاية. فان اتجاهاتها الحياتية كانت بعيدة عن الاتجاه العسكري.

٢-ان الحملات التي بدت ضخمة قيل الحقبة المعنية نفذت كعمليات تأديبية تقوم بها دولة قوية ضد قبائل محدودة القوة او فلول جيش منها كما حصل خلال مطاردة (احمس) بقايا (الهكسوس) حتى شمال (فلسطين).

٣-كانت الجيوش المتقابلة في حروب اية دولتين مهما عظمتا قبل القرن الخامس عشر ق. م صغيرة، فكل قوات (تحتمس الثالث) في المعركة (مجدو) عام ١٤٦٨ ق. م كانت (٣٠) الف مقاتل ورغم ذلك فقد حقق نصرا سهلا [٦٩].

٤-ان كل القوى الكبرى شعرت بالخطر القادم من شمال (العراق) فانزوت تاركة مسارح الحروب حيث انكمش(الحثييون) وتراجع (المصريون)، وبذا فقد افرغ مسرح العمليات الشامي للقوات الاشورية ذات التنظيم المتميز والعقيدة[*] القتالية المتقنة والتجهيز المتطور والطموحات البعيدة.

٥-لم تكن فيما يسمى حاليا (ايران) قوة يمكن ان تشغل الاشوريين، وفي الشمال كان ملك الاورارتيين (اورسا) قد انهزم امام الجنود الاشوريين على صهوة فرس (انثى) فاثار سخريتهم حيث لا يليق بالملوك امتطاء غير صهوة الجواد (الفحل).

كل تلك العوامل والاسباب مجتمعة، صيرت بلاد (الشام) مسرح الحرب الاكثر اهمية لدى الآشوريين الذي كانوا يرون فيه مصدر رفاهيتهم ورخائهم. اما المصريون فليس امامهم غير بلاد (الشام)

---

[*] العقيدة العسكرية: جميع المبادئ والسياسات والقضايا الفنية والاساليب التي تمكن القوات المسلحة من توجيه اعمالها[٧٠].

مسرحا يجربون فيه خبراتهم وتجهيزاتهم الحديثة، فبلاد (النوبـــة) ذات مخاطر جمة، و (ليبيا) تتمترس بالصحراء. (فلسطين) وحدها قريبـــة لايفصلها عن (مصر) غير (سيناء) التي الفها المصريـــون وخـــبروا العيش والتنقل في متاهاتها. لقد قدم شعب بحري وافد من منطقة بحـــر ايجة تلك الفرصة من خلال تحديه للفرعون طارقا ابواب (مصر) بعنف بحثا عن ارض للسكن والعمل. لقد خطط (رعمسيس الثـــالث) لحـــرب تجريبية يخضع خلالها قواته (اغلبها مرتزقة) واسلحته واساليبه الجديدة للاختبار . وسجل انتصارا بحريا وبريا ظنه كبيرا، ســـاهم فـــي رفـــع معنويات جميع المصريين وحقق ثقة بالنفس والمستلزمات. وكانت تلـــك التجربة دافعا لتوسيع التطلعات ومد الابصار ابعد من متناول اليد كثيرا.

وعلى الطرف الابعد من بلاد الشام كان الآشوريون يراقبون ســـير الاحداث في عموم تلك البلاد، دون ان يهملوا رفع مســـتوى الاســـتعداد القتالي وضبط عمليـــة الاداء الحربـــي . وكـــانوا يمارســـون وضـــع (تقادير للموقف)* .ويخططون بضوئها. فالتغيرات السياسية والعسكرية والاجتماعية كانت خاضعة للدراسة المســـتفيضة والتمحيـــص الدقيـــق لغرض استشراف ما يمكن أن يحصل هناك مستقبلا.

فبلاد(الشام) على وفق الحسابات الاقتصادية والسياسية والآشـــورية لابد أن تشكل بعمومها تكاملا طبيعيا للمجال الحيوي الآشوري خصوصا وأن مساحة الدولة الآشورية في ذلك الوقت لم تكن تتجاوز (٣٠) الـــف

---

* تقدير الموقف: مجموعة الاعمال التي تشمل جمع المعلومات حول العناصر المؤثرة على اتخاذ القرار، وتحليلها وتقديمها الى القائد المسؤول عن اتخاذ القـــرار. وتشـــمل على صعيد تقدير الموقف السوقي(فكرة القيادة السياسية، والوضع السياسي العـــالمي والمحلي، والحالة النفسية للامة، والوضع الاقتصادي ومـــيزان القـــوى العســـكرية، وطبيعة مسارح العمليات، ومستوى الشؤون الادارية)٨

كم² تمتد مع مجرى نهر (دجلة) لمسافة (٢٥٠)م وعرضها اكثر بقليل من (١٠٠)كم اغلبها على ضفته الشرقية تمتلئ هذه المساحة برجال شجعان شكلوا الجيل الأول من الفرسان تخدمهم أعداد ضخمة من العربات التي سهلت مهمة المناورة في الحرب مع تحقيق سرعة استجابة لم تكن متيسرة في السابق اضافة الى قوة صدمة هائلة وقدرة على نقل اثقال واسلحة وتجهيزات اضافية لمسافات طويلة مع تطوير مستمر لالات واسلحة تدمير الحصون والاسوار .وكان النمو السكاني الآشوري بحاجة الى نمو غذائي مقابل، ولكن رقعة المساحة التي تشكل الوطن الآشوري كانت محدودة ويتبع ذلك تناقص في الثروة الحيوانية، وبالتالي تقلص ملموس في الثراء والرخاء والرفاهية التي يتطلع اليها ملوك(آشور) لهم ولافراد شعبهم.

من هنا يبدو أن ظهور دولة يهودية في جنوب بلاد الشام ذات كيان سياسي راسخ يعني أن تهديدا خطيرا للمجال الحيوي الآشوري ومصالحه سيتحقق، وبدأت فصول هذا الخطر تظهر جلية عندما استولى (داود) على(اور شليم)عاصمة (اليبوسيين) وصار بحكم موقعه السوقي الخطير وتنسيقه مع(الفينيقيين) مراقبا على التجارة هناك[٧١] خصوصا بعد اجراءاته العملية المفضية الى نقل طريق التجارة الرئيس الى داخل (فلسطين) ومحاولته انشاء ميناء واسطول تجاري في رأس خليج(العقبة). فماذا بقي لتتكامل حلقات الخنق السوقي الذي ينتظر الآشوريين؟

ثمة تجربة مريرة سابقة عاشها الآشوريون القدماء مع ملك دولة صغيرة تقبع على الضفة الغربية لنهر(الفرات) آرامية الأرومة هي (ماري) تل الحريري حاليا(٩كم شمال البو كمال). فقد قرر هذا الملك فرض حصار على دولة (آشور)وبث سراياه وطلائعه لمنع وصول الحنطة اليها، وكان يرمي من وراء ذلك تحجيمها والحد من تعاظم شأنها مستقبلا. وتتكرر التجربة فيما بعد مع جار جائر اخر ايام الملك

الآشوري(شلمنصر الاول ١٢٧٤- ١٢٤٥ق.م) عندما اصــــدر الملــك الحثي امرا الى دولة شامية تأتمر باوامره تسمى(امرو) هــذا نصــه "لا يذهب تاجر من عندك الى بلاد آشور ولا تسمح لتاجر منهم أن يدخــل بلادك" (٧٢) وكانت تلك التجارب بعضا مـــن سـبب وجيـه جـدا لأن يحول(الآشوريون) بلاد(الشام) الى مســرح دائـم لعملياتــهم الحربيـة والتأديبية والاستعراضية، منذ ايام العصر الآشوري القديم فالوسيط لذا لا نجد غرابة في أن يعلن ملوك الآشوريين النفير في ربيع كل عام (عندما تكون الامور طبيعية) ويقودون شبان الامة ذوي الشجاعة الفدائية الفريدة ويقاتلون في عموم بلاد الشام وحيثما ظهرت فقاعات تمردية أو تآمريـة، وحيث يسقط بعض اولئك الملوك صرعى الواجب الوطني المقدس كمـا حصل للملك(شمشي- ادد) الذي قتل وهو يحارب في معركـــة حـامي وطيسها على نهر(الفرات) عام ١٧٨١ق.م فيخلفه إبنه (اسمي-داكـــان) الذي لم يتقاعس عن قيادة الحملات نحو المكان الذي قتل فيه ابـــوه لان احتلاله وتجاوزه الى ارض ابعد يحقق طموحات الدولة التي قتل ابوه من اجل رفعتها واعلاء شانها.

إن الانغلاق الآشوري يعني الانتحار البطيء فــي حـيز تتضـاعل مواردهم خصوصا وأن امكانية فرض حصار خانق ليست صعبة علــى الاعداء،وهو ما يشكل هاجسا آشوريا مؤرقـا للملـوك فـي العاصمـة الآشورية. ففي ظرف عصيب نذكره هنا لغرض الاستدلال على واقـــع معين كمثال مفيد، قضم البابليون الحدود الجنوبية تدريجيا وباتت فسـحة من الضفة الغربية لدجلة مرعى لخيولهم التي سرحوها في منابت للكلاء لا تبعد عن اسوار العاصمة الآشورية اكثر من(٤٠) كم بينما كانت قـوة شرسة تعدادها(٢٠) الف مقاتل جبلي تعسكر في جبال(طوروس) تـهيء نفسها لمباغتة العاصمة الآشورية، وفي الوقت ذاته كـــان(الآراميـون) يدفعون بحدودهم الشرقية يوميا ليضيقوا فســحة الارض الجيـدة التـي

يزرعون فيها مستوطنات بشرية جديدة ويتبع ذلك كله قطع طرق التجارة الآشورية ومنع بلوغ قوافلها بلاد(الشام) وموانئ (المتوسط)، ويرافق كل تلك الاخطار ظهور عنصر الشغب وعامل القلق المتمثل بالعيلاميين الطامعين في مكاسب من خلال انتهاز الفرص.

تلك كانت صورة حقيقية لظرف صعب سجله التاريخ الآشوري، فهل بامكانهم رؤية انفسهم في موقف ضعيف ومحصور كهذا مجددا؟

لقد كان رد الفعل الآشوري حاسما جازما حيث عبروا جبال(طوروس) وذبحوا كل رجال القوة الشرسة المتربصة بهم مباغتة ثم خلدوا انتصارهم الفريد على نصب ضخم في منطقة(ملاذكرد)* وراء بحيرة(وان). ثم تفرع الملك الآشوري(تجلات بلازر الأول)** لبقية الاهتمامات حيث ارسل حملة عسكرية تأديبية ادبت العدو العيلامي القابع خلف جبال(زاجروس) يتحين الفرص، وعادت الحملة منتصرة. ثم قاد(٢٨) حملة ازاح بها الهم الشامي الجاثم على صدره من ناحية الغرب. وبعد أن أمن سلامة حدوده الشرقية والشمالية والغربية وتأكد من انتظام حركة القوافل التجارية بامان، انطلق جنوبا ليحقق هدفه الاخير بدفع البابليين بعيدا وعقب عودته الى العاصمة ظافرا، كان وفد(مصر) يستأذن بالدخول عليه ليقدم هدايا الفرعون طمعا في صداقة صارت مطلبا ملحا.

---

* في نفس المنطقة(منزيكرت) التي يسميها المؤرخون(ملاذكرد) وعقب الفي سنة وقعت معركة اخرى من المعارك الفاصلة في التاريخ بين السلاجقة والبيزنطيين عام١٠٧١م وحسمت لصالح السلاجقة [٧٣].

** من وسائل اساءة اليهود لملوك العراق القدماء تغيير اسمائهم لاعتبارات شخصية عندما كتبوا الاسفار فالاسم الحقيقي لهذا الملك هو(توكلتي- ابل -ايشار) ومعناه الحرفي (توكلت على الاله ابن إيشار)[٧٤].

وكان من نتاج ازاحة المخاطر الآرامية فوائد عظمى غير متوقعة، ولم يكن يحسب لها حساب، وهي التي دفعت(مصر) لان تخطب ود العاصمة الآشورية، انه الاجتياح الآشوري لبلاد الفينيقيين، فقد قدمت المدن الساحلية المهمة والمزدهرة اقتصاديا اثمن الهدايا، ورضخت للجزية الباهظة المفروضة عليها، وللشروط الآشورية في مجال التجارة، وكم كانت زرقة المتوسط جميلة في نظر الجنود الآشوريين الذين يوون البحر للمرة الأولى في هذا العصر، وهو العمل الذي سيكررونه كلما اشتاقوا الى رؤية تلك الزرقة أو الى اتخام جيوبهم، او لردع(اليهود) الذين كانوا على وشك الانطلاق في المسرح السياسي من مسرح الحرب الشامي المفضل آشوريا.

يكشر المسرح الشامي عن انيابه مجددا ويشكل خطرا جسيما على بنية وقوام الكيان السياسي الآشوري عند مطلع الالف الأول ق.م حيث يبدأ زحف آرامي جديد نحو الموطن الآشوري على شكل استيطان بشري هذه المرة فيعبرون(الخابور) في طريقهم الى العمق مؤسسين دولا تزيد من خنق الآشوريين، ويحتلون(نصيبين) ويؤسسون فيها كيانا مصطنعا، وعرف(الفرات) دولا آرامية صغيرة ولكنها ناشطة مثل (بيت اديني) وعلى(الخابور) ظهرت (بيت بحياني) و(بيت حويبة) وغيرها. وصارت شواطئ(دجلة) ضمن مدى السهام الآرامية.

ويتحسس الملك الآشوري الجديد(ادد- نيراري الثاني ٩١١-٨٩١ق.م) الخطر الغربي ويشعر أن القضاء عليه هو السبيل الوحيد للحفاظ على سلامة وأمن الدولة وهو ما تحقق فعلا. فقد عادت(سوريا) مسرحا رحبا للممارسات القسرية الآشورية دفاعا عن الوجود الآشوري.
وكان للاكتشاف الآشوري السوقي الاخير وقع قوي على نفس الملك الحازم، فالآراميون كانوا يؤسسون حصونا متقدمة باتجاه دولته كدسوا فيها كميات هائلة من مواد تموين القتال(ارزاق-اعلاف- ماء... الخ)،

انها قواعد عسكرية متقدمة لغايـات تعرضيـة مسـتقبلية لـذا يشـكل انتصار(ادد- نيراري الثاني) الذي توج باحتلال تلك الحصون وضمـه اداريا مناطق(نصيبين) و(الخابور) الى السيطرة الآشورية، وسيلة موفقة للنجاة حيث تظهر الأهمية العسكرية لهذه المنطقة الحيوية بشـكل جلـي كونها ذات تأثير سوقي خطير قد يقرر مصير الدولة خصوصا وانه فـي ذلك الوقت بالذات بدأ الكيان السياسي اليهودي يتشكل ويفـرض نفسـه بالقوة، وكان هدف الآراميين الهاربين من المواجهة مع الخطر اليـهودي والراغبين بالحصول على مزيد من اراضي الدولة الآشورية عوضا عن خسائرهم امام(اليهود) هو تأسيس دولة آرامية عليها كونهم عاجزين عن المواجهة. في حين سيقوم الفينيقيون المتهمكون بالتجارة والمـال بغلـق ابواب اسوارهم والدفاع عنها عندما يهاجمهم(اليهود).

إنها حالة الدفاع السلبي في عموم بلاد الشـام، ولابـد أن تسـاهم النهضة الآشورية الاخيرة في تعزيزه وقلبه الى دفـاع ايجـابي(يتمـيز بالتعرض). ولكـن تقـارير الاسـتخبارات الآشـورية وردت محملـة بمعلومات عن نزوح آرامي كبيرة قادم من بلاد(الشام) ينوي الاسـتقرار في منطقة(عانات) عانة الحالية هربا من الواقع الجديد في بلاد الشـام، وكان رد الفعل الآشوري هو اعادتهم الى حيث أتوا.

إن من بين العناصر المبرزة للاهمية العسكرية لبلاد الشام في نظـر الآشوريين ما يحصلون عليه من غنائم ضخمة وجزية هائلة فـي كـل حملة من حملاتهم التأديبية وحتى الاستعراضية وهو الأمر الذي يجعـل المعارك في بلاد الشام مرغوبة ومفضلة مما يعني أن ظهور عدو قـوي على هذا المسرح امر لا يمكن التساهل معه أو غض الطرف عنـه، ذاك ما حصل عندما ظهر كيان سياسي يهودي غـير الترتيبـات السياسـية والاجتماعية لبلاد الشام. فلقد كانت حصيلة غنائم (آشورناصربال) عقب

اجتياحه لمقاطعة شمالية صغيرة اقل ثراءً من أي من الممالك الآرامية الثرية ما يلي:

- ٤٠ عربة محملة بالحلي وأسرجة الجياد.
- ٤٦٠ جواداً مروضاً.
- ٦٠ كغم ذهب و٦٠ كغم فضة.
- ٣ أطنان رصاص و٣ أطنان نحاس و٣ أطنان حديد.
- ١٠٠ وعاء نحاسي مع ٢٠٠٠ مقلاة نحاسية إضافة الى آوانٍ نحاسيةَ متنوعة.
- عدد كبير من الموائد الخشبية وأرائك من العاج المطعم بالذهب.
- ١٠٠٠ بدلة من الصوف والكتان زاهية الالوان .
- ٢٠٠٠ رأس بقر و٥٠٠٠ رأس غنم.
- سبي أخت الحاكم (الذي قتل في نفس المعركة) وبنات النبلاء مع زينتهن الثمينة واسر(١٥) من نبلاء تلك المنطقة.
- جرى تنصيب حاكم محلي وفرضت عليه جزية سنوية مقدارها.
- ٢ مان ذهب.
- ٢ مان فضة.
- ١٠٠٠ رأس غنم.
- ٢٠٠٠ كور حبوب [٧٥].

ولعل الميزة الاخرى لبلاد (الشام) انها ارض صراع بين ملوك بلاد (الرافدين) والفراعنة ، وان اطماع كل منهما في تلك البلاد تجعل منها نقطة احتكاك شديدة التأثير والفعالية حيث كان اندفاع حاميات أي من الطرفين الى ماوراء الخط الوهمي المتفق عليه يعد خطرا على الطرف الاخر . فرغم تدني الاقتدار العسكري المصري عما هو عليه حال الاقتدار العسكري للأشوريين في عصرهم المتأخر الى ان فرض رقابة صارمة على كل من (مصر) خشية حصول مباغتة في بناء قوتها

وعلى بلاد (الشام)منعا لحصول مفاجأة بروز قوة جديدة كما ظهر الكيان اليهودي الذي هدد الاستقرار في (سوريا) وغير الواقع السياسي والاجتماعي وما جر ذلك على بلاد (الرافدين) من مخاطر ، امر ضروري . وبهدف تأمين مستلزمات تلك المراقبة الصارمة فقد رأوا ان الحكم المباشر هو الطريقة الاسلم لتجنب تلك المباغتات والمفاجآت خصوصا وان التوابع من ملوك هناك غير مضموني الولاء مع وجود مشاغل خطيرة في جهات اخرى كالتهديد الاورارتي والعيلامي والقرحة الداخلية (بابل) مما قد يستنزف جهد واهتمام الآشوريين ويدع المسرح الشامي لا يتحقق الا بابعاد عناصر الشغب حيث تم ترحيل قادة تلك العناصر مع عوائلهم الى مقاطعات اخرى من الامبراطورية (في بلاد الرافدين بهدف ابقائهم تحت الرقابة كذلك في شمال سوريا). في حين ابقي على الكيان السياسي اليهودي الجنوبي (مملكة يهوذا) بعد ازالة الكيان الشمالي (مملكة السامرة) لكي لايصار الى التفريط بمزيد من الحاميات الآشورية مما ينجم عنه مزيد من التشرذم والضعف للجيش خصوصا وانهم نصبوا ملكا (دمية) على تلك الدولة ليس له طموحات سياسية كبيرة تتقاطع مع الرغبات والاهداف الاشورية هو (احاز).

وانطلاقا من اهمية مسرح الحرب الشامي اقتصادياً وعسكرياً فقد خلد الفاتحون الكبار الذين أدوا ادواراً معينة على ارضه، فعالهم على صخور نهر (الكلب)* ليخبروا اجيالا تليهم بالاف السنين انهم فعلوا شيئا يذكر بالاهمية السوقية الخطيرة لهذه المنطقة يومذاك ، ومن بينهم (رعمسيس الثاني) و(شلمنصر الثاني) و(اسرحدون) وغيرهم.

---

* نهر الكلب : نهر طوله ٧ كم ينبع من مغارة (جعيتا) شمال (بيروت) ويصب في المتوسط . يقع مصبه على ممر صخري ضيق عبرته جحافل جيوش الملوك القدماء بالاتجاهين.

حواشي الفصل الاول

١. الحموي ، شهاب الدين ياقوت ، معجم البلدان ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر –بيروت ١٩٧٩ ج/٣ ص ٣١٢.
٢. فتحي، الفريق الركن محمد ، قاموس المصطلحات العسكرية –المطابع العسكرية – بغداد ط/ ٢بلا تاريخ ص ٤٧٨ .
٣. رفلة ،فيليب واحمد سامي مصطفى جغرافية الوطن العربي صفحات متفرقة.
٤. حمادي ، محمد جاسم ، الجزيرة الفراتية والموصل ، دار الرسالة –بغداد ١٩٧٩ ص ١٧٨ .
٥. ساكز ، هاري ، قوة اشور ، ترجمة د. عامر سليمان – منشورات المجمع العلمي ، بغداد ١٩٩٩ ص ٩٥ .
٦. صايغ ، سليمان (القس) ، تاريخ الموصل – الكاثوليكية – بيروت ١٩٣٨ ج / ٢ ص ٦.
٧. ساكز ، مصدر سابق ص ٩٥ .
٨. برستد ، جيمس هنري ، انتصار الحضارة ص ٢٠٦ .
٩. توينبي ، ارنولد ، تاريخ البشرية – ترجمة نقولا زيادة – الاهلية للنشر ، بيروت ١٩٨١ ج / ١ ص١٢٣ .
١٠. سوسة ، احمد ، العرب واليهود في التاريخ – مديرية الثقافة العامة بغداد ١٩٧٢ ص ٦١ .
١١. المصدر السابق ص ١٩ .
١٢. الشريقي ، ابراهيم ، اورشليم وارض كنعان – حوار مع انبياء وملوك اسرائيل –مؤسسة العرب لندن ١٩٨٥ ص ٤٤ .
١٣. المصدر السابق ص ٣٣.
١٤. التكوين: الاصحاح١٠.
١٥. رو، جورج، العراق القديم، ترجمة حسين علوان حسين – دائرة الشؤون الثقافية العامة– بغداد ١٩٨٤ ص٣٢٠.

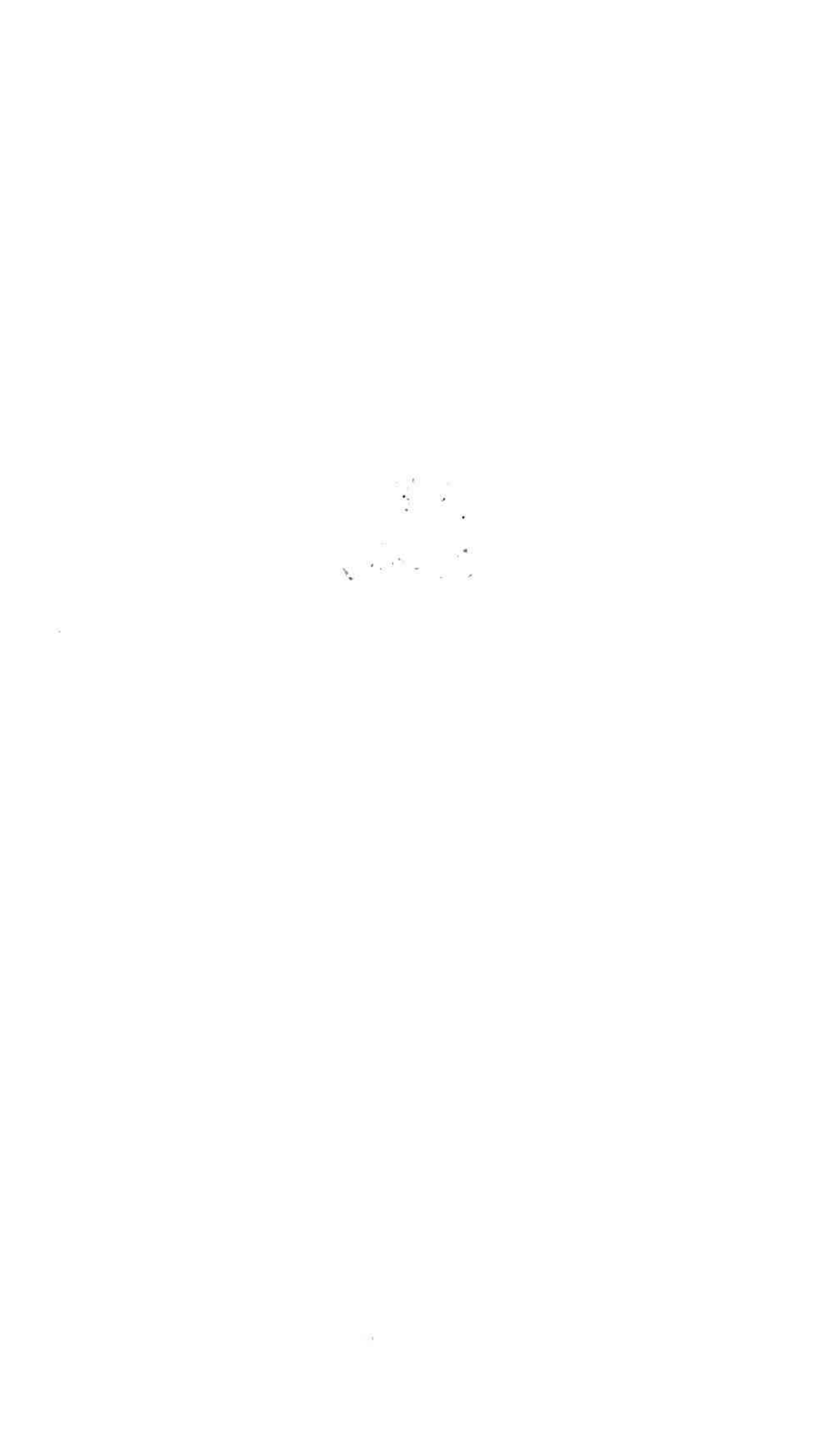
١٦. المصدر السابق ص ٣٢٢.
١٧. الشريقي(مصدر سابق)ص٤٢.
١٨. ايوب: الاصحاح ٣٧.
١٩. اشعيا: الاصحاح ٣٧.
٢٠. ديورانت، ول، قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود ، الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية ، القاهرة ١٩٦٥ ج٢ص ٣١٢ .
٢١. فتحي ، (مصدر سابق) ص ٩٢ .
٢٢. سوسة ، (مصدر سابق) ص ١٠٥.
٢٣. المصدر السابق ص ١٠٦.
٢٤. توينبي(مصدر سابق) ص ١٣٦ .
٢٥. محمد ، محمد قاسم،التناقض في تواريخ واحداث التوراة من ادم وحتى سبي بابل – مطابع ستار بريس الطباعة والنشر ١٩٢٩ ص ٣٦٢.
٢٦. الشريقي (مصدر سابق)١١٩ .
٢٧. القضاة : الاصحاح ص ١٩.
٢٨. سوسة : (مصدر سابق) ص ١٤ .
٢٩. توينبي(مصدر سابق) ص ١٩٩ .
٣٠. الاحمد ، سامي سعيد ، تاريخ فلسطين القديم –مركز الدراسات الفلسطينية جامعة بغداد – مطبعة علاء بغداد ١٩٧٩ ص١٥٣ .
٣١. توينبي : (مصدر سابق) ص ٩٠ .
٣٢. التكوين : الاصحاح ١٠ . يراجع بخصوص شطط كاتبي هذا السفر وخاصة نسب (عيلام)وقائع ندوة كتب الانساب مصدراً لكتابة التاريخ – مطبعة المجمع العلمي – بغداد ٢٠٠٠ ص١٥٣ .
٣٣. نفس المصدر السابق .
٣٤. ديورانت (مصدرسابق)ص ٣٠٣.
٣٥. المصدر السابق ص ٣٢٨ .

٣٦. الاحمد ، سامي سعيد ، تاريخ فلسطين القديم –مركز الدراسات الفلسطينية- جامعة بغداد – مطبعة ١٩٧٩ ص١٨٩ .
٣٧. محمد، حياة ابراهيم، نبوخذ نصر الثاني – المؤسسة العامة للاثار والتراث – بغداد ١٩٨٣ ص ٦٥ .
٣٨. ديورانت (مصدر سابق) ص ٣٠٩ .
٣٩. الصالحي ، رافد كاظم كريدي ، حقيقة الوقائع التاريخية بين عرض التوراة ومعالجة النصوص العراقية القديمة ، رسالة ماجستير (طبع رونيو) جامعة القادسية ١٩٩٩ ص٢٢.
٤٠. المصدر السابق ص ٢٢ .
٤١. الشريقي (مصدر سابق) ص ١٣٤ .
٤٢. اشعيا : الاصحاح ١٦ .
٤٣. علي ، جواد ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام – دار العلم للملايين بيروت ج١ (ط١ ١٩٦٨) ص ٦٨٠ .
٤٤. المصدر السابق ص ١٦٥ .
٤٥. المصدر السابق ج ٨ (ط٢ ١٩٧٨) ص ٦٨٠ .
٤٦. ساكز (مصدر سابق) ص ١٦٦ .
٤٧. المصدر السابق ص ١٦٧ .
٤٨. المصدر السابق ص ١٥٧ .
٤٩. المصدر السابق ص ١٥٦ .
٥٠. علي ، جواد (مصدر سابق) ج٣ (ط١ ١٩٦٩) ص٥.
٥١. محمد ، محمد قاسم (مصدر سابق) ص ٤١٥ – ٤١٦ وكذلك ص٤٢٥ (الحاشية) .
٥٢. توينبي (مصدر سابق) ص٢١١ .
٥٣. باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة – دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ط٢، ١٩٨٦ ص٤٨٢ .
٥٤. رو (مصدر سابق) ص ٢١١ .
٥٥. المصدر السابق ص ٣١٤ .

٥٦. ديورانت (مصدر سابق) ص٣١١ .
٥٧. ساكز (مصدر سابق) ص١٢١ .
٥٨. رو (مصدر سابق) ص ٣٥ .
٥٩. اوبهنايم ، ليو ، بلاد ما بين النهرين ، ترجمة سعدي فيضـــي ، دار الرشـــيد بغداد ١٩٨١ ص ١١٢ .
٦٠. ساكز (مصدر سابق) ص٢٥١ .
٦١. رو (مصدر سابق) ص ٣٧٥ .
٦٢. ساكز (مصدر سابق) ص١٠٥.
٦٣. ديورانت (مصدر سابق) ص ٣١٧ .
٦٤. المصدر السابق ص ٢٠٣.
٦٥. المصدر السابق (نفس الصفحة).
٦٦. المصدر السابق ص ٢٠٥
٦٧. رور (مصدر سابق) ص ٣٦.
٦٨. لود فيغ، اميل ، البحر المتوسط (مصاير بحر) ترجمة عادل زعيـــتر – دار المعارف بمصر ١٩٥٢ ص ٢٧٩.
٦٩. مونتيغمري، المارشال، الحرب عبر التاريخ، ترجمة العميد فتحـــي عبـــد الله النمر، مكتبة الانجلو مصرية- القاهرة ١٩٧١ ص ٥٥.
٧٠. فتحي، (مصدر سابق) ص ٣٤٣.
٧١. هيئة تحرير، الموسوعة العسكرية، المؤسسة العربيـــة للدراســـات والنشـــر، بيروت ج١ ص ٢٩١.
٧٢. ساكز (مصدر سابق) ص ٧٩.
٧٣. امين، حسين، معركة ملاذ كرد واهميتها التاريخية(مقـــال) مجلـــة الـــرواد، اصدار ملتقى الرواد بغداد العدد الاول لسنة ١٩٩٩.
٧٤. رو (مصدر سابق) ص٣٧٥.
٧٥. المصدر السابق ص ٣٨٥.

الفصل الثاني
عناصر الصراع

★مصـــــــــر
★الاشوريـــــون
★الكلدانيون في بابـــــل
★الكيان السياسي اليهودي



برغم احتفاظ (مصر) الفرعونية بمقوماتها كدولة عظمى في حقبة النصف الاول من الالف الاول ق. م. الا انها كانت وبحكم مصالحها في بلاد (الشام) وبسبب ضعفها العسكري تعتمد اسلوب التآمر الخفي واقامة التحالفات التي لاتكلفها شيئاً سوى الافكار والجهد الدبلوماسي.

وكانت مساهماتها في الفترات الحرجة وعندما يتطلب الموقف تدخلها تكتفي بتقديم التشجيع والتمنيات الطيبة للحلفاء الذين كان خطر الفناء يتهددهم. ومع ان حلفاءها في بلد الشام كانوا على اطلاع تفصيلي بضعف قدراتها وعجزها عن اللعب بدور مساو للطرف الاشوري (وفيما بعد البابلي)، الا ان عناصر التأثير المؤيد لمصر والمعشش في بلاطات ملوك الحلفاء في بلاد الشام وخاصة (اليهود) منهم كانوا مستمرين وبحماس لحرف اتجاهات اشرعة عروش بلدانهم نحو البر المصري برغم المخاطر الجمة التي تحيط ذلك المسار منذ النقطة الأولى فيه، وبالفعل فقد دفع ملوك (اليهود) رؤوسهم ومستقبل كيانهم ثمنا لذلك التوجه الخاطئ.

ولعل هذا الانقياد اليهودي الاعمى باتجاه البر المصري وما جره عليهم من مصائب ونكبات يستحق التأمل والاستنتاج، وان ما نجم عن هذا الاتجاه من تنسيق تآمري جعل من الشام وخاصة (فلسطين) متأججة على الدوام بمعارك وحروب طاحنة كان طرفها الاقوى (الاشوريين) وحلفاءهم من بعد (البابليون على عهد نبوخذ نصر)ولم يكن العنصر اليهودي عنصرا اصيلا في بلاد (الشام) كونهم طارئين على (فلسطين) مما جعلهم مرفوضين باستمرار في ذلك الوسط وكان هذا الرفض انذارا لهم بالفناء مما جعلهم لايوفرون طريقة ترجحهم على من سواهم الا وتوسلوا بها، واهم تلك الطرق (التآمر والعمل السري المفضي الى تخريب امكانيات وقدرات الاخرين).

وقد اختلف (البابليون) الذين قادهم (نبوخذ نصر) مرات عديدة الى بلاد (الشام)، عن سواهم من اطراف هذا الصراع المرير في انهم

ولدوا اقوياء، ولم ينتظروا اكتساب القوة، حيث كانت ولادتهم صراعا رهيبا مع اقوى الارادات السياسية القائمة يومذاك(الاشوريين والمصريين) فدمروا (الاشوريين)، وابادوا النخبة من القوات المصرية التي جاءت الى بلاد (الشام) سعيا وراء مكاسب حلم بها الفراعنة مئات السنين وعجزوا عن تحقيقها.

وبرغم فترات السلام القصيرة والغزل المتبادل الملغوم بين عناصر الصراع، الا ان التخطيط الحقيقي لكل من أطرافه كان تخطيطا ينطوي على ابادة الخصم او الانتحار على يده. وربما اختلف الطرف المصري بعض الشيء في تصميمه على التورط في عمل جبهوي مباشر، الا انه كان عازما على المضي في الصراع حتى نهايته، ولكن بايد يهودية او غيرها من دول بلاد (الشام) وهو الامر الذي دفع بملوك بلاد الرافدين الى الحدود المصرية اكثر من مرة عاقدين العزم على انهاء مصدر التمرد والتآمر الذي يقبع خلف مجاهل (سيناء).

المبحث الاول

مصر

مع ان (سيناء) تشكل من الناحية النظرية حاجزا خطيرا ومانعا فعالا بين(مصر) وبلاد(الشام)، يعززه تواصل وامتداد صحراوي موحش هو صحراء (النقب). وان المخلفات النحتية المصرية وما تركه الفراعنة من نقوش وكتابات تسمي سكان بلاد(الشام) وبضمنهم سكان(فلسطين) بالآسيويين. الا أن ذلك كله لم يشكل فاصلا تباعديا بين الطرفين من الناحية العملية.

فقد حفلت الخارطة التاريخية لسيناء بنقاط تعدين النحاس، ويحتمل أن اول اكتشاف لهذا المعدن تم هناك عن طريق المصادفة عندما اوقد الرعاة نارا للتدفئة أو الشواء مما يعزز قناعتنا أنها لم تكن قفرا خلوا من الحياة.

وسواء كانت(سيناء) ماهولة أو قفرا فأن الطريق بين(مصر) و(فلسطين) خط مساره شمالا قرب ساحل البحر المتوسط، ويقطع(النقب) من طرفها الشمالي حيث تشكل (بئر سبع) نقطة استناد في هذا الطريق ومحطة رئيسية من محطاته اضافة الى (رينكولرا) العريش الحالية التي كانت محط القوافل القادمة من الشمال والشرق نحو (مصر) وبالعكس. لهذا كله فأن مخاطر التوغل في تيه(سيناء) و(النقب) أمر مستبعد. يؤيد ذلك التشخيص المبكر لحرية الحركة والتنقل بين(مصر) وغرب(آسيا) عن طريق(فلسطين) منذ عهد المملكة القديمة المنتهي عام ٢٠٥٠ق.م [١].

ولقد كانت بلاد(الشام) معينا ثرا للرفاهية والرخاء المصري منذ بزوغ شمس حضارتهم خصوصا في مجال تامين متطلبات بناء تلك الحضارة، سواء ما كانت البلاد الشامية مصدرها أو التي كانت تجارة سكانها تتعاطاها. وكانت تجارة الشاميين مع(مصر) مزدهرة، وكان الطريق البري عبر بلاد(الشام) اسهل وافضل من الابحار عبر البحر

الاحمر لتصدير الذهب والنحاس واللازورد التي كان التجار المصريون يسلكونها نحو الشرق وخاصة باتجاه (السومريين)[٢] في جنوب(العراق) الذين كانوا يستقبلون البضائع المصرية عن طريقين الأول بري عبر بلاد الشام والثاني بحري عبر البحر الأحمر[٣].

وكان التعدين مصدر ثروة مصرية ضخمة اضافة الى التجارة منذ عهد السلالة الفرعونية الثالثة[٤] . بينما كان البخور الذي يستورد من(اليمن) عنصرا مهما في طقوس العبادة ومن مستلزمات التحنيط، يردهم عن طريق الحجاز عبر(فلسطين) منذ عرفوا العبادة في المعابد وتحنيط الموتى. ولا يمكننا تصور تجار البخور يعبرون مضيق باب المندب كونه يؤدي الى طريق يخترق مجاهل القرن الافريقي المحفوف بالمخاطر. ولقد حاولت الملكة(حتشبسوت) عام ١٥٠٠ ق.م تحقيق اكتفاء مصري ذاتي من مادة البخور عندما قادت حملة مؤلفة من خمس سفن كبيرة لجلب اشجاره وزراعتها في حديقة(امون)[٥] ولكن التجربة فشلت مما ابقى التجار المصريين يعانون من مخاطر ومشاق الطريق من اجل البخور.

ويحتمل أن انتاج النحاس في(مصر) اخذ يتراجع حيث وردت اشارات عن قيام التجار المصريين باستيراد النحاس القبرصي الوارد الى موانئ بلاد الشام حيث كانت مراكز تجارية قبرصية في تلك الموانئ خصوصا وان المعلومات عن استثمار مصري للنحاس في النوبة الشمالية بعد عصر المملكة القديمة مازالت غير مؤكدة، فقد كانت في ذلك العصر قائمة فعلا[٦].

وكان هذا التبادل التجاري الواسع الذي هو احد مفردات تبادل حضاري ضخم بين(مصر) من جهة وبلاد الرافدين و(الشام) و(اليمن) من جهة اخرى غير متساو الكفتين حيث أن (مصر) استفادت منه اكثر مما قدمت لشركائها الاسيويين حتى وهي في ازهى عصور حضارتها كما اجمع المؤرخون، وهو الأمر الذي كان يجعلها اكثر التصاقا بغرب

اسيا وخصوصا بلاد الشام التي صارت سوقا وموردا ومصدرا للـثراء والحضارة وعناصر القوة.

فأذا ما اخذنا احد نتاجات ارض بلاد الشام(خشب الارز) فسنجد أنـه شكل نقطة شديدة البروز في تاريخ العلاقات المصرية الشامية، وأن اية محاولة للبلاد الشامية للاضرار بالواردات المصرية الشامية، سـتكون لها عواقب وخيمة ذات قيمة اعتبارية ومادية ضخمة. فهذا الخشب كان كان المادة الاساس في مواد التجارة المصرية بسبب أهميته في مجـال العمران والبناء وعدم تيسره في(مصر) اساسا.

وعندما فرض الاشوريون سيطرتهم على بلاد الشـام تحكمـوا فـي تجارتها وخاصة تجارة الخشب، الامر الذي عانت(مصر) من مرارتـه كثيرا. فقد اصدر ممثل الملك الاشوري في(بيبلوس) جبيل الحالية امـرا بمنع تصدير الاخشاب بدون اخذ موافقته مسبقا.

ومتابعة لذلك فقد فرض رقابة صارمة على كميـة قطـع الاخشـاب ونقلها [٧] لمنع تهريبها. وعندما جاء ممثل مصر(وي امـون) لشـراء كمية منها فقد جوبه بطلب غير متوقع إذ ابلغ بضـرورة دفـع مبلـغ الصفقة كاملا قبل التسليم. لقد عومل باحتقار شـديد برغـم المـاضي العريق للشركة التجارية بين بلاده(فينيقيا) والذي يمتد الى ما قبل العـام ٢٠٠٠ ق.م. ولم تنجز الصفقة وتجهز كميتها الا بعد ما وصلت قيمتـها كاملة من(مصر) وحسب التعليمات [٨] الآشورية.

ولا شك أن اجراءات كهذه تشعر السلطات المصريـة أن افضليتـها التجارية قد اوقفت بسبب انتقال السيادة على بلاد الشـام الـى أيـدي (الآشوريين) بيد ان ضعـف السـلطة أن ضعـف السـلطة فـي (مصر) وقتذاك لايسمح لها بالمجازفة بما بقيت لها من عناصر قـوة. ففي الظروف الاعتيادية نجد أن القطعات المصرية تستبيح مدن بـلاد الشام عند حصول اهانة مثل تلك او عندما تحس السلطة المصرية انـها بحاجة الى توسع وفرض سيطرة وهيمنة او لسد نقص في مسـتلزمات

الثراء . فبلاد الشام كانت وسيلة المصريين للحصول على غنائم أو جزية او ارض جديدة او حتى لمجرد اظهار القوة ، وكانت تلك البلاد المسرح الافضل لممارسات الفعل العسكري كلما دعت الضرورة اليه خصوصا وان بقية الجهات لاتساعد على تحقيق الطموحات المصرية .
فليبيا التي تفصلها عن (مصر) فيافي وقفار موحشة طويلة المسافة لم تتوان عن شن هجمات مروعة على (مصر) بينما عجت بلاد(النوبة) بكل انواع المخاطر ، وبرغم ان قطعات الجيش المصري في تلك الحقبة تعتمد في قوامها على المرتزقة الليبيين والنوبيين . لقد كانت (مصر) تسعى جاهدة لدرء هجمات النوبيين كسعيها لصد محاولات الليبيين المماثلة . فان (سنو سرت الثالث) الذي اخضع (فلسطين) لحكمه بسهولة بالغة، كان قد احتفل بزهور كبير بمناسبة نجاحه في صد هجوم لعصابات نوبية غير منظمة أكثر مما أحتفل باحتلاله (فلسطين) وخلد على نصب تذكاري ضخم على حدود بلاده مع النوبة[٩] و(رعمسيس الثاني) تميز بتوغله في بلاد النوبة وهي اشارة متميزة تدلل على حجم المخاطر التي كانت تكتنف عملياتهم العسكرية في تلك الجهات.

وبتمعن القطع الفنية المصرية القديمة نستنتج أن اكبر فخر يسجله المصريون لأنفسهم هو تغلبهم على كيانات هزيلة في(فلسطين) و(سوريا) وربما كان الخصم مجرد قبائل لا تملك سوى قطعان الحيوانات والخيم، فقد انفق ملوك السلالة الأولى كثيرا في سبيل نحت صخور تخلد قيامهم بضرب اسرى(آسيويين). وثمة نحت من السلالة الخامسة يصور حصارا لمدينة فلسطينية يعتقد انها(اللد)* .

ولعل هذا التوجه نحو(فلسطين) والثقة المفرطة بامكانية قمع سكانها بسهولة ويسر مع تيسر تسهيلات للتنقل والحركة منها واليها قد جر

---

* اللد: مدينة بناها الفلسطينيون على انقاض مدينة سابقة واسموها(لود) تخليدا لذكرى اقاربهم(الليديين) سكان سواحل آسيا الصغرى الايجية [١٢].

الهكسوس :

على(مصر) المصائب طيلة اكثر من قرن ونصف. لقد انحدر (الهكسوس) مجهولو الاصل[١٠]، من تلك الانحاء وكانوا جزءا من تلك المصائب وقد اجتاحوا (مصر) بصورة سلمية رغبة في الاستيطان المسالم والعمل بامرة المصريين منذ نهايات حكم السلالة الرابعة عشرة الى أن سنحت لهم فرصة الاستيلاء على الحكم في(مصر) ابتداء من العام ١٧٥٠ق.م حيث حكموا لثلاث سلالات متعاقبة.

ويبدو أن(الهكسوس) قد ورثوا من اسلافهم المصريين مسألة التعامل السلطوي مع (فلسطين) وسكانها. فقد كانت ارتباطات فلسطين بمصر كما هو ديدنها زمن المصريين وربما زادت على ذلك في جوانب معينة حيث شملت العلاقات الغذائية كما نتلمس ذلك من الرواية القرآنية لقصة(يوسف) التي وقعت احداثها خلال حقبة حكم(الهكسوس).

وعندما نستفسر عن مغزى العثور مؤخرا على الختم الشخصي للملك الهكسوس(خيان) في (غزة) والذي عثر عليه المنقبون، فاننا امام احتمال امتداد سلطة(الهكسوس) الى اجزاء عميقة من(فلسطين).

أما في فترة ما بعد (الهكسوس) التي تبدأ بمطاردة(المصريين) لفلولهم المنهزمة باتجاه(فلسطين)، فقد تكررت غزوات(المصريين) الى تلك البلاد خصوصا وان ندا قويا لم يبرز حتى ذلك الحين ليحد من تطلعاتهم واندفاعاتهم، اذ أن(الآشوريين) كانوا منكفئين على انفسهم، ترهقهم هموم الضعف وتشغلهم مسائل بناء القوة عن الاهتمامات الشامية. فلا نستغرب تفرد الفراعنة في الاستحواذ والهيمنة على الجزء الجنوبي من مسرح العمليات الشامي(الساحة الفلسطينية) اضافة الى اصقاع اخرى من شمالها. فلقد حمل(تحتمس الثالث ١٤٧٩ - ١٤٤٧ق.م) خمس عشرة مرة على(فلسطين) خلال حكمه. وكان الفراعنة في السلالات اللاحقة تمكنوا وحتى ظهور(الآشوريين) على مسرح العمليات الشامي من التذكير بصولات اسلافهم في عموم انحاء(فلسطين) ايام السلالة الثانية عشرة. وكان احد فراعنتهم (كما خلد ذلك على نصب تذكاري) قد عاد

الى عاصمته يقود سبعة من الملوك الشاميين اسرى مربوطين بالحبال ثم ذبح بيده ستة منهم قربانا للإله (امون).

لقد كانت فترة ما بعد(الهكسوس) تعد انعكاسا للعصور الذهبية للعسكرية المصرية خصوصا وأن تقانات القتال الحديثة التي خلفها(الهكسوس) كانت طوع تصرف(المصريين)، وكان تجريبهم لهذه التقانات في مسرح العمليات الشامي مضمون النتائج لانعدام المنافس الذي يخشى بأسه.

وجاءت ثورة(اخناتون) الدينية لتوقف تلك الفترة التي لم تعمر طويلا حيث انشغلت(مصر) بالثورة وما رافقها وما نجم عنها من اضطراب وضعف، الى درجة أن توابعهم الشاميين كانوا يستنجدون بهم ضد(الحثيين) الجدد، ولم تكن في(مصر) أذن صاغية، فالفرعون(اخناتون) كان ضد فكرة ارسال(المصريين) ليهلكوا في بلاد(الشام) في حروب لا تعنيهم ومن اجل قضية لا يؤمن بعدالتها. وكان ذلك مبررا لخلع ممالك الشام تابعيتها لمصر وامتناعها عن دفع الجزية الى ممثليها وهو الامر الذي سبب خواء الخزينة [١٣] وتدهور الاوضاع نحو مزيد من السوء مما شكل المسمار الاخير في نعش الفرعون الشاب الثائر.

وبرغم فترة الضعف الاخناتونية تلك فان علاقة(مصر) بفلسطين بالذات وعموما بلاد(الشام) التي لم يوافق(اخناتون) على ارسال جنوده ليموتوا فيها، ظلت قائمة فان ممثلين مصريين كبارا في المدن الفلسطينية المهمة يوجهون ذوي النفوذ السياسي فيها لتنفيذ سياسات وتوجيهات الفرعون، كانوا ما يزالون يؤدون واجباتهم، ومازلنا نحتفظ باسم احدهم وهو المدعو(ثووثوتبي) الممثل السياسي للفرعون في مدينة(مجدو)[١٤] تل المتسلم الحالية لاهميتها كمحطة على الطريق الرئيسي بين(بابل) و(مصر) بينما يكتب حاكم القدس اليبوسي(عبدو خيبا) الى(اخناتون) متوسلا أن يرسل له حامية مصرية مؤلفة من(٥٠)

جنديا لتأمين وحفظ الأمن والاستقرار في المنطقة [١٥] فما عسى تلـــك القوة الضئيلة أن تفعل تجاه أعمال العنف في بلد ضعفت فيـــه سـلطة القانون ولم يبق غير التعكز على هيبة(مصر) في(فلسطين)؟

لقد دام الحال على هذا المنوال من ضعف وتردد واهمال تابعية(الشـام) حتى ترسخ الضعف المصري في فترة حكم السلالة العشرين منذ العـام ١٢٠٠ ق. م التي تراجعت القوة المصرية أثناء حكمها وحتى انتـــهاء الحكم الوطني المتمثل بالسلالة السادسة والعشرين التي قضـــى عليـــها (الفرس). فمنذ ذلك التاريخ تقلص الاهتمام المصري ببـــلاد(الشــام) واقتصر على تنفيذ واجبات سريعة لاغراض السلب والاستيلاء علـــى الغنائم والعودة سريعا الى الديار المصرية. ولعل ما تميز خلال هـــذه الفترة من اعمال يتركز على استباحة (اورشليم) عام ٩٢٦ ق. م طمعا بكنوز الهيكل وهو الهجوم الذي قام به (شيشنق الاول) عقب انقســـام الكيان السياسي اليهودي:" في السنة الخامسة للملـــك رحبعـام صعـد شيشنق ملك مصر الى اورشليم واخذ خزائن بيت الرب. وخزائن بيت الملك واخذ كل شيء واخذ اتراس الذهب التي عملها سليمان"[١٦]

وكذلك حركات (نخو الثاني) الذي حلم متأخرا بالاستيلاء على بعـض تركات الاشوريين ولكن (نبوخذ نصر) جعله يحلم بالنجاة من معركـة أبيد خلالها كل جيشه في منطقة(كركميش) على (الفـــرات). وثمـة إشارات في رسائل (العمارنة) لسلطة مصرية ضعيفة في (فلســطين) ليس امرها مهما حيث استعاض عنها القراعنة بأسلوب عمـــل جديـد يعتمد المؤامرات والدسائس السياسية بالتنسيق مع زعماء اليهود، ضـــد الكيانات السياسية القوية في بلاد الرافدين كما سيمر بنا.

وبرغم تفاهة اغلب رسائل (العمارنة) والتي نقربها للقارئ الكريــم بمقارنتها بقصائد شعراء عصر الانحطاط الأدبي في نهاية زمن الخلافة العباسية والفترة المظلمة، فأنها تبصرنا بحقيقتين الاولى ان ثمة سـيطرة مصرية ولو اسمية كانت على (فلســطين) وبعـض منــاطق الشــام

الاخرى، فان الرسالة العراقية التي يشتكي فيها مرسلها من قيام بعض قطاع الطرق بتسليب القوافل التجارية في (فلسطين) مضمنا اياها رجاء تدخل الفرعون لردع هؤلاء اللصوص تدل على ذلك وان هيبة (مصر) هناك تدنت الى درجة مقاربة للتلاشي، والثانية ان تلك الرسائل مدونة باللغة الاكدية باستثناء بضع منها كتب بلغات اخرى وهذا يعزز ما ذهبنا اليه من ان (مصر) استفادت من التبادل الحضاري مع بلاد الرافدين و (الشام) حيث أخذت اكثر مما قدمت.

نخلص من هذا العرض الى ان لمصر دورا كبيرا في توجيه سير الأحداث في بلاد الشام وخاصة (فلسطين) ومدى تأثر سكان وقادة تلك البلاد بالسياسات المصرية حتى في أوقات ضعف (مصر) . ولعل قادة (اليهود) كانوا حالة متميزة في الاذعان لمصر سواء في المملكة اليهودية الشمالية او الجنوبية ، حيث كانوا يكنون للفراعنة احتراما طوعيا كبيرا واخلاصا ملموسا معززا بالادلة خلاف ما كانوا يضمرون من مشاعر للملوك (الاشوريين) و(البابليين)، ولعل ذلك استمرار لذات السياسة التي نهج عليها كبراؤهم منذ عهد (داود) الذي اظهر اعجابه بالتنظيم الاداري المصري ودرس تفاصيله ليطبقه في مملكته، و(سليمان)الذي تزوج من مصرية (يدعي اليهود انها اميرة فرعونية بينما يشاع انها مواطنة عادية من عامة الشعب، وانه عين المصري(شوشا) مسؤولا عن مراسلات الملك وابني (شوشا) كاتبين في بلاط (سليمان) [١٧]. وان تحالفاتهم كانت دائما اقوى وارسخ واشد الزاما عندما تكون مع المصريين مما هي عليه تحالفاتهم المحدودة مع أي من ملوك بلاد الرافدين وكان ذلك وسيلة للتنفيس عن رغبات الفراعنة الذين لم يسجلوا في تاريخهم الطويل انهم هددوا بلاد الرافدين خلافا لما كان عليه الملوك (الآشوريون)و(البابليون) من فعل، فقد استبيحت حواضر(مصر) اكثر من مرة في زمن (اسرحدون) الذي

كان ينصب حكاما وملوكا عليها وكذا فعل ابنه (اشور بانيبال) بينما قرع (نبوخذ نصر) ابواب (مصر) بعنف مرتين.

كما وان العثور على اية حالة تآمر يهودية ضد أي من الفراعنة بذات الصيغ المدروسة والمتقنة التي تآمروا على وفقها ضد ملوك الرافدين امر غير متحقق، ولم يكن تصرف (يوشع) الذي اعترض الفرعون (نيخو) الا تصرفا فوريا غير مخطط له كما سنرى ذلك لاحقا.

وقد تكون اسباب الانقياد اليهودي الطوعي والاعمى لرغبات قادة (مصر) مردها كل او بعض مما يأتي:

١- عقدة الذل والعبودية التي عانى منها اجدادهم طيلة قرون في (مصر)، تجعل ذكراها قادة (اليهود) ينظرون الى الفراعنة نظرة تعظيم لا ارادية تنطوي على الخوف التلقائي الدائمي وكأنهم من رعايا هؤلاء الفراعنة مما يفاقم الروح السلبية لديهم.

٢- الانقياد الفكري اللاواعي لمعتقدات وافكار الديانة المصرية الوثنية على حساب التوحيد كاصرار (اليهود) والى ازمنة متأخرة على عبادة العجل كما حفلت اسفار العهد القديم بحوادث هذا الارتداد عن مبدأ التوحيد اضافة الى ان كتبة الاسفار استوحوا مادة المزمور الرابع بعد المئة من قصيدة (اخناتون) المخصصة لمدح (اتون)[١٨].

٣- تلاشي الحواجز الطبيعية والكيانات السياسية الحاجزة بين (مصر) و (فلسطين) كالتي تقع بين (فلسطين) وبلاد الرافدين من كيانات سياسية ارامية وغيرها ومساحات شاسعة من الصحاري المنمازة بالمخاطر وغارات البدو وقلة المياه اضافة الى وجود موانع مائية كبيرة ونهر (الفرات) والانهار السورية القاطعة للطرق.

٤- سرعة تدخل المصريين في (فلسطين) خلاف ما متاح من عامل وقت للعراقيين وللاستدلال نذكر بحادثة وقعت للفرعون(تحتمس الثالث) حيث قطع المسافة بين (طيبة) و(غزة) والبالغة (٢٥٠ كم) بتسعة ايام وهذا امر لايمكن تحقيقه من قبل جيش ينطلق من (نينوى) او (بابل). فهو يحتاج الى ازيد من شهر ليبلغ (فلسطين) منهكا متعبا اذا ما تحرك بنفس سرعة حركة (تحتمس) مع اسقاط احتمالات حصول معارك تصادفية وحوادث طارئة في الطريق وهو الامر الذي لايحتمل وقوعه مع جيوش (مصر) في طريقها الى (فلسطين). وقد يكون هذا العامل سببا في خشية بعض ملوك (اليهود) من (المصريين) برغم ضعف (مصر).

٥- تأمل وصول نجدات مصرية سريعة، وفورية بسبب قرب معسكرات الحاميات المصرية في (سيناء) مع ان ذلك لم يحصل على الاطلاق حتى في أسوأ الظروف التي واجهها (اليهود).

٦-طبيعة الشراكة التجارية والعلاقات ذات المنافع المتبادلة بين المصريين واليهود خصوصا منذ نقل (سليمان) طريق التجارة الرئيسي الى داخل (فلسطين) لتربط بين موانئ البحر المتوسط وخليج (العقبة) مما يعني شمول (مصر) بالانتفاع من هذا التغيير على حساب مصالح سكان بلاد الرافدين.

٧-تلاشي الاطماع المصرية في (فلسطين) ضمن حقبة الكيانات السياسية اليهودية بسب ضعف القدرات الدافعة للحركة المؤثرة باستثناء حالات شاذة لا تعدو عن كونها (انتهازا سريعا للفرص) كما فعل (شيشنق) و (نيخو) مما يبرر وضع الفراعنة في الحسبان.

٨-وجود علاقات اجتماعية بين اليهود (القادة منهم خاصة) وبين المصريين كالمصاهرة واللجوء السياسي وتبادل الخبرات

وخاصة الصناعية حيث عثر على مشاغل مصرية في (فلسطين) احدها في منتصف الطريق بين (يافا) و (اورشليم). وتلك امور لم تكن مألوفة في علاقات (فلسطين) مع (بلاد الرافدين).

٩-وبسبب من عقـدة الضعـف والفشـل فـي تحقيـق الاحـلام والطموحات التي عانى منها الفراعنة كثيرا من خلال فشلهم في بلوغ اراضي الخصب والنماء والحضارة الزاهية فـي (بـلاد الرافدين) كما مر بنا، فان ذلك لايعني توقـف الفراعنـة عـن التخطيط التآمري لاضعاف الدول القوية هناك تمهيدا للقفز عليـها بانتهاز الفرص كتلك الفرصة التي حاولوا انتهازها عقب انـهيار الدولة الآشورية فسحقت جيوشهم على يد (نبوخذ نصـر) فـي (كركميش). وكان (اليهود) وسيلة طيعة لتنفيذ وانجـاح هـذا التآمر اما بالتوجيه او المقترحات مع توخي دور فاعل في التنفيذ وهو الامر الذي كانوا يدفعون ثمنه غاليا وباستمرار. ولعل مـن سوء حظ (اليهود) ان المشاركة المصرية في خطط التآمر تلـك لم تتعد الوعود والدعم المعنوي الفارغ من أي محتوى.

اما اهم حلقات التنسيق والتخطيط التآمري المشترك بين (اليـهود) و(الفراعنة)، فأننا نضع الاصبع على الاكثر اهمية والاكبر اثرا منـها وكما يأتي:

١- محاولة ملكي (السامرة) و (دمشق) عقد تحالف مدعوم مـن قبل فرعون مصر (ساركو الثاني ٨٦٠- ٧٣٢ ق. م) ضـد الدولة الاشورية، وكانت النتيجة قيـام (شـلمنصر الثـالث) بمهاجمة الحلفاء في معركة (القرقـار ٨٣٥ ق. م)(*) ولـم يتدخل الفرعون الذي اثبت المنقبون انه تبادل هدايا ثمينة مـع (اخاب) ملك (السامرة) الذي هزم في تلك المعركة.

---

* نفضل تسميتها (القرقار الاولى) حيث خاض (سرجون الثاني) معركة في نفس المنطقة عام ٧٢٠ ق. م يمكن تسميتها (القرقار الثانية).

٢- تآمر (هوشع) ملك (السامرة) بالتنسيق مع (سباكو) فرعون (مصر) الذي شجعه على الخروج على طاعة الاشوريين فهاجمه (شلمنصر الخامس) والقى عليه القبض ورحل سكان عاصمته (السامرة) عقب حصار طويل امتد لثلاث سنوات لم يجد الفرعون في نفسه الجرأة خلاله على تقديم عون لحليفه واكتفى بالدعاء لليهود بالنصر والفرج.

٣- حاول (فقح) ملك (السامره) ٧٣٧-٧٣٢ ق. م عقد تحالف مع (راصين) ملك (دمشق) بمباركة وتشجيع من (مصر) بهدف مقاومة (الآشوريين). ولان مملكة(يهوذا)، احجمت عن المشاركة في ذلك الحلف واصرت على ارسال الجزية الى (الآشوريين)، فقد تعرضت لعدوان (فقح) المسند من قبل حلف ارامي قوي مما دعا (احاز) ملك (يهوذا) للاستنجاد بالملك الاشوري (تجلات بلازر) الذي خف لنجدته فاحتل (دمشق) واستدعى (احاز) ليحتفل معه بذبح (راصين) سيد التحالف. وبعدها قتل(فقح) في عاصمته واسر رعيته. كل ذلك حصل ولم تخرج (مصر) عن دائرة الصمت المعتاد في هكذا مواقف.

٤- حرضت (مصر) حليفها (ياوبعدي) ملك (حماة) على التمرد، وشجعت ملوك (دمشق) و (ارواد) على الانضمام اليه بينما حاول انصارها الموجودون بين بقايا يهود المملكة الشمالية المنحلة الاصطفاف خلفهم، وائتمر بأمرها كل من ملك (يهوذا) وملك (غزة). واكتفى الفرعون الذي تأسس هذا الحلف تلبية لدعوته بارسال مستشار عسكري اسهاما منه في التحالف الذي شتت شمله

(سرجون الثاني) في معركة (القرقار الثانية) عام ٧٢٠ ق. م وكان الفرعون يوقع على تقارير الموقف الـــواردة اليه عن سير المعركة بانه اطلع على ذلك وكفى.

٥- عقد الفرعون حلفا مـــع (حزقيـــا) ملـــك (يـــهوذا) (٧١٦-٦٨٧ ق. م) ضد(سنحاريب)، وعندما شن جنـود الملك الاشـــوري هجومـــهم علـــى (يـــهوذا) وحـــاصر (الرابشاقي) اورشليم عام ٧٠١ ق. م وعاب على الملـــك اليهودي المحصور تحالفه مع (مصر) التي لاتستطيع رد (الاشوريين) عنه، فان الفرعون بقي في عاصمته يقـــدم التأييد المعنـــوي لحلفائـــه الـــى ان خضعـــوا لمطـــالب (سنحاريب) الذي قرر التوجه لتأديب الفرعون المتآمر.

٦- حرضت مصر (يماني) ملك (اشدود) على التمـــرد والعصيان بوجه (الاشوريين). وقـــد اضطـــر الجيـــش الاشوري الى مهاجمته. وبعد ان هرب باتجاه اسياده فـــي (مصر) الذين لم يجرأوا على تحريك ساكن، فقـــد اســـر (الآشوريون) زوجته واطفاله.

٧- حاول (يهوياكيم) ملك (يهوذا) التقرب الى الفرعـــون (نيخو) الذي قتل اباه واسر اخاه دونما مبرر لذلك التقرب، وتمرد على (بابل) تزلفا للفرعون. فهاجمه(نبوخذ نصر) وقتله ونصب مكانه (صدقيا) في وقت كان الفرعون فـــي عاصمته مشغولا بوضع خطـــط دفاعيـــة ضـــد هجـــوم (نبوخذ نصر) المرتقب.

٨- انجرف (صدقيا) الذي من عليه (نبوخذ نصر) وعينه ملكا علـــى (يـــهوذا) ٥٩٧-٥٨٦ ق. م وراء دعـــوات اللوبي المصري وضغوطه للتحالف مع (مصر) ضـــد (بابل) فكان ذلك سببا في تقويض (نبوخذ نصر) للكيـــان

اليهودي وقتل ملكه وتنفيذ الاسر البابلي الذي افلت منه عناصر ذلك اللوبي، ويستمر تآمرهم في اجبارهم (ارميا) على مصاحبتهم قسرا الى (مصر).

وعدا عن ذلك فان محاولات (مصر) في بلاد الشام (سوريا بالذات) تعدت عملاء هم (اليهود) لتشمل ممالك اخرى ارامية وفينيقية حيث افلحت في حمل (صور) على التمرد والعصيان واعدة اياهم بالنجدة والعون اللازم عند الحاجة. ولكنها تقاعست عما وعدت به عندما هاجم (نبوخذ نصر) مدنهم مما اضطر سكان الموانئ الى الهرب بحرا الى حليفتهم (قرطاجة) بعد ان يأسوا من وصول عون مصري يدفع عنهم الموت القادم على انصال سيوف جنود (بابل).

وكانت الصورة اليهودية في (بابل) ذات اطار مصري، فان(اميل مردوخ) خليفة (نبوخذ نصر) حاول مد جسر للتفاهم مع (مصر)، فاطلق سراح (يهوياكيم)[٢٠] الملك اليهودي الاسير في (بابل) منذ ايام حكم ابيه.. وكأنه من رعايا فرعون (مصر).

لقد كانت تلك الحلقات التآمرية المترابطة سببا وجيها لان يقاتل (الاشوريون) و(البابليون) في بلاد (الشام) عموما و (فلسطين) خصوصا فرووا بدمائهم تلك الارض.

المبحث الثاني

الاشوريون

لم يكن الآشوريون (الجزريون القادمون من الغرب قبل حلول الالف الثاني ق. م) شعبا طارئا على المنطقة او غزاة استقروا عقب غـــزوة موفقة في شمال (العراق) ليستقروا فيها ويشكلوا دولتهم عليها فاعمـــال (بويبل) التي نشرها، بما فيها من اكتشاف لمنطقة (خورســباد) عـام ١٩٤٢ م تشير الى وجود (١٧) ملكـــا اشـــوريا منـــذ عصـــر فجــر السلالات،وربما كان (هالة) الذي قاد بني جلدته فـــي ســكنهم الواقــع بين(الخابور) و(دجلة) ضمن سيادة الدولة الاكدية اولهم. وبرغم الكــم الكبير من الشكوك التي يسوقها البعض حول طبيعة اولئك الملوك وهـل كانوا مجرد رؤساء عشائر يسكنون الخيام أم أنهم كـــانوا مــن طبقــة الملوك حقا ممن لهم عروش وتيجان مـــع تابعيـــة محتملـــة للســلطة السومرية وبعدها الأكدية، وقطعا للشـــك بـــاليقين فقــد عمــد بعــض المتشككين للبحث في الاصول اللغوية لاولئك الملوك الاولين معتمديــن على تحليل اسمائهم والقليل من الاثار التي خلفوها للاجيال اللاحقة.

ولن يهمل التاريخ الرسمي الذي كتبه احفاد هؤلاء من ملوك(آشــور) ذكر اجدادهم حيث ثبت اسماء الملوك السبعة عشر واعقبـــهم بقائمــة تتضمن عشرة اسماء اطلق عليهم هذا التاريخ(الملوك الاجداد) ثم يعقــب ذلك الثبت اسماء اثني عشر ملكا ضمن مجموعتين كل منها تضم ســتة اسماء يعقبهم الملك المعروف لدينا جيدا(شمشي-ادد) مما يجعلنا نصدق أن الملك الاشوري(اشور- ايطل- الى) الذي بانتحاره حرقا في قصــوه عام ٦١٢ق.م انهى هذه الدولة، انما هو سليل ملوك حكموا مـــا لايقــل عن ١٤٠٠سنة مع قبولنا باي تصحيح لهذا الرقم برغـــم قناعتنـــا أن، التصحيح لو حصل سيكون قليلا غير مؤثر، ولن نلتفت الـــى ادعـــاء أن(سرجون الثاني) من غير النسل الملكي الاشوري لحين ثبوت دليـــل مادي قاطع.

اما مبرر جعل(شمشي- ادد ١٨١٤- ١٧٨٢ق.م) نقطة فاصلة في هذه القائمة فمردها انه يشكل نقطة الارتكاز لقناعات تثبيت التاريخ الآشوري كونه وبموجب ادلة مادية عاصر (حمورابي) المعروف لدينا بشكل دقيق ومفصل.

واسوة بالامارات ودول المدن التي اعلنت استقلالها عقب انتهاء حقبة السيادة السومرية، فقد اعلن(الآشوريون) انفصالهم* لينهمكوا في تشكيل كيان سياسي ينماز بهمة ملوكه في مجالات البناء والحروب والثروة. عموما فاننا نقرر أن وقوع هذا الحدث بحدود العام ٢٠٠٠ ق.م حيث كان (بزر اشور الاول)رأس قائمة ملوك ما بعد الانفصال. وقد ترك لنا بعض خلفائه وثائق طينية تدل على قيامهم ببناء معابد للاله(اشور)، وبعيد الانفصال اخذوا يتلفتون ذات اليمين وذات الشمال طمعا في فرص للتوسع، فقد كانت(نينوى) التي تقع شمال العاصمة(آشور) بحوالي ٩٠كم هدفا سهلا. وباتجاه الجنوب حققوا نجاحات جديدة ساهمت في توسيع رقعة المملكة الفتية على حساب الكيانات المجاورة التي بدأت تستشعر الخطر الجديد ولم يمنع ذلك النشاط التوسعي نزوعا تجاريا واسع الطموحات عند قادتهم واثريائهم نال نجاحا ابتدائيا منذ القرن العشرين ق.م ومنذ اعتلى(ايلا- كبكابو) عرش(اشور) فقد تم عقد اتفاقيات شتى في مختلف المجالات مع العديد من الجيران. في حين تضمنت سياسة(شمشي- ادد الاول ١٨١٤- ١٧٨٢ق.م) توجها لاحتلال اراضي اولئك الجيران.وسرعان ما صارت سواحل البحر المتوسط والموانئ الشامية من بين املاكه. يشهد على هذا الاستنتاج

---

* يسميه البعض(استقلالا) ولا نميل الى هذه التسمية كونه ينطوي على تبضيع للوطن وصار ذلك مادة رخيصة للمرجفين من امثال(فان ايس) الذي يأسف أن (العراق) لم يجزأ مدعيا أن الكيان السياسي للعراق الحديث خطا وأن انصاره عملوا ضد الاربعة الاف سنة من تاريخه مصرا على ضرورة أن لا يشكل(العراق) كيانا سياسيا موحدا[٢٢] فراقب وتأمل حجم التآمر الذي لم يتوقف عند حد.

نصب تذكاري(مسلة) في(لبنان) على(ساحل البحر الكبير) حيث يقول(نصبت مسلة حفر عليها اسمي العظيم في بلد لابان على ساحل البحر الكبير). ولم يكن ابنه الذي اختلفه(*) باقل حماسا واندفاعا منه للقتال في جميع الجبهات، الامر الذي دفع عددا من الملوك المجلورين لخطب وده بما يشتهي من هدايا قدمت باساليب تملقية. وعندما اظهر البعيدون عنه مسافة،العداء له ظنا منهم ان جبال (زاجروس) تحميهم من غضبه وجحافله فوجئوا به (يجوس خلال الديار) يقطف رؤوس قادتهم ويملأ عرباته بالغنائم ومستحقات الجزية.

بيد ان ظهور قوى وكيانات سياسية جديدة تتمتع بالانتعاش كان يحمل بين طياته المخاطر الحقيقية على مصير الدول الاشورية، وتكاد حملات (حمورابي) على بعض تلك الكيانات تبدو غير مؤثرة برغم انها تسببت في جعلها اكثر انشدادا لمساكنها.وكان بروز (الحثيين) المفاجئ صدمة للاشوريين، فهؤلاء كانوا اقوياء منذ اللحظة الاولى لظهورهم في المنطقة، لابل نفذوا ما عقدوا العزم عليه بمنع (الآشوريين من ارسال واستقبال القوافل التجارية وخاصة مع الاصقاع الشمالية منذ العام ١٧٥٠ ق. م اما (الحوريون) فقد زحفوا جنوبا حال ظهورهم واستولوا على المناطق المحيطة بمنطقة (ارابخا) التي هي (كركوك) الحالية ثم واصلوا زحفهم غربا ليبلغوا مشارف العاصمة الاشورية ذاتها. ومع ذلك فان (الآشوريين) كانوا يراقبون تطورا خطيرا حققه التحالف الميتاني- الحوري تمثل بتدجين الحصان، وبدأت تبعا لذلك عملية تربية الخيول في المنطقة. كان اهتمام (الاشوريين) بهذا الانجاز ينطوي على عسكرة هذا الكائن واستثمار مواصفاته في حروبهم الكثيرة.

في هذه الظروف المفعمة بالفوضى، هاجر (ابراهيم) من (العراق) شمالا ليتصل باقاربه (الاراميين) في (حران)(*) قبل ان يتوجه الى

---

* صار خليفته.

* حران: مدينة قديمة تقع اثارها داخل حدود (تركيا)، جنوب (اورفا) بـ ٥٠ كم.

(فلسطين)، بالوقت الذي كان (الهكسوس) الذيـــن ســكنوا (مصـــر) بأسلوب سلمي استلموا السلطة وحكموا اكثر من قرن ونصف، في حين تعرضت (بابل) بعـــد حقبـــة (حمورابـــي) المتوفـــى بحـــدود عـــام ١٧٥٠ ق . م لهجوم (حثي) غايته اذلالها والحط من قيمتها بتحويلـــها الى مدينة ثانوية تأتمر بأمرهم. ثم سقطت بعد ذلك الاضطهاد المـــهين بيد الكاشيين الغزاة الذين استمر حكمهم المظلم لاكثر من اربعة قـــرون خانقة.

وكما فعل (الهكسوس) في (مصر)، فقد جاء (الكاشـــيون) اقوامـــا رحلا استوطنوا بعضا من اطراف (بابل)،وبعد ان اشتد عودهم عملـــوا كما (الهكسوس) معاصروهم حيث قفزوا الى الســـلطة فـــي (بـــابل) المستباحة، التي حطمها الاجتياح الحثي. وهناك اسسوا كيانا غاصبـــا. كانت الدولة الاشورية تتململ تحت سيطرة غير تامة لاجانب اخرين هم (الميتانيون). وكان الملك الاشوري يتصرف باستقلالية ظاهرة وكـــان يرسل السفراء الى (طيبة) . ولما كان مستعمروهم دونهم حضارة فقـــد اقتبسوا منهم كثيرا، الامر الذي سمح للاشوريين بممارسة نفوذ حضاري كبير على المستعمر الاجنبي.

ولم تنفع التمائم والرقي الآشورية ولا حتى تمثال(عشـــتار- نينـــوى) التي بعث بها(الميتانيون) الى الفرعون العجوز في مرضه الأخير، فلفظ انفاسه وقام بالامر بعده ابنه الشاب الذي اختـــار اســـما غريبـــا علـــى شعبه(اخناتون) والذي ابقى على علاقات قوية مع القوى المتنفذة شـــرق المتوسط مثل(الكاشيين) و(الميتانيين)، برغم عدم رغبته فـــي التـــورط لحسم الاضطراب الامني في بلاد الشام التي استمر(الحثيون) في تحطيم استقرارها. ونتيجه لذلك الاضطراب الذي عم الشـــرق فقـــد انـــهارت دولة(الميتانيين) وانقسمت الى دولتين، تحالفت احداهمـــا مـــع تابعيـــهم المتحضرين(الاشوريين) الذين حصلوا على الفرصة الذهبية التي كـــانوا يحلمون بها، فقام(اشور- اوبالط الاول ١٣٦٥-١٣٣٠ ق.م) بـــاعلان

تحرير بلاده واستقلالها التام من السيطرة المتيانية، وما أن حصل ذلـك حتى انهار الكيان الميتاني تماما وصار من تراث الماضي، حيث تشجع توابع اخرون على الاستقلال وهو ما يمكـــن تشـبيهه بفـترة سـقوط جدار (برلين) وانهيار (الاتحاد السوفيتي) وسـقوط التجربـة الشـيوعية برمتها جراء ذلك.

لقد كان الاستقلال الذي اعلنه(اشور- اوبالط) خطوة اولى في مسـيرة الانتصارات الطويلة المقبلة، وكانت الخطوة الثانيـة الوقـوف بوجـه الحثيين الذين يجثمون على الرئة الاشورية موقف الند. وعلى صعيـد الدبلوماسية فقد وطد علاقاته مع(اخناتون)، في وقت انطلقت ابنته جنوبا في موكب عرس لتزف الى ابن الملك الكاشي في مصـاهرة سياسـية يرتجى من ورائها خير كثير.

ولم يجد(الحثيون) مبررا للسكوت على التغيرات السياسية الخطيرة في المنطقة، فرأوا أن يؤججوا الموقف لأوسع مدى، فركبوا الخيول وفـق تقنية عسكرية آشورية يسجل(للآشـوريين) بـراءة الاختـراع فيـها واستصحبوا عرباتهم ليجتاحوا بلاد(عيلام) سعيا وراء الغنائم. وعندمـا حققوا غايتهم رأوا أن يعيدوا النظر في الخارطـة السياسـية للمنطقـة فجزأوا وقسموا الإمارات السورية.

وفي(مصر) فأن تأثيرات ثورة(اخناتون) الدينيـة كـانت تحـد مـن قدرات(توت عنخ امون)، فهو يملك جيشـا كفـؤا يعتـد بـه للتوجـه الى(سوريا). اما (الآشوريون) فقد نجحوا في تصفيـة حسـاباتهم مـع (الميتانيين) الذين ولوهم الادبار فخلدوا نصرهم ذلك باحتفاليـة كبـيرة وكتبوه في سجلهم التاريخي بالخط العريض بينما كان ذلك كله وسـيلة مادية لرفع معنويات الجيش والسكان وتهيئتهم للقادم من المعارك.

وتمكن سكان هذه الدولة "مفتولو العضلات-ثابتو الجنـان- غزيـرو الشعر- ذوو اللحى الكثة- معتدلو القامات- عابسـو الوجـوه- ثقيلـو

الظل، من أن يطأوا باقدامهم الضخمة عالم البحر المتوسط الشرقي"[٢٣].
وكان(الحثيون) اشد الناس قلقا وهم يحللون مضـــامين التقــارير التـــي تردهم تباعا من شمال بلاد الرافدين بخصوص هذه الدولة الفتية التـــي تزداد قوة وحماسة، وكانت النية الحثية متجهة الى التخطيط لمواجهـــة حاسمة مع(الآشوريين)، الا أن صعود فرعون جديد الى عرش(مصـــر) هو(رعمسيس الثاني ١٢٩٠- ١٢٢٤ق.م)غير من النيات وأبدل الخطط فهذا الفرعون قرر أن يرفع معنويات جيشه وشعبه المتدنية عن طريـــق صنع انتصارات كبيرة تعزز سلطته وتقويها ويستعيد بواســـــطتها مـــا استطاع من مستعمرات سابقة، وعندما انطلق شمالا فقد اجتاح(فلسطين) وكأنه في نزهة. وفي(سوريا) اصطدم بحشود ضخمة للحثيين يقودهـــا ملكهم(حاتوسيلس الثالث) في منطقة(قادش) عام ١٢٨٨ق.م. لقد نشـــبت معركة من نوع المعارك الكبرى في التاريخ القديم، جربت فيها افكـــار حديثة في تخطيط وتنفيذ وادارة الحرب. المدهش أن تلك المعركة برغم ضخامتها وهول احداثها، لم تسفر عن حسم واضح، وراح كلا الطرفين يدعي الانتصار فيها. وبعـــد أن درس الطرفـــان الموقـــف السياســـي والعسكري في العالم بضوء نتائج تلك المعركة غامضة النتائج فقد عادا ليتقابلا، ولكن هذه المرة للتفاوض وليس للقتال فهناك خطر كبير لابـــد من الاحتفاظ بعناصر القوة استعدادا للاحتمالات الأسوأ فـــي مســـتقبل مجهول، وكانت حصيلة المفاوضات اتفاقية سلام وتعاون يتعهد فيها كلا الطرفين بمساعدة الطرف الاخر ونجدته عند تعرضه لخطر من طـرف ثالث، يسبق هذا البند تعهد بالامتناع عن القيام بعمل عدائي ضد الطرف الاخر. وكتبت الاتفاقية باللغات البابلية والحثية والفرعونيـــة القديمـــة، وكعادة ملوك ذلك الزمان فقد وثقا ومتنا علاقتهما بمصـــاهرة سياســـية واستبدل العداء بصداقة وتعاون... ولكن ما عدا مما بدا ؟.

ان خلف بنود تلك الاتفاقية والمصاهرات التي تمت على هامشها التي جاءت عقب واحدة من اهم معارك التاريخ القديمة يكمن خطر داهم في الشرق بات ينمو على حدود نفوذ كلا هاتين الامبراطوريتين، انهم(الآشوريون) الذين لا يفصلهم عن الحثيين سوى نهر(الفرات)، اما عن(المصريين) فأن حدودهم التي تصل الى شمال(فلسطين) في متناول أيدي هؤلاء المحاربين القساة الذين قرروا أن لا يختاروا غير الانتصارات الا الموت.

وكان ذلك استشرافا دقيقا للمستقبل السياسي والعسكري للمنطقة، فقد اندفع(الآشوريون) خلال تلك الحقبة نحو كل الجهات التي تحمل تهديدا لامنهم. ونجحوا في إزاحة مكامن الخطر، ومع أن(الكاشيين) لم يكونوا قد وهنوا تماما وانهم قادرون على تحقيق انتصارات وكسب حروب دفاعية، ولكنهم هزموا بشكل ملحوظ أما(الآشوريون) الذين كان يقودهم(انليل- نراري) خليفة(أشور-أوبالط) وابنه، فاستثمر هذا الملك نجاحه الباهر واخذ يدفع بحدوده الجنوبية على حساب هؤلاء الاجانب الذين كانوا يتنازلون عن مزيد من الارض والكبرياء عقب كل جولة من المعارك أو المفاوضات، فقد كانت اتفاقيات الحدود لصالح(الآشوريين) دائما.

وعندما اعتلى عرش الآشوريين(ادد-نيراري) فقد نقل اهتمامه الى الغرب حيث نجح في احتلال النقطة الاهم والاكثر خطورة في الهيكل الدفاعي الآشوري. انها(كركميش) جرابلس الحالية الواقعة عند انعطافة(الفرات) وهي النقطة الاكثر سهولة في عبور النهر من كلا الضفتين، وعاد ظافرا، ولكنه وقبل أن يلتقط انفاسه بعث رسولا الى ملك الكاشيين لعقد جولة مفاوضات جديدة لانه الغى اتفاقيات الحدود مما يتعين معه عقد اتفاق جديد، وعقد الاتفاقيات الجديدة[٢٤] وحصل بموجب بنودها على مكاسب جديدة.

وكان(شلمنصر الأول ١٢٧٤-١٢٤٥ق.م) اكثر حماسة، وذاك ما دفعه الى عبور الجبال لتشتيت حشود القبائل الهندو اوربية في منطقة(اورارتو) التي هي جمهورية(ارمينيا) الحالية وينهي خطرهم. ويتوجه غربا ليغير مفاهيم السياسة ويقلب السَوْق* هناك حيث يزيل اسم الدولة(الحثية) من على الخارطة تماما ويحول شعبها الى شراذم تبحث عن فرصة تأسيس كيانات لا تملك عناصر القوة، ويتحقق الأمن هناك في وقت كتم العالم انفاسه تحسبا لتطلعات هذه الدولة العظيمة.

لم يكن الموقف السياسي يسمح ببروز قوة جديدة تصارع(الآشوريين)، لذا فأن نهوض(العيلاميين) في الشرق عقب كبوة مؤثرة انامتهم اربعة قرون، ليس بصالح(الآشوريين)،وكانت(بابل) جوهرة الشرق محط انظار هذين الخصمين. ويسبق العيلاميون الآشوريين نحو(بابل)، وظل(توكلتي ننورتا ١٢٤٤-١٢٠٨ق.م) ملك الآشوريين يراقب ويخطط حيث عرف نقاط ضعف(العيلاميين)، ومن أين تؤكل كتفهم، فاندفع بجرأة ليحطم القسم الأكبر من جيش الغزاة بينما لاذ من نجا منهم بالهرب. ويدون(الآشوريون)تلك الواقعة شعرا تحت عنوان(ملحمة توكلتي ننورتا)[٢٥] والتي قد تكون الملحمة الشعرية الوحيدة في مخلفات التراث الأدبي الآشوري.

الآن انكشفت أراضي جنوب بلاد الرافدين وما وراء(بابل)، ويسحب الجنود الأشداء خط الحدود وراءهم ليلقوا به غير مأسوف عليه في مياه(الخليج العربي)، فقد صار الحد الجنوبي(البحر الأسفل ذو الشمس المشرقة) وكانت تلك واحدة من اللحظات الخالدات في تاريخ بلاد الرافدين حيث تحققت وحدتها على أيدي أبنائها الذين طردوا الغزاة ثم

---

* السوق في المفاهيم الوافدة هو(الاستراتيجية).

بدأ ملك(أشور) يضم لحكمه ممالك(ماري وعنه ورابيقوم إضافة الى جبال الاخلامو)[٢٦].

وبحس حضاري ومسؤولية كبيرة أحاط(توكلتي ننورتا) مدينة(بابل) باحترام جم وعامل اهلها بما ينشدونه من تقدير اعترافا بفضلها في ميدان الحضارة والعمران والمدنية[٢٧].ولكن(بابل) كانت على موعد مع المتخلفين من الغزاة، ففي جو مؤامرة دموية تدحرج رأس الملك(توكلتي ننورتا) على سلالم قصره، وكأن الدماء التي نزفها كانت سر قوة الدولة وهيبتها، فجاء(العيلاميون) متعطشين للانتقام والغنائم، فدمروا كثيرا من شواهد الحضارة في مهد الحضارة ونهبوا شواهد أخرى. فغادرت البلد مسلة(حمورابي) ومسلة(نرام سن)وتماثيل(مردوخ)و(مانشتو سو) تبكي اسرها وذلها والمصير المجهول في بلاد التخلف بعد العز والكرمة في(بابل) الثكلى.

وعندما وصلت اخبار(بابل) الى السلطات الآشورية فقد كانت صدمة عنيفة اعادتهم الى رقدتهم في غياب الملوك ذوي العزم، وبانتظار مثل هؤلاء فقد غطت الدولة الآشورية في نوم عميق بينما كان الشرق مسرحا لاحداث صاخبة سببها مجيء اقوام غريبة بعضها قدم من بحر(ايجة)، وأخرى ذات ارومة هندو أوربية قدمت من جوار بحر (قزوين). ومع أن بلاد الرافدين لم تتأثر بشكل مباشر بتلك الهجرات الا أن المنطقة كلها عانت من الاضطراب. الاختراق الوحيد الذي تعرضت له بلاد الرافدين هو موجات صغيرة مهاجرة تسللت من الغرب تحمل الى ارض الخصب والنماء(آراميين) يتظاهرون بالسلام مطالبين باللجوء الانساني، ولكنهم كفعل غيرهم ما أن استقروا في ضواحي(بابل) حتى تسوروا جدران قصورها وصاروا الآمرين الناهين فيها، ولم يعترض الملك الآشوري(اشور- بيل كالا ١٠٧٤-

١٠٥٧ق.م)، بل صاهرهم معترفا بزعيمهم(ادد-ابال-ايد ينـام١٠٦٧-١٠٤٦ق.م) ملكا على(بابل)[٢٨].

انه عصر الفوضى[٢٩]. ففي فترة يلف أحداثـها الظـلام تقـع بيـن ١٢٠٠-١٠٠٠ق.م ظهر(اليهود) في ارض(كنعان) لأول مرة يقودهـم خلفاء(موسى) على شكل قبائل متنقلة، وانعكست نتائج الفوضى علـى المجتمع الآشوري، فالرفاه الذي كان يأتيهم عن طريق التجارة وغنـائم الحروب وعوائد الجزية التي يفرضونها علـى المقـهورين لـم تعـد قائمة،ومع انكماش التجارة شحت اهم عناصر النهوض(المعـادن) وزاد الوضع سوءا حيث تضاءل الرخاء وودع الناس حياة الرفاهية وتمنوا لو فتحت عليهم ابواب الحرب ليغيروا واقعهم بالقوة.

ويستجيب بعض الملوك الآشوريين الذين لم يغل الظرف الفوضـوي ايديهم لدعاوي الحرب التي صارت ضرورة اجتماعية، فينطلق(آشور-رش -ايش١١٣٣-١١١٦ق.م) جنوبا لينتزع مدنا آشورية من سـيطرة سلالة(ايسن) ويستمر في اندفاعه ليحطـم قـدرات بعـض الإمـارات السومرية التي امتد بها العمر الى زمانه، وكان متيقظا لحماية حـدوده الشمالية، ولكي لا تشغله كثيرا فقد هاجم أعداءه عبرها، بينمـا أبقـى ابنه(تجلات بلازر الأول) الذي تولى الملك بعده اهتماما شماليا حتمـت بقاءه موجة جديدة من الشعوب المتخلفة تدعى(الفريجييـن). وبعـد أن استقر الشمال، نادى بين ابناء شعبه لفرض التجارة الآشـورية علـى الغرب ولو قسرا، فاحتل الموانئ الشامية التي على المتوسـط والـزم الكيانات الفينيقية بدفع الجزية والدخول في شراكة تجارية مـع بـلاده. ولكي لا يتعرض التجار(الآشوريون) وبضائعهم الى مخاطر الطريـق وما ينجم عن ذلك من تدهور اقتصادي فقد ترك حاميات قويـة علـى امتدادات طرق التجارة الرئيسية تقوم بواجب المرابـاة علـى طـول مسارات تلك الطرق. وعاد خشب الارز وغيره من اخشـاب(لبنـان)

يتدفق مع انحدار مياه نهر(الفرات)، ومعه منتجات المدن الفينيقية اللازمة لرفاه الناس الذين اخذوا بفضل الرخاء العائد يمهدون لنهوض جديد.

ولان زحفا نحو الشمال حققه حكام(بابل) الاجانب اخذ يهدد (الآشوريين) جديا فقد هاجمها ملك آشور "هجمت على كاردونيش واستوليت على قصور بابل العائدة الى مرودخ -نادين- آخي ملك كاردونيش* واشتعلت النيران في قصره ونقلت اثاثه معي"[٣٠].

وفي المجال الدبلوماسي، عاد نشاطهم العلائقي مع الملوك المهيمنين في العالم حيث بادر فرعون(مصر) الى ارسال بعثة الى العاصمة الآشورية تحمل هدايا ثمينة، منها تمساح وهو ما لم تكن عينا الامبراطور الآشوري قد وقعت على مثله من قبل، وقد ساهم هذا التمساح بما ادخل من سرور على قلب الامبراطور في تمتين العلاقات بين الدولتين.

وكما كان تجار(نينوى) يمارسون نشاطا تجاريا واسعا في العهود الخوالي وخاصة في(اسيا الصغرى)، فقد سهلت نجاحات جيوشهم المتعاقبة عودتهم الى مزاولة نشاط مماثل حيث كانوا يحظون باحترام الملوك هناك وهو امر مهم للمضي في تحقيق النهضة الجديدة. وبالفعل فقد اخذ الحديد يتدفق بكثرة وكذلك النحاس والقصدير، وصارت معامل البرونز تنتج اسلحة كثيرة بفضل تيسر مواده الاولية(النحاس والقصدير)، وظهر الملوك بالابهة التي يحبون الظهور بها رفعا لمعنويات الرعية وخاصة المقاتلين، وكان الغذاء الضروري لبناء اجسام المواطنين يتدفق بغزارة كبقية لوازم النهوض الجديد.

---

* بابل

ومع تلك اللوازم كانت تقارير الاستخبارات تــترى علــى العاصمــة الاشورية من كل حـــدب وصـــوب يرســلها وكــلاء الاســتخبارات المزروعون في كل مكان كالعيون اليقظة، وصار الملك في قصره ملما بتفاصيل سير الامور ليس على الحدود فحسب وانما في عواصم الـدول المجاورة والبعيدة. وكان الحصول على الخيول يتم من مصدرين الاول داخلي عن طريق التوالد والثاني عن طريق الاستيراد بينمـــا اعطـــي قطاع صناعة العربات اهتماما ملكيا خاصا فنما بوتائر متصاعدة، امـــا صناعة الاسلحة فقد توسعت كثيرا على حساب الصناعات الاقل اهميــة والتي يتمكن التجار من تعويض نقصها عن طريق الاستيراد.نجم عـــن ذلك الاهتمام الكبير والحماسي بروز جيش قوي، مقاتلوه من أفضـــل المحاربين في العالم. وإزاء كـــل هـــذا وذاك كـــان البنـــاء مســـتمرا والاضافات العمرانية تترى بجهود وخبرات ذاتية.

ومع تولي(ادد- نيراري- الثاني ٩١١-٨٩١ق.م) الملك كان كل شيء يخص الحرب في كل الاتجاهات جاهزا وبافضل حـــال، ولا ينقــص الاستعداد القتالي للدولة الا القائد الهمام والارادة الصلبة، وها هو الملك الجديد هماما ذا ارادة صلبة من حديد، يقود جنودا عبئوا معنويات وكان اصرارهم مفرطا.

وتبدأ المرحلة الجديدة بالهجوم على(بابل) ومنها يعبر الجبال الشــمالية ليدمر تجمعات سكانها تحسبا لخطر مستقبلي على الحدود الشمالية. انــه عهد جديد اطلق عليه اسم(العهد الآشـــوري الحديـــث) وكـــان الملـــك (ادد- نيراري) وخلفاؤه يمثلون ادوات الانتقام الحقيقي مـــن الضعــف والعجز اللذين عاشتهما بلادهم مقهورة محرومة حتى من القدرة علـــى الحلم والتطلع. فهم الآن في نهضتهم الاخيرة بثوبهم الزاهي كما يصفهم

الشاعر(بيرون)* "هبطوا من سفح الجبل كما يهجم الذئاب على قطيع الخراف كانت اسلحتهم تومض بلون ارجواني وذهبي" (٣١).

وكان الدين ثاني ثالوث القوة المقدس(الجيش والدين والتجارة) وربما تبادل الجيش والدين المواقع احيانا، لذا فقد مزج ملوكهم في هذا العصر بين الدين والجيش وصار لحروبهم طابع القداسة، فهم يقاتلون في سبيل(آشور) الههم القومي، وكان شعار هذا الاله(القرص المجنح المنحوت على صورة الاله آشور) يحمل خلال الحملات على العربة الملكية، وبعد الانتصار يوضع كنصب يخلد ذلك الانتصار في العواصم والمدن المهمة التي تؤول عائديتها بعد ذلك اليهم بفضل انتصاراتهم، ومن صور القداسة التي كرسوا تقاليدها قتاليا، قيام الكهنة بالقيادة الفعلية للقطعات الكبرى ميدانيا. وكان الملك يقدم(تقارير الحركات) مكتوبة على الطين المشوي الى تمثال الاله(أشور) شارحا فيها كل تفاصيل العمليات الحربية التي اضطلع بها الملك في سبيل هذا الاله، وهو الامر الذي نفعنا كثيرا حيث اطلعنا اسوة بالاله(آشور) على تلك التفاصيل(٣٢)، وتعلمت منهم الجيوش المعاصرة كتابة تقارير(الحركات) عبر سير المعارك. لقد كانت ميزة هؤلاء الملوك انهم "لم يتعلموا الموت في فراشهم"(٣٣).

ولتسهيل دراسة العصر الآشوري الحديث فقد اعتاد المؤرخون تقسيمه الى فترتين تاريخيتين اعتمادا على طابع التميز لكل منهما وكما ياتي:

-الامبراطورية الآشورية الحديثة الأولى(٩١١- ٧٤٤ق.م) دشنها الملك(ادد- نيراري الثاني) وتولى العرش خلالها تسعة ملوك.

---

* اللورد جورج غوردون بيرون:(١٧٨٨-١٨٢٤م) شاعر انكليزي ولد في(لندن)، شغف بالشرق. تطوع للقتال في(اليونان) خلال حروبها من اجل الاستقلال ومات فيها فحنط جسده وارسل الى مسقط رأسه حيث دفن هناك.

الامبراطورية الآشورية الحديثة الثانية (٧٤٤-٦١٢ ق.م) اول ملوكها (تجلات بلازر الثالث) واستمرت حتى سقوط الدولة على ايدي التحالف الميدي الكلداني، كانت الفترة الأكبر هي الفترة السرجونية التي حكم خلالها (سرجون الثاني) واولاده.

ان حقبة هاتين الامبراطوريتين هي مادة بحثنا فيما يخص التآمر اليهودي على (الاشوريين) فهي تعاصر ظهور الكيان السياسي اليهودي في(فلسطين) الذي ظهر مع بداية الألف الاول ق.م حيث بدأ السجل الحربي (الاشوري) في (فلسطين) استجابة للعصيان اليهودي وردا على مؤامراته، منذ العمليات الاولى للملك (شلمنصر الثالث٨٨٣-٨٥٩ ق.م) الذي سجل في تقاريره انتصاره الكبير على (اخاب بن عمري) الملك اليهودي الذي حكم بين (٨٧٣-٨٥٣ ق.م) وهو الامر الذي تتجاهله اسفار العهد القديم.

لقد كانت حكومة الدولة الاشورية في هذه الحقبة وتحديدا في وقت متأخر منها (فترة حكم اشور بانيبال)متميزةً بكثير من الاعمال، فقد حققت نجاحا في مجال ادارة دولة لم يكن تاريخ البشرية قد شهد ما يماثلها سعة حتى ذلك الوقت. وبرغم نسيجها الفسيفسائي المتباين العناصر (البلاد الآشورية، بابل،ارمينيا، ميديا، بلاد الشام من دول سوريا ارامية وفينيقية ويهودية اضافة الى عيلام ومصر) فان ادارتها كانت موفقة حيث انها وحسب وصف (ديورانت) " كانت بلا جدال اوسع نظام شهده عالم البحر المتوسط حتى ذلك العهد وكانت هذه الامبراطورية تتمتع بقسط من الحرية، فقد احتفظت مدنها الكبرى بحظ موفور من الحكم الذاتي المحلي، كما احتفظت كل امة فيها بدينها وقوانينها وحاكمها"[٣٤].

المبحث الثالث

الكلدانيون في بابل

ان الاحترام الكبير الذي حظيت به (بابل) من الملوك (الاشوريين) والذي يعزى الى مكانتها الحضارية المتميزة اضافة الى الهالة القدسية التي تختص بها في نظر شعوب كثيرة مما جعل حرمتها متحققة ومصونة، كل هذا الاحترام والتقديس الذي استحقته، لم يمنع (سنحاريب) من التلاعب ببعض النصوص الدينية ليمنح نفسه فرصة للنيل من شواهدها الحضارية، وكان هذا العمل السيئ قد ولد مشاعر مشحونة بالنفور ضد (الآشوريين) في المدينة التي تمتلئ نفوس سكانها بالانفة والكبرياء، وربما كان هذا سببا رئيسيا في ترجيح كفة (الكلدانيين) في نزاعهم مع (الآشوريين) للسيطرة على (بابل) بعد ان كسبوا سكانها الى صفهم حيث شرعوا بانشاء (سلالة بابل الحادية عشرة) والتي عمرت من العام(٦٢٦- ٥٣٩ ق. م.) فمن هؤلاء (الكلدانيون)؟

انهم قوم جزريون هاجروا من شبه جزيرة العرب واستقروا في جنوب بلاد (الرافدين) واسسوا كيانا سياسا ذا طابع قبلي[٣٥]. ولقد استمروا ينمون قدراتهم الى ان تمكنوا مع حلول عام ١٦٠٠ ق. م من تهديد الوجود الاجنبي (الكاشي) في (بابل) التي كان يحكمها ملكهم (اكوم كاكرايم ١٦٠٢-١٥٨٥ ق. م). ولكن استعداداتهم تلاشت وفشلوا وذهبت ريحهم الى حين عندما اندحر ملكهم (ايا – كميل) امام معاصره الملك الكاشي (اولا مبور بتشي) بعد العام ١٥٠٠ ق. م حيث خضع لحكمه كامل التراب السومري[٣٦].

يرجع البعض اصل (الكلدانيين) الى الغرب باعتدادهم ارامي الاصل، بينما العثور على الواح كلدانية فيها حروف عربية جنوبية قديمة[٣٧] شكل دليلا على صواب ارجاع اصلهم الى الجزيرة العربية.

ان ما أوردناه آنفا هو ما نقرر عليه بخصوص اصل (الكلدانيين)، ولن نهمل الاراء المغرضة ذات القصد المريب بعدم التصدي لها والرد عليها كذلك الذي يرى ان (الكلدانيين) من سكان اهوار ومستنقعات (العراق) اصلا[٣٨] . فهذا امر منقوص عن قصد كالذي يعتمد بتر نص الآية الكريمة (فويل للمصلين) ويغفل تكملتها القائلة (الذين هم عن صلاتهم غافلون)" ويترك الباب مفتوحا لاجتهادات لامبرر لها.

ان التغاضي عن طرح كهذا يساهم في سلب (الكلدانيين) ميزة اصلهم الجزري ويحشرهم ضمن الارومة السومرية مجهولة الاصل بناء على أساس انهم من سكان اهوار جنوب (العراق)اصلا، في حين ينبغي بذل جهد يفضي الى معرفة مساكنهم التي كانوا فيها قبل قدومهم الى تلك الاهوار وهو الأمر الذي لايعني تلك الفئة ذات القصد السيئ.

اما اولئك الذي يدعون بآراميتهم، فلا شك ان الامر قد اختلط عليهم جراء هجرات الاراميين الكثيرة من بلاد الشام الى جنوب بلاد (الرافدين) والتي يعود تاريخها المعتمد الى العام ١٢٥٠ ق.م . وان سكنهم في ذات مناطق استقرار (الكلدانيين) وربما كان اندماجهم منهم مكونين كيانا واحدا ذا هوية كلدانية سائدة (ربما هو بيت – ياكين) وراء هذا الخلط الذي قد يفكه التحديد الزمني الدقيق لوجود كل منهما في تلك المنطقة.

ولقرون طويلة سبب بناء القوة الكلدانية الصامت رعبا وفزعا في (بابل)، فسكان (بابل) من اموريين ووافدين وبقايا شعوب قديمة شتى كانوا ذوي اعتزاز كبير بواقع (بابل) الحضاري اكسبهم مواطنة صادقة برغم غياب السيادة الوطنية التي صادرها الغزاة (الكاشيون) الاجانب لفترة طويلة من الزمن. ويرجع خوف سكان (بابل) بالاساس من بداوة (الكلدانيين) وعدم تحضرهم مما لايضمن

معه احترامهم لشواهد الحضارة والثقافة البابليـــة الســامقة ومعاملــة سكانها بصيغ متحضرة، وشارك (الاشوريون) سكان (بـــابل) تلــك المشاعر وعملوا على تغذيتها وتكريسها باستمرار على اساس من قاعدة (العدو المشترك)، فالاشوريون الذين يمنون النفس بحكم هادئ لبــابل، يتوجسون خيفة من طموحات (ملوك البحرية) الكلدانيين الذين اذا مــا قدر لهم وقفزوا الى داخل اسوار الحصن البابلي، فان اخراجهم منـــها امر عسير غير مضمون التحقق .وكان للآشوريين بعض ما ارادوا، فقد شجعوا العداء للكلدانيين في (بابل) وكسبوا بعضـــا مــن ود ســكانها. وبرغم كل جهودهم الحثيثة تلك فان كثيرا من حالات الاختراق الكلدانية لبابل نجحت ولو لفترات وجيزة وان محاولة (اوكن- زيـــر) اشــهر زعماء قبيلة (بيت – اموكا) الكلدانية بلغت في العام ٧٣٤ ق. م حــد وضع التاج فوق هامته في (بابل) التي نجح فــي كســب ود الغالبيــة العظمى من سكانها.

ولما كان (الآشوريون) يسعون وراء التوسع والغنائم وفرض الجزية وجمع مستحقاتها وهي امور غير متوفرة في (بابل)، فانهم مشــغولون باستمرار بحروب صعبة قد تنسيهم الهم البابلي، وطالما اضطروا الــى ترقيق(*) قطعاتهم في تلك الديار حيث اهتبل الكلدانيون فرصا عديدة قبل وبعد الحادث المشار اليه آنفا فمثلا خلال انشغال (شلمنصر الثالث) في قمع نيات التحالف الشامي في معركة (القرقار الاولى) عام ٨٥٣ ق. م واستغلالا لهذه الظروف فقد امتنع أحد رؤساء الكلدانييــن عــن دفــع الجزية مما جرأه على التمرد والعصيان بوجه السلطة الاشورية. ولقـد قرر (شلمنصر الثاني) التفرغ لهم عام ٨٥٠ ق. م حيث هاجمهم حتــى

---

* الترقيق: عملية سحب القطعات التي هي بتماس مع العدو من اماكنها الدفاعية علــى شكل مجموعات صغيرة أو وحدات فرعية(٤٠).

وصل مايسميه في حولياته (البحر المر) mar maratu[٣٩]. وتكرر الامو بجدية اكثر عندما هاجمت الجيوش الآشورية الكيان اليهودي الشمالي في عهد (شلمنصر الخامس) وما تمخض عنه هجومهم من ازالة ذلك الكيان وما رافق واعقب تلك العمليات من ارتباك حصل خلاله تغيير سياسي عندما قتل الملك وتبوأ العرش (سرجون الثاني) كل تلك الظروف، سهلت على (مردوخ – ابلا – ادينا) مهمة قيادة جحافل مشتركة (كلدانية – ارامية) معززة بقطعات أجنبية (عيلامية) وتمكنه من اختراق دفاعات (بابل) • واستثمارا لطول فترة الارتباك في العاصمة الآشورية وتشتت جيوشها على مساحات واسعة فقد رصن القائد الكلداني دفاعاته في (بابل) • بينما كان الملك الآشوري الجديد (سرجون الثاني) مضطرا للتريث والسكوت على مضض لحين سنوح الفرصة التي لم تحن الاعقب عقد من الزمان عندما هاجم (بابل) وانهزم امامه (مردوخ –ابلا – ادينا) نحو الجنوب مقرا بهزيمته ، ولكن (سرجون) تعقل ومنع قواته عن متابعته خوفا من الاضطرار الى القتال في مسرح اعد اعدادا مسبقا بشكل كفوء من قبل عدوه .

ويمارس (مردوخ – ابلا – ادينا) مهمة مراقبة أوضاع (الاشوريين) وترصد (بابل) من ناحية واستجداء العون الاجنبي من ناحية ثانية حيث يضع الملك العيلامي قوات ضخمة تحت تصرفه ليغزو بها وبجيشه مدينة (بابل) مجددا عام ٧٠٣ ق. م، ويوسع من نشاطه الخياني عندما يراسل اليهود ويرسل وفدا الى (حزقيا) ملك (يهوذا). وقد ابدل كاتبو اسفار العهد القديم اسمه الى (مردوخ بلودان).

ولقد كان الوفد الكلداني الى (حزقيا) يحمل هدايا وتمنيات القائد الكلداني الى الملك اليهودي بالشفاء من مرضه . ولسرور (حزقيا) ولكي يؤكد على رغبته الشديدة في الانضمام للحلف العيلامي الكلداني واظهارا لجدارته فانه يأمر باطلاع الوفد الزائر على ما في خزائنه من

ذهب وفضة ومدخرات ثمينة واسلحة. ولم يكن الرجل الاكثر تعقلا وحكمة (اشعيا) راضيا عن هذا التصرف تحسبا للغضب الآشوري وما سيعقبه من رد فعل (الآشوريين) وهو امر لا طاقة لليهود بتحمله. ففي سفر الملك الثاني كتب محررو هذا السفر" في ذلك الزمان ارسل بردوخ بلادان بن بلادان ملك بابل رسائل وهدية الى حزقيا لانه سمع ان حزقيا قد مرض. فسمع لهم حزقيا واراهم كل بيت ذخائره والفضة والذهب والاطياب والزيت الطيب وكل بيت اسلحته وكل ما وجد في خزائنه. لم يكن شيء لم يرهم اياه حزقيا في بيته وفي كل سلطنته. فجاء اشعيا النبي الى الملك حزقيا وقال له ماذا قال هؤلا الرجال ومن اين جاءوا اليك. فقال حزقيا جاءوا من ارض بعيدة من بابل. فقال ماذا رأوا في بيتك قال حزقيا رأوا كل ما في بيتي. ليس في خزائني شيء لم ارهم اياه".

ويكرر محررو سفر (اشعيا) نفس النص اعلاه في سفرهم (الاصحاح: ٣٩) وذلك لاهمية هذا الموضوع في نظرهم.

واستمر (مردوخ – ابلا – ادينا) في (بابل) هذه المرة اثنتي عشرة سنة [٤١] ثم خرج منها مدحورا ومعه حلفاؤه الاجانب من (عيلامين) تعقبهم جحافل الملك الآشوري حيثما حلوا ورحلوا بغية الظفر بهم، بينما جرى تعيين حاكم محلي على (بابل) كان قد نشأ وترعرع في كنف الآشوريين وهو المدعو (بيل– ابني) وبرغم الثقة الكبيرة التي اولاها(سنحاريب) لهذا الحاكم ذي الاصل البابلي، فقد انساق وراء رغبات (مردوخ – ابلا – ادينا) ورفع راية التمرد والعصيان بعد ثلاث سنوات من تعيينه مما اضطر الملك الآشوري لمهاجمته وخلعه وتعيين احد امراء العائلة الآشورية المالكة المدعو (آشور– نادين –شومي) ابن الملك (ستحاريب) حاكما على (بابل) في وقت رأى الملك ان يهاجم (الكلدانيين) في عقر دارهم حيث استخدم

صناع سفن وبحارة من المدن الفينيقية وهيأ حملة ضخمة على جنوب بلاد الرافدين لتأديب الكلدانيين وتابعيهم الاراميين ومسانديهم الاجانب (العيلاميين) وشرع بالحركة فعلا عام ٦٩٤ ق. م" الا ان اعداءه عرفوا كيف يفلتون من قبضته حيث بدأت الحملة في معارك قرب (كيش) ومنها الى (كوزوممانو) التي لجأ اليها (مردوخ - ابلا - ادينا)[٤٢]، وتستمر امارة بيت- ياكين تحافظ على كيانها. ماذا يثبت هذا المسلسل المناوراتي السياسي الحربي الذي كان بطله مردوخ - ابلا - ادينا؟ انه يثبت بكل تأكيد ان هذا الرجل سياسي ماهر اكثر مما هو محارب مقتدر"[٤٣].

ولأسباب عدها (سنحاريب) موجبة للغضب في مقدمتها استيلاء احد زعماء (الكلدانيين) هو (مو- شوزيب) على (بابل) ومكوثه فيها اربع سنوات[٤٤]، هاجم (بابل) عام ٦٨٩ق. م باسلوب متهور ووحشي نجم عنه نفور اهالي المدينة، ولم يؤيد هذا الاجراء حتى الموالين للدولة الآشورية في (بابل).

لقد حفز هذا العمل الانتقامي المتسرع سكان (بابل) على التفكير الجدي بالانفصال عن الحكومة المركزية مهما كان الثمن. واحس (الكلدانيون) بالاستعداد الشعبي البابلي للقبول بهم، حكاما على (بابل)، وهي الفرصة التي كانوا ينتظرون سنوحها على احر من الجمر، ولكنهم كانوا واهمين وكانت حساباتهم غير دقيقة، اذ ان (شمس- شم - اوكن) الامير الآشوري الذي عين حاكما على (بابل)، كان مستاء من ارتقاء شقيقه (آشور بانيبال) سدة الحكم، فاخذ يعدد مثالبه ويحصي عليه هفواته،فرأى البابليون ان هذا الرجل افضل (الآشوريين)حيث التفوا حوله، وشعر بزهو قوته، وضمانا لنجاح خططه الانفصالية عن(نينوى) فقد طلب معونات اجنبية كما فعل(مردوخ-ابلا- ادينا)[٤٥].
ولم تنفع الانذارات الواردة من(نينوى)في انهاء تمرد الشقيق العاق الذي يشجعه اهالي(بابل) فاضطر الملك الى تجهيز حملة قوية يقودها

شخصيا اقتحم بها(بابل) واشعل النار في قصر اخيه الذي تبددت احـلام البابليين بتبدد رماد جثته عام ٦٤٨ق.م.

وعندما عين(قندلانو) حاكما للمدينة الباحثة عن المتاعب والمثـيرة للمشاكل فأن اخلاصه لسيده كان محسوما بوضوح منـذ تعيينـه عـام ٦٤٨ق.م وحتى وفاة(آشور بانيبال) عام ٦٢٧ق.م حيث ارتمـى فـي احضان المتذمرين من أهالي(بابل) وصار قائدا لحركة عصيان جديـدة هناك. الا أن قوة جديدة كانت وريثة لاحلام(مـردوخ- ابـلا- ادينـا) برزت على المسرح مدعومة بتحالف اجنبي قوي(الميديين)، يشـجعهم حاكم اور شليم(يوشع) تمكنـوا مـن دخـول(بـابل) بقيـادة الزعيـم الكلداني(نبوبو لاصر). وفي طريقه الى(بابل) كان قد نجـح بتصفيـة الجيـوب الاشـورية، واستسـلمت لـه الحاميـات التـي انـاط بها(الآشوريون)مهمة حفظ الأمن هناك، ومن استطاع من جنود تلـك الحاميات الفرار فقد ساهم بفراره تسهيل عملية تقدم(الكلدانيين) صـوب هدفهم الخطير. وعندما اصر قائد حامية(نفر) على الصمود، حوصـر خمسة اشهر ارسل بعدها الملك الآشوري نجدة قوية لفك الحصار عنه، بيد أن(نبوبولاصر) نجح في جرهـا عندمـا كـان يقـاتل تراجعيـا الى(الوركاء) التي ما كان على القوة أن تتوغل فيها كونها ارض قتـل منتخبة بعناية، فهي قاعدة الكلدانيين ومركزهم القوي في ذلك الوقـت. مما جعل القوة الآشورية سيئة الطالع والتخطيط بعضا مـن ذكريـات ماض مفعم شجاعة.

وبسبب اضطراب الأحوال في(بـابل) ولارتبـاك الأمـور فـي العاصمة المركزية في نهاية حكم(آشور بانيبال) وأن خليفتـه(أشـور- أطل- ايلاني)لم يستمر بالحكم اكـثر مـن سـنتين ونصـف(٦٢٧-٦٢٤ق.م) ملك بعده(سين-شار- اشكن)، فقد اهملت السلطة المركزيـة تعيين حاكم لبابل برغم أن(قندلانو) المتمرد اختفى منـذ بدايـة العـام ٦٢٦ق.م،ولم يكن الحل السياسي للقضية البابلية ممكنا لذا فقـد أرسـل

الملك الآشوري جيشا لمحاصرتها ومنعها من استقبال(نبوبو لاصـــر). ولكن البابليين رفضوا الحصار فخرجوا يستقبلون الجيـــش الآشـوري خارج الأسوار قبل أن يطبق عليهم ويحاصرهم. وتغلبوا على الجيـــش الذي انهكه سوء أوضاع الدولة عموما وفقدان شجعانه في معارك(آشور بانيبال) التي لا مبرر للكثير منها، فترك الجيش اثقاله[٤٦] وانهزم يحلـم بالنجاة خلافا لما تربى عليه أولئك الذين بنوا بجماجمهم ودمائهم صـوح العظمة الآشوري.

وفي(سبار) كان(نبوبو لاصر)يراقب سير الأحداث وما يحوي مـن تغيير سريع في القيادة العليا للدولة(ثلاثة ملوك خلال سنتين) إضافة الى هزائم جيش ما كان ليبدل النصر الا بالموت.فكانت الفرصة قد حـانت لان يتوج نفسه ملكا على(بابل)، إذ حقق طموحـه قبـل أفـول العـام ٦٢٦ق.م، حيث اتخذ الصراع منذ ذلك التاريخ شكلا آخـر لا يختلـف عن أي صراع بين ندين متكافئين وليس كما كان سابقا، بين الحكومـة المركزية والمتمردين.

ولكي لا نستسلم للاسترسال في سرد الأحداث كونها ستناقش فـي مواضعها حسب منهج البحث والذي لا نرغب في الخروج عن مساره، فلا بد من التركيز على أهمية مكانة(بابل) التي كان لنهوضها وقيادتـها للشرق أسس حيث عرفنا أن الآشوريين كانوا يعاملونها باحترام كبـير، ولكنها كانت نزاعة للتحرر والاستقلال، الى أن نفذ صبر(نينوى) بسبب ما عانى ملوكها من متاعب سببتها لهم(بابل) وكان آخرها ثورة محدودة بقيادة ابن(مردوخ- أبـــلا- أدينـا) والتـي كـان هدفـها الابتدائـي احتلال(أور)[٤٧] لتنتهي باحتلال(بابل) حيث عمد الآشوريون الى تنفيـذ أعمال انتقامية في(بابل) لم تسلم منها بعض الصروح العمرانية.

وكان(سنحاريب) من بين الملـوك الآشـوريين الذيـن تعـاملوا مع(بابل) بقسوة مفرطة مما اوحى الى إبنه(اسر حدون) أن لعنة هـــذه

المدينة حلت بأبيه عندما هجم عليه ابناؤه وهبروه بسيوفهم. فعوض(بابل)حنانا وتقديرا لم يغفل اهلها عن شكره ومهادنته لقاء ذلك. وحاول(آشور بانيبال) السير على هذا النهج الا أن كثرة المؤامرات التي حيكت ضده في(بابل) الى الحد الذي كان فيه شقيق الملك أحد حاكتها، ولما رآه من غزل متبادل مع الاعداء الأجانب(الميديين واليهود)، كل هذا جعله يعيد النظر بشروط تبادل الاحترام بينه وبين(بابل) التي ظلت وهي في أكثر ظروف التردي والاهمال قبلة للانظار يعلق عليها الملوك الكبار آمالا بكبر هممهم أما هي فقد كانت بانتظار القادم من الأيام وفي رحمه قائد يحقق طموحات أبنائها في التسيد والعلو، وكان ذلك واقعا حيث ولد محارب يقود جيشا يخرج من المعارك الكبار ظافرا وبخسائر قليلة، ولكنه يتطلع الى بناء صروح عمرانية لم يسبقه الى مثلها أحد فهو يبحث عن سمعة القائد الحضاري اكثر مما يبحث عن سمعة القائد المنتصر برغم أنه لا يعرف في المعارك غير الانتصارات.وكانت جنائنه المعلقة واحدة من سبع عجائب بهرت العقول، ومازالت تمثل أحلى خيال مشاع للبشرية من غير الحاقدين عليه.



المبحث الرابع

الكيان السياسي اليهودي

بين مراكز القوى الكبيرة(الآشوريين والمصريين) و(الكلدانيين والمصريين)، يقف الكيان اليهودي الموحد أو أجزاءه بعد الانقسام، كالقزم الذي يكتفي بتلقي ضربات الأقوياء.فمنذ البداية الحقيقية له على يد ملكه الثاني(دواد)، كان هذا الكيان يقف بركاكة وليدة ضعف وربيبته، محاولا العثور على فرصة ملائمة يقوم خلالها بدور مؤثر. وقد توسل هذا الكيان بالكتمان وامور أخرى طمعا في بلوغ المرامي.

ولقد مارس الكيانان اللذان تمخض عنهما انقسام الكيان(الداودي) ضروبا من التآمر الطوعي أو الناجم عن دفع وتحريض مصري مصلحي ضد الآشوريين والبابليين. فما هي بدايات هذا الكيان وما ظروف نشوئه وما هي ركائزه من عناصر القوة التي تجعله سادرا في هذا النهج؟

فاليهود في(فلسطين) عنصر طارئ حديث السكن، إن عائلة(يعقوب) التي لا يتجاوز تعدادها(٧٠) نفرا والتي تحدرت من النبي(ابراهيم) قبل بضعة عقود، هاجرت الى مصر عام ١٦٥٠ ق.م[٤٨] من غير أن تترك أثرا ذا اهمية في منطقة سكناها في(فلسطين) وبقوا هناك بضعة قرون حيث غادروها بقيادة النبي(موسى) حوالي العام ١٢٣٠ق.م وقد صار عددهم نصف مليون نسمة[٤٩]، بالوقت الذي يبالغ فيه محورو اسفار العهد القديم عندما يدعون أن عدد الرجال منهم كان ست مئة الف نسمة[٥٠]وسيكون الرقم مذهلا لو أضافوا اليه عدد الأولاد والنساء.

والمسلم به أن الخارجين من(مصر) عاشوا في صحراء(سيناء) ازيد من جيل من الزمن في عزلة عن العالم والمدنية يأكلون صنفا واحدا وليس معهم من الالات ولا من مستلزمات الافعال الحياتية اليومية شيء يذكر. وكانوا يرتدون جلودا حيوانية بعد أن اخلولقت ثيابهم. وعندما بلغ

صغارهم سن الرشد واستلم جيلهم قيادة هذه المجاميع فقد كانت قيادة متخلفة ليس لها حظ ولو بسيط من الثقافة كونهم ولدوا في عرض الصحراء ونشأوا فيها لا يعرفون غير الرمال والبهائم والمشاكل الاجتماعية. ولا شك أن هذا هو بعض من طبيعتهم اللاحقة حيث سوء الاخلاق وسرعة تفشي الاشاعات والبدع مما كانوا قد اعتادوا عليه في حياتهم الصحراوية الامر الذي كان يملأ قلب(موسى) غيظا وغضبا. هؤلاء هم الذين قدر لهم دخول فلسطين(ارض كنعان) ذات الرفاهية والتمدن.

وعقب مشاكل جمة خلقوها للسكان الاصليين في(فلسطين) وشرق(الاردن) حيث اضطروا الى تغيير مسارهم بعد رفض اجتيازهم الاراضي الكنعانية، استقروا هناك ولم تختلف حياتهم كثيرا عما كانوا يعيشون في الصحراء. وقرابة قرنين حكمهم قضاة ينقصهم الاقتدار على قيادة هذه الجماهير الجائعة المتطلعة الى الثروة والجاه والسلطة، قيادة ناجحة وكفوءة. ولم يكن القضاة ذوو السلطة الدينية المحدودة قادرين على تنفيذ تلك التطلعات لذا فقد طلب(اليهود) من آخر قضاتهم(صموئيل) أن ينصب عليهم ملكا يحقق لهم طموحاتهم وتطلعاتهم.

لقد اختار(صموئيل) من بينهم(شاوول بن تيس)لمنصب الملك، وقبل هذا الأخير المنصب برغم عدم تسير مستلزمات تأسيس دولة كبقية الدول .وتمهيدا لتنفيذ خطط المستقبل فقد عمد (صموئيل) صاحب النفوذ الكبير على الملك الذي ليس لديه من وسائل القيادة والادارة شيء يذكر الى عقد صلح مع الأموريين من اجل التفرغ لقتال الفلسطينيين. وكانت عناصر الصراع الداخلي قد تفجرت فانشقت عن الجمع عصبة من الرجال يقودها (داود) المرشح الأقوى لخلافة (شاوول) ولجأت العصبة الى الطرف الذي عقد الجمع العزم على محاربته، الى(الفلسطينيين)،فمكث سنة ونصف[51] عند(اخيش بن معوك)

ملك(جت). ولقد وجد هذا الملك في لجوء(داود) وعصبته فرصة ثمينة، فعرض عليهم القيام بغارات يومية على مناطق سكن اعدائه.

وعندما حانت ساعة الحرب التي خطط لها(اليهود) ضد(الفلسطينيين) طمعا في الغنائم، فقد طلب زعماء الفلسطينيين من(اخيش) ابعاد(داود) ورجاله عن خطوط التماس برغم الاستعداد الذي ابداه(داود) في القتال مع(الفلسطينيين) ضد بني جلدته من اليهود، وكان لهم ما ارادوا فاعيد(داود) ورجاله الى الخطوط الخلفية، حيث تفرغ ليدرس ما يدور حوله بدقة، وعندما القى القبض على عبد ابق من أسياده العمالقة وقام باستنطاقه، توصل الى معرفة نقاط ضعف العمالقة كما مر بنا في الفصل الأول،وسارع لانتهاز الفرصة والاغارة على العمالقة في وقت كان(الفلسطينيون) مشغولين بتنظيم دفاعاتهم حيث حققت غاراته المباغتة نجاحا كبيرا من خلال حصوله على غنائم تتمثل بأموال طائلة ساقها مع بعض رجاله ليقدموها هدايا الى رؤساء بني(اسرائيل) يقوي بها مركزه عندهم املا في كسبهم الى صفه في صراعه مع(شاوول)أو من سيخلفه. وتحقق هذا الامر فعلا حيث أن هزيمة(شاوول) في معركة(الجلبوع)التي قتل فيها ابناؤه حملته على الانتحار، فما كان من شيوخ(اليهود) الذين بلغتهم الهدايا الا أن نادوا(بداود) ملكا عليهم .

ولم يقو(داود) على تحقيق أي من طموحات(اليهود) عندما اعتلى العرش عام ١٠١٠ق.م، ومكث في عاصمته(حبرون) الخليل الحالية يبذل جهودا طيلة خمس عشرة سنة بهدف التوفيق بين زعماء القبائل اليهودية الذين يباعد بينهم الصراع الداخلي المرير خصوصا بين قبيلة(يهوذا) التي تضطلع باعباء القيادة السياسية كون الملك أحد افرادها، وقبيلة(بنيامين) المعارضة والتي حظيت بتعاطف اغلب القبائل الاخرى. ولم يفلح في تحقيق مصالحه(ظاهرية) الا في العام ٩٩٧ق.م، مكنته من

١٠١٠ ق.م

توجيه جهوده نحو ترسيخ أسس ودعائم مؤسسات الدولة والشروع بالتوسع على حساب الآخرين.

إن اهم العوامل التي ساعدت(داود)على ترسيخ دعائم دولته والشووع بتوسيعها وتقويتها هو غياب المنافس القوي، فالفلسطينيون استنفدوا اغلب قوتهم في صراعات جانبية، وانحاز(الكنعانيون) الى التجارة. وقد أسندت اليهم الدولة اليهودية مهمة تامين مستلزمات بناء الدولة ففكروا بالارباح والمكاسب المالية اكثر مما فكروا بعواقب الامور. ولم يكن للاراميين الذين تنتشر ممالكهم في الساحة السورية أي اهتمام بمجريات احداث الساحة الفلسطينية. وكانت الممالك الاخرى اضعف من أن تتورط في منازعات تلحق بها خسائر لامبرر لها ولا طائل من ورائها كالعمونيين والآدوميين وغيرهم برغم ما جره عليهم ذلك الموقف السلبي لاحقا. وفي(مصر) التي تجزأت على عهد السلالة الحادية والعشرين(١٠٦٠-٩٥٠ق.م) الى دولتين متنافستين، كان الشأن الداخلي اجدر بالاستحواذ على اهتماميهما من الامور الخارجية.بالوقت الذي ابتلي فيه(الآشوريون) بتولى سلسلة من الملوك الضعاف والفاشلين قيادتهم، إذ كان ظهور الملك القوي(ادد نيراري الثاني) متأخرا عن هذه الاحداث حيث اعتلى العرش عام ٩١١ق.م عندما كان الكيان اليهودي قد قطع شوطا بعيدا في القوة ثم انقسم الى دولتين بينهما شحناء.

ولقد كانت انطلاقة(داود) خارج حدوده قد بدأت مع الجيران الاكثر ضعفا عندما احتل الهضبة التي بنى عليها(الموابيون) صرحهم السياسي ثم اتجه جنوبا ليبتلع ارض(العموتيين) الذين لم يقصروا في الدفاع عن سيادتهم واموالهم،وجاء دور الكنعانيين عندما تطلع الى المدن الفلسطينية حيث اختار منها(حبرون) عاصمة له فاحتلها عنوة. وبعد أن تفحص(داود) الاسوار وطبيعة تحصينات(اور شليم) وجد أنها الافضل لو تمكن من احتلالها كعاصمة له مما دفعه الى التصادم مع حاميتها القوية

المتهيئة لقبول أسوأ الاحتمالات كالحصار طويل الامد. وكان الحصن الذي تقع المدينة وسطه يتمتع بآلية متطورة لايصال الماء الى الحصن حتى في أشد وأطول الحصارات.وكانت تلك المزية سبب مصيبتهم، فهي التي جذبت(داود) نحوهم طمعا في حصن متقن كهذا خصوصا وأن اختراقه صار سهلا بعد أن عرف(داود) اسرار الانفاق التي توصل الماء للحصن فظهر جنوده فجأة داخل الحصن متسللين عبر تلك الانفاق وتحول اسم الحصن من(حصن اليبوسيين) الى(حصن داود) الذي جعله عاصمة لمملكته تحت اسم(مدينة داود)[٥٢].

ولم يشفع للفلسطينيين انهم أجاروا (داود) لمدة سنة ونصف، حيث أن دورهم حان في مسلسل معارك الدولة اليهودية لأغراض التوسع والغنائم، فراحوا يخسرون مدنهم وثرواتهم جراء التراجع المستمر الذي كان ضعفهم المكتسب سببا رئيسا فيه. ولم يبق امام(داود) غير الشمال الغني بالمعادن والاخشاب والصناعات المهمة.

لقد كان(البقاع)أول هدف لداود خارج الحدود المعروفة لفلسطين حيث استهدف فيه مملكة(صوبة) الآرامية التي مركزها(مجدل عنجر)[٥٣] الحالية، وكانت تحوي مناجم للنحاس اكسبها اسمها[*] وقد اخفى سفر(صموئيل الثاني) الاسباب التي اجتيحت لأجلها(صوبة) وهو يسهب في كيفية احتلالها وكيف أن(داود) دحر ملك(دمشق) الذي جاء ينجد بني جلدته، الا أن واضع هذا السفر لا يخفي فرحه بما عاد به(داود) من غنائم كثيرة من بينها(نحاس كثير جدا) عدا عن غنائم ذهبية وغيرها ناهيك عن تحقيق انتقام جراء تدخل هذه المنطقة في حرب له في

---

[*] صوبة: من صهوبة وهي بالعربية الشعر الذي فيه حمرة أو شقرة. والصهباء تعني الخمرة سميت بذلك للونها. وقد اكسب لون النحاس هذه المملكة اسمها.ذكرت في الكتابات المسمارية لبلاد الرافدين باسم(صوبابت).وكان ملكها قد ساهم في نجدة العمونيين ضد(داود) مما جعله ودولته الغنية هدفا مهما لداود.

شرق(الأردن). لقد عاد(داود) وجيشه الى عاصمته بعد أن نفذ إجراءين إداريين الأول هو ضم المدن المحتلة الى دولته وعين عليها حكاما من قبله، والثاني هو اعتبار اهالي المناطق المحتلة عبيدا له كما استعبد سكان المناطق المحتلة الأخرى، الآرامية والموابية وهو اجراء لم يكن أحد من الملوك قد فعل مثله من قبل أومن بعد.

وفي(مواب) طلب من الموابيين الاضطجاع واخذ يقيس صفوف المضطجعين حيث كان يقتل طول حبلين منهم ويستحيي طول حبل آخر فيكونوا عبيدا له وصادر نصف مساحة الجبل الذي في ارضهم.

وانتقاما من ملك(دمشق) فقد اجتاح(داود) مملكته واحتلها كما احتل(حماة). وكان القواد اليهود يسلبون كل مقومات القوة والنهوض المستقبلي من المدن المحتلة وهو ما جعل سكانها ينظرون الى هؤلاء اليهود بعين الحقد والكراهية الشديدة.

وما أن حل العام ٩٤١ق.م حتى كانت مملكة(داود) قد احتلت مساحات شاسعة في عموم بلاد الشام[٥٤]، ولكنه لم يجرب حظه مع(صور) التي تتحصن فوق صخرة منيعة في البحر فأثر مد يد الصداقة نحو ملكها(حيرام ٩٨١- ٩٤٧ق.م) وكانت ثمرة تلك الصداقة المصلحية خبرات واخشابا ومواد بناء وزينة عمر بها(داود) قصره الملكي في (اور شليم)[٥٥].

لقد كانت الخصال والسجايا التي تولدت عند(اليهود) خلال تيههم في سيناء والتي تأصلت في نفوس أبنائهم وتوارثوها واضافوا اليها المزيد من خبرات التعامل المنطوي على خدع وقوة وغيرها، كان ذلك كله اساس ما تولد في كيانهم من نفاق سياسي وغدر وغيرها من انحرافات أخلاقية مما صار نهجا سياسيا راسخا في تعاملهم فيها بينهم، أما في حالة تعاملهم مع الغير فكان ذلك التعامل مغطى ومحشوا بتلك الانحرافات الاخلاقية.

فقصر الملك(داود) كان ينام ويصحو على المؤامـرات والدسـائس ، وكان سوء الاخلاق السياسية والاجتماعية ممارسة مؤكـدة فـي بـلاط الملك، فابن الملك المدعو(امنون) نزل على اخته(تامـارا) فقتلـه اخـوه (ابيسالوم)، وبرغم أنه قتل زان بالمحارم فقد هرب الى(جاسور) خوفـا من العقاب في حين يفترض أن يكافأ على عمله. ومكث في منفاه ثـلاث سنين وبعد عودته الى قصر ابيه مشمولا بعفوه، فقد تآمر على ابيه الملك وزنى باحدى زوجاته فعمت الفتنة البلاط، لذا هرب مجددا الـى منفـاه السابق(جاسور). ولانه إبن عاق وسيئ الاخلاق واساء بعمله الى الملـك شخصيا فقد تعقبه أحد القادة المخلصين للملك وقتله هنـاك طمعـا فـي مكافأة سنية، ولكن الملك اغتاظ وقتل القائد حبا بالابن الفاسد وأسفا عليه.

وحاول ابن آخر للملك(داود) الاستيلاء على مقاليد الحكم وسلبها مـن ابيه مستغلا ضعفه جراء الشيخوخة، ولم تفلح محاولته كما فشلت جـهود متآمرين من عائلة الملك السابق المنتحر(شاوول) حاولوا القيام بـانقلاب يدعمه اضطراب يرتبون له داخل صفوف عائلة الملك(داود).

وما أن مات(داود) ونصب مكانه ابنه(سليمان) حتى سارع الى تنفيـذ حكم بالاعدام اصدره سريعا بحق شقيقه(ادوني) وانصاره وجميع عناصر المعارضة التي لم ينج منها غير(يربعام بن نباط) الذي لجأ الى(مصـر). وبدأ الكيان السياسي اليهودي يتضاءل حيث استقلت(دمشـق) محـررة نفسها بالقوة واقتدت بالفعل الدمشقي مناطق أخرى الى أن أتمت جميـع الامارات والممالك الارامية استقلالها وحررت، مدنها وأراضيها وسكانها من السيطرة اليهودية.

وكان أسلوب اداء السلطة في زمن(سليمان) يقتصـر علـى العمـل الدبلوماسي والبحث عن شركاء تجاريين مع السعي لتحقيق رخاء واسـع لعناصر السلطة على حساب العامة من الناس سواء عن طريق السـخرة أو فرض ضرائب فادحة وغير ذلك من امور. وكانت النقمـة وبـوادر

الثورة تتفاقم بتكتم شديد ووتائر متصاعدة مع وجود بوادر نشوء معارضة تحاول استقطاب تلك النقمة وتأجيج النفوس ضد السلطة مما شكل ارهاصات للواقع السياسي الجديد الذي ينتظر على ابواب القصر الملكي موت الملك(سليمان).

لقد كانت دولة(سليمان)تحمل عناصر تفككها وانقسامها، وأن بذرة التمرد كانت مشخصة. فمنذ عهد(داود) كان الصراع الداخلي بين قبيلة(يهوذا) الحاكمة وبقية القبائل الشمالية قد عمل على الحد من قدرة السلطة على تنفيذ الاطماع التوسعية، وأن المصالحة التي سعى اليها(داود) وحققها لم تكن في حقيقة الامر اكثر من هدنة مؤقتة، حيث بقيت الخلافات غير بعيدة عن السطح. ولقد زاد من نشاط تلك الخلافات الحسد الذي اخذ يأكل قلوب زعماء القبائل الاخرى وهم يرون (سليمان) يستنزف اموالهم ويسخر اولادهم ليزداد بلاطه رخاء ونعيما تشبها بالملوك الكبار مع صغر حجم وامكانيات دولته حديثة التكوين عديمة الموارد، مما جعل الفقراء يزدادون فقرا، وكان عشرات الألوف يرسلون للعمل (سخرة) في جبال (لبنان) يقطعون الاشجار ويحملونها في قوافل طويلة ضمن مسيرات بشرية متواصلة الى (اورشليم)، إضافة الى مجاميع ضخمة عملت بدون اجر مقابل (سخرة) في بناء الهيكل وقصر الملك، مع أحجام تام عن أعمال الغزو والتوسع الذي حقق مداخيل ضخمة للدولة ايام ابيه بحيث تحولت مشاريع الحرب وخطط الغزو والتوسع الى مشاريع مؤجلة مركونة على الرفوف، وان الجيش كان عاطلا عن العمل تدب بين صفوفه الوشايات والاشاعات وما تريد المعارضة الترويج له. المهم ان خطوط الانقسام كانت تبرز بوضوح ولم يكن طاقم (سليمان) غافلا عنها.

وعندما توفي (سليمان) كان ولي عهده (رحبعام) لم يكمل عامه السابع عشر، يتصف بالتسرع والتهور يعوزه النضج وحكمة الملك يعتمد

في قراراته على مشورة عصبة من الصبيان والمراهقين ممن كان يلهو ويمرح معهم والذين وجدوا أنفسهم بين عشـــية وضحاهـــا مستشـــارين للملك. واستنكف الملك عن طلب المشورة من مستشاري والده. فعندمـــا وفد عليه علية القوم يناشدونه التخفيف عنهم بتقليـــل الضرائـــب التـــي فرضها ابوه وايقاف السخرة لعدم وجـــود مايبررهمـــا، كـــان مجلـــس مستشاري الملك وهم من العقلاء وكبار السن ممـــن اصطفـــاهم ابـــوه بعناية، قد اوصى بالاستجابة لتلك المناشدة وعندما عرض الملك الامـــر على الفتيان اشاروا عليه بالرفض والتشدد ظانين ان ذلك يكسب شخص الملك هيبة ووقارا اكثر، الامر الذي جعل التذمر يعم صفوف الرعية.

ولم تمض سوى ايام على تنصيب الملك حتى اضرب عمال الســـخرة عن العمل وتمردوا على مسؤولهم (ادورام) وتطور اضرابهم مكتســـبا طابعا دمويا عندما رجموا هذا المسؤول حتى الموت وكان ذلك احد ثمار مشورة الصبيان.

وفي (شكيم) التي هي (نابلس) الحالية رتب (يربعام) اوضاعه على عجل واعلن عن قيام دولـــة جديـــدة اســـمها (الســـامرة)(*) مســـاحتها (٢٤،٣٠٠)كم٢ ، ولم يبق لمملكة (يهوذا) من الارض غـــير (٩٩٠٠) كم٢ من اصل (٣٤) الف كم٢ المساحة الكلية لدولة (سليمان) الموزعة.

وتحسبا لحصول تغيير في مواقف تابعيه اذا ما حجوا الى (أورشليم) واحتمال خسرانه لمنصبه وفساد احلامه جراء ذلـــك التغيـــير، وربمـــا يعرض نفسه للقتل نتيجة لهذا كله، فقد صنع (يربعام) عجلين من الذهب وقال لرعيته" كثير عليكم ان تصعدوا الـــى اورشـــليم. هـــو ذا الـــهتك

---

*اسمتها النصوص الاشورية (السامرة) عقب اتخاذ (عمري) ملكهم هـــذه المدينـــة عاصمة لملكه بينما يسمى كتبة اسفار العهد القديم تلك المملكة باسم (اسرائيل).

ياإسرائيل الذين اصعدوك من ارض مصر" وخص كل منطقة من دولته بعجل يخدمه عدد من الكهنة ويفقهون الناس بعبادته.

وذهب الناس يعبدون اربابهم الجدد باطمئنان بينما عاش الملك (يربعام) في قصره بعيدا عن هواجس وكوابيس تغيير الموقف الشعبي ضده.

وعقب سلسلة من التنقلات استقرت عاصمة هذه الدولة في (السامرة) التي اختارها (عمري) وبقيت كذلك حتى ازال (الاشوريون) دولة الجهلاء الوثنيين تلك.

يقول مؤلف سفر (صموئيل الثاني) في (الاصحاح : ٢٤) ان تعداد مقاتلي جيش المملكة الشمالية كان (٨٠٠) الف مقاتل، والمملكة الجنوبية كانوا (٥٠٠) الف مقاتل. ويتساهل مؤلف سفر الايام الثاني عندما يشير في الاصحاح (١٣) الى اولئك المقاتلين فيجعل اعدادهم في المملكة الجنوبية (٤٠٠) الف ويتنازل نفس المؤلف عندما يذكر في مكان اخر ان عددهم كان (٣٠٠) الف مقاتل وانهم في اول معركة لهم مع الدولة الشمالية قتلوا (٥٠٠) الف من جنودها[*] اليس بين يهود

---

[*] لدحض هذه الارقام التي يصعب القبول بها نقول: ان الاباطرة العظام عندما خاضوا كبار المعارك في التاريخ لم تكن جيوشهم تتجاوز في تعداداتها عشرات الالوف من المقاتلين، فان احدى حملات (اشور ناصر بال) خاضها وهو يقود (٣٠) الفا من جنود المشاة والفي خيال و(٣,٢٠٠) عربة وان اكبر حملاته لم تضم اكثر من (٥٠) الف جندي بينما قاد (شلمنصر الثالث) في معارك عام ٨٤٥ ق . م (١٢٠) الف جندي وهو رقم خضع لتدقيق كثير بسبب كبره. وان عدد المصريين في معركة (قادش) الفاصلة كان (٢٠) الفا من المشاة وثلاثة الاف عربة. وان سبب عدم رغبة الملوك العظام في قيادة جيوش تفوق(٥٠) الف جندي الا نادرا يعود لسببين اولهما هو جهل استخدام الوحدات الكبرى المختلطة التأليف وثانيهما هو انعدام الجهاز الاداري الملائم[٥٦] فتأمل قلة الحياء في اعتماد ارقام مبالغ بها كالتي ادعاها العهد القديم.

اليوم من يصدق ما ذكره هذا الكتاب بصيغ دعائية بعيدة عن المنطق والواقع؟

واستحكاما لحلقات الانتقام من المملكة الجنوبية (يهوذا) وملكها (رحبعام) فقد استغل (يربعام بن نباط) علاقاته السابقة مع الفرعون (شيشنق) ليغريه بغزو (اورشليم) والاستيلاء على كنوز الهيكل.

وطمعا بالذهب المكدس في ذلك الهيكل، فقد نسي (شيشنق) ذكرى صهره (سليمان) والمواثيق التي كانت تنظم علاقاتها الطيبة، ونفذ رغبة تجمعه بحليفه (يربعام) حيث سار في احدى غزوتين شنها الفراعنة في الالف الاول ق. م في (فلسطين). وقبل ان يطبق حصاره على (اورشليم) على ٩٢٦ ق. م استطاع ملكها الصغير الهرب تاركا عاصمته نهبا لاطماع الفرعون الذي استولى على كنوز الهيكل كما مر بنا في المبحث الاول من هذا الفصل.

وكان ضعف المملكة الجنوبية (يهوذا) قد تزايد عندما اعتلى عرشها ملك ضعيف الشخصية مهزوزا هو (يهورام ٨٤٠-٨٤١ ق. م).

فقد نفذ الاراميون هجوما قاده (حزائيل) ملك (دمشق) الذي دخل (اورشليم) وخرج منها محملا بما يحلم به من غنائم.وتجرب المملكة الشمالية حظها فتدخل قواتها (اورشليم) وتنهب ما بقي من ممتلكات الهيكل وتهدم اسوار المدينة.

وتعود (دمشق) لتتحالف مع مملكة (يهوذا) فتهجم جيوشها على المملكة الشمالية تلبية لطلب الملك الجنوبي (اسا) الذي اشترى الجهود الحربية للدمشقيين بهدية ضخمة من الاحجار الكريمة والذهب والفضة. الامر الذي دعا ملك (السامرة) لان يشتري هو الاخر انسحاب (دمشق) بهدية اضخم مع تنازل رسمي عن الاراضي التي احتلتها جيوشها. وبعد ان ضعفا معا، فقد رأت (دمشق) ان تحتل أراضيهما ولكنها كانت مجرد محاولة.

انه بعض من تاريخ اسود هو التاريخ السياسي لليهود في (فلسطين)، الذين اضاعوا وضيعوا على الآخرين فرصا من التقدم والرخاء وانتاج المزيد من الحضارة . وكان (الآشوريون) طرفا مهما في اغلب حلقات هذا التاريخ حيث كانوا هدفا كبيرا ودائما للتآمر المشترك لكلا الكيانين اليهوديين،وهدفا لتآمر كل منهما على انفراد عندما يكون العداء بينهما قد استشرى. ولم تكن (مصر) في هذا المسلسل غير متفرج يصفق فراعنتها باستمرار للمؤامرات اليهودية المنفذة على هذا المسرح الساخن.. ثم يتدخلون قبل اسدال الستار للاستحواذ على مكسب.

حواشي الفصل الثاني(*)

١. الاحمد، سامي سعيد(مصدر سابق) ص ٩.
٢. الاحمد، سامي سعيد، السومريون- منشورات الجمعية التاريخية العراقية- بغداد ١٩٧٥ ص ١٠٢.
٣. المصدر السابق ص ١٠٤.
٤. ديورانت (مصدر سابق) ص ١٠٤.
٥. الثور، عبد الله احمد، هذه هي اليمن- دار العودة- بيروت - بلا ص ١٠٢.
٦. النور،د. اسامة عبد الرحمن، نحو نظرة جديدة الى التاريخ الحضاري للسودان القديم (مقال) مجلة المؤرخ العربي- اتحاد المؤرخين العرب - العدد ٢١ لسنة ١٩٧٢ ص ٥٧.
٧. ساكز، هاري، الحياة اليومية في العراق القديم، ترجمة كاظم سعد الدين- دار الشؤون الثقافية- بغداد ٢٠٠٠ ص ١٢٧.
٨. توينبي (مصدر سابق) ص ١١٦.
٩. المصدر السابق ص٩٦.
١٠. الاحمد، سامي سعيد، تاريخ فلسطين القديم(مصدر سابق)ص١٢١.
١١. المصدر السابق ص١٢٧.
١٢. الدباغ، تقي، مدن تشهد على عروبة فلسطين(مقال) مجلة دراسات للاجيال اصدار نقابة المعلمين بغداد العدد١و٢ لسنة ١٩٨٢ص ٣٦٠.
١٣. ديورانت(مصدر سابق) ص١٧٨.
١٤. الاحمد، سامي سعيد، تاريخ فلسطين القديم(مصدر سابق)ص١٠٥.
١٥. المصدر السابق ص٢٧.
١٦. الملوك الأول، الاصحاح:١٤.
١٧. الاحمد، سامي سعيد، تاريخ فلسطين القديم(مصدر سابق)ص١٨٦.

---

*ماذكر مفصلا في نهاية الفصل الاول سنشير اليه هنا وفي نهايات الفصول اللاحقة باختصار.

١٨. ديورانت(مصدر سابق) ص١٧٥.
١٩. الاحمد، سامي سعيد، تاريخ فلسطين القديم(مصدر سابق)ص٢٠٥.
٢٠. مجموعة باحثين، العراق في التاريخ -بغداد ١٩٨٣ص١٧١.

21. Luckenbil, D. D., Ancient Records of Assyria and Babylonia, Chiccgo 1924, VII, 545*

٢٢. ايس، جون فان، اقدم اصدقائي العرب، ترجمة جليل عمسو، مطبعة بغداد- بغداد ١٩٤٩ ص ٢٧٥.
٢٣. ديورانت (مصدر سابق) ص ٢٦٦.

24. ARAB, 1,S73.
25. ARAB, 1,S116.
26. ARAB, 1,S 166.

٢٧. توينبي (مصدر سابق) ص ١٢٨.
٢٨. ساكز، الحياة اليومية (مصدر سابق)ص٤٤.
٢٩. رو(مصدر سابق) ص ٢٥٧ وما بعدها.

30. ARAB, 1,S300.

٣١. مونتكمري (مصدر سابق) ص٦٦.
٣٢. للاطلاع على مزيد من تلك التقارير راجع.
- ARAB, (جزءآن).

Grayson, Assyrian Rulers of the Early.

والثاني احدث حيث تلافى فيه محرره سقطات الاول.
٣٣. ديورانت (مصدر سابق) ص ٢٧٣.
٣٤. المصدر السابق ص٢٧٢.

---

*سنشير له لاحقا بالمختصر (ARAB)

٣٥. سوسة (مصدر سابق) ص٩٢
٣٦. رو (مصدر سابق) ص٣٣٤.
٣٧. محمد، حياة ابراهيم (مصدر سابق) ص ٣٣.
٣٨. المصدر السابق ص ٣٢.
39. ARAB, 1,S250.
٤٠. فتحي (مصدر سابق) ص ٩٨.
41. ARAB, 11,S31.
42. ARAB, 11,S301.
٤٣. ساكز، قوة اشور (مصدر سابق) ص ١٤٦.
44. ARAB, 11,S509.
٤٥. الصالحي (مصدر سابق) ص ٩٧.
٤٦. محمد، حياة ابراهيم (مصدر سابق) ص٤٢.
٤٧. باقر (مصدر سابق) ص ٥٢١.
٤٨. الشريقي (مصدر سابق) ص ٨٤.
٤٩. المصدر السابق ص ١٠٣.
٥٠. الخروج، الاصحاح: ١٢.
٥١. صموئيل، الاصحاح:١.
٥٢. الشريقي (مصدر سابق) ص ١١٩.
٥٣. المصدر السابق (نفس الصفحة)
٥٤. راجع خرائط التوسع اليهودي في كتاب الشريقي انفا ص ١٢٠-١٢١.
٥٥. المصدر السابق ص ١٢٢.
٥٦.موريز، اريك، مدخل لدراسة التاريخ العسكري،تعريب اكرم ديري والمقدم الهيثم الايوبي المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ط ٣، ١٩٧٩ .

الفصل الثالث
حركات الآشوريين في بلاد الشام

- ⋆العسكرية الآشــــورية
- ⋆معارك الجبهة الغربيـة
- ⋆تآمر اليهود وسقوط نينوى



يناصب (اليهود) (الآشوريين) عداءً ذا خصوصيـــة فالنـــهوض الاشوري الاقوى كان مزامنا لبداية تشكيل الكيان السياسي اليهودي فـي (فلسطين) في مطلع الالف الاول ق. م وبذا فقد حجم (الاشـــوريون) تطلعات(اليهود) وحدوا من قدرتهم على التوسع والانفلات الاقليمـــي، وعموما فقد قزموا كيانهم الذي ولد ضعيفا. فكان ذلك منبعا لكثير مـــن العداء الذي يضمرونه للاشوريين.

وعقب مرور عشرات القرون. مازال الطابع العســكري للدولــة الاشورية متميزا في تاريخ الحضارة، ليس لان (الآشوريين) اقويـــاء ذوو جلد فحسب وانما لانهم أسسوا كثيرا من قواعـــد ومفـاهيم القـوة والعمل العسكري، فهم لم يدجنوا الحصان، ولكنهم نقلوا القتـــال علـى ظهره وهم اول من كسا المقاتلين والخيول دروعا من الحديد، واول من اسس صنف الهندسة العسكرية، وان الماما اوليا بهذه الاسس امر لابـد منه لفهم طبيعة الاستخدام والعمل ضمن العقيدة العسكرية الاشورية بما له علاقة بمسرح الحرب الشامي.

ولان بلاد (الشام) كانت رئة (الآشوريين) وطريق الرفاه والثروة سواءً بمواردها او من خلال كونها طريقا تجاريا بريا وبحريا، فـان أيِ خلل يصيب امن تلك البلاد يعد خطرا علـــى امـــن وســلامة الدولــة الاشوريةوكان (اليهود) على دراية تامة بتلــك الحقيقــة، لــذا كــانوا يحاولون باستمرار تطوير جوانب الخلل املا في النجاح ولو مرة واحدة في تحقيق هزة قاتلة لأمن (الاشوريين) يتسبب في خنقـــهم والقضــاء عليهم. وكان ذلك سببا قويا لتفكير (الاشـــوريين) بتصفيــة الوجــود اليهودي في (فلسطين) حيث انهوا المملكة الشمالية وقضوا على كيانها السياسي.

وبرغم العجز المصري عن الوقوف بوجه (الآشوريين)، الا انــهم كانوا يرغبون بشدة في رؤية الدولة الاشورية ضعيفة كسيحة، وبســبب

الحقد اليهودي العميق تجاه (الآشوريين)، فقد رأى (المصريون) في مملكة (يهوذا) الدمية الطيعة لازعاج (الاشوريين) يحركونهم بين الفينة والاخرى مما حدا (بسنحاريب) بان يفرض حصارا قاتلا على تلك الدولة اليهودية هادفا الى اقتلاع هذا المسمار من حذائه. الا انه قنع اخيراً بتذلل ملكهم وخضوعه وتقديمه جزية تتضمن (بنات الملك اليهودي وبنات وزرائه) ليصبحن محضيات في غرفة نوم الملك الاشوري.

ومع ان (اليهود) كدولة لايعدون ضمن قوى التأثير، وليس لهم من القوة ما يستفاد منها، الا ان التحالف البابلي الميدي قد حجز مكانا في ناديه لملك (يهوذا) ليس طمعا في قوته ولكن لوضع عقبة وحجر عثرة بوجه (المصريين) الذين قد يفكرون في الحصول على حصة من الميراث الآشوري.

ولم يكن (اليهود) مخلصين في نياتهم، فسارع ملكهم (يوشع) للاستئثار باكبر ما بوسعه السيطرة عليه من ارض مجاورة استثماراً لفرصة غياب (الاشوريين) عن المسرح، وان الحلفاء مازالوا دون القوة التي تجعلهم يهاجمون دولته. في تلك الفترة كان الفرعون قد قرر استغلال ما حصل ولو ان اشتراكه في الاحداث جاء متأخرا بضع سنوات، ولكنه قتل الملك اليهودي الطموح الذي فاته ان يستأذن الفرعون في تحقيق ماعقد عليه العزم.

المبحث الاول
العسكرية الاشورية

اشرنا سابقا الى ان معركة (قادش) بين (الحثيين)و (المصريين) قد تسببت بتلاشي قوة عنصري الصراع مما تولد عنه فـراغ سياسـي استغله (الآشوريون) الذين عرفوا كقوة تجارية منذ العـام ٢٠٠٠ ق. م حيث لم تكن قوتهم العسكرية ولا واقع جيران الجهات الاربع تسـمحان لهم بالبروز كمحاربين ذوي طموحات سياسية كبيرة. وعندمـا اعتلـى العرش الاشوري الملك (تجلات بلازر الاول) كانت القوة الاشـورية بلغت مديات لم تكن قد بلغتها من قبل، ووقف جنود (اشـور) علـى ساحل البحر المتوسط وساحل الخليج العربي في آن واحد. ولكن تلـك الصحوة كانت قصيرة حيث جاءت الاغفاءة الاخيرة التـي استغرقت قرنين من الزمان لم تنحسر لولا(ادد- نيراري الثاني) الذي أيقظ قومه بعد ان هيأ من القوة ما يتيح له فرصة القتال على اكثر من جبهة وفـي آن واحد, فضرب الجنوب ودمر الشمال واجتاح الغرب.

مايهمنا هنا هو طبيعة القوة التي اكتسبها (الاشـوريون) خـلال صحوتهم الاخيرة (صحوة الموت) التي بدأت مع الملك (ادد- نيراري الثاني) وانتهت بسقوط (نينوى) تحت ضربات التحالف المادي الكلداني عام ٦١٢ ق. م وهي الفترة المسماة (العصر الاشوري الحديث) والتي شملت مناطق مختلفة وبظروف مناخية متباينة مما كان له اثـر كبـير على تطور وتوسع العقيدة العسكرية الاشورية وليدة الحاجة والظـرف والممارسة، والتي افرزت عقيدة قتالية متميزة مازالت محـط اعجـاب وتقدير الباحثين بعد كل هذه الحقب التي انقضت على افول نجمهم.

عنصران كبيران كانا وراء هذا القدر الكبير من القوة الآشـورية، ان (الآشوريين) انفسهم وان لم يكونوا اصحاب الفضل في كشف هذيـن العنصرين، الا ان فضلهم لاينكـر فـي سـبيل تطويـر الاكتشـافين

وتسخيرهما واشاعة حقوق استعمالهما لكل جيوش العالم، ذانك العنصران هما الحصان والحديد.

فالحصان الذي قلب موازين القوى في عالم الامس وغير مسار الحروب كان قد دجن من قبل (الميتانيين)[*]الذين نجحوا في فرض السيطرة على (الحوريين) المنحدرين من سكان (ارمينيا) القدماء وعملوهم فن تربية الجياد، وكان كشفا مثيرا عثور الاثاريين على رسالة وضعها مواطن حوري من سكان (بوغوزوكي) حول تربية الخيل.. وبواسطة تلك الاقوام البدوية دخل الحصان لاول مرة الى الشرق في العام ١٨٠٠ ق. م[1] وعندما انتقل تدجين الحصان الى (الكاشيين) فقد استثمروه كعادتهم في انتهاز الفرص (سبق وان انتهزوا فرصة اجتياح الحثيين لبابل فسارعوا لاحتلالها) حيث استخدموا الخيول التي كانت ضعيفة وقت ذاك لجر العربات بدل الحمير والثيران التي تضاءل استخدامها في هذا المجال.

وعندما بلغ هذا الاستخدام الجديد(الاشوريين) قرروا استثماره جيدا، فهم لم يكتفوا بتقليد الاخرين في استخدام الحصان وانما نظروا في امكانية اناطة واجبين جديدين به اثبتا رجاحة تفكير قادتهم وقدرتهم الخارقة على الابداع. فهذان الواجبان يفضيان الى عسكرة الحصان، الابداع الذي استمر ثلاثة الاف عام لاحقة والواجبان هما:

- جر العربات داخل ساحة المعركة حيث يقوم طاقمها برمي السهام على العدو من المسير.
- حمل مقاتل بكامل سلاحه وعدته ليستعمل السلاح لقتل جنود العدو وهو على صهوة الحصان.

---

[*] الميتانيون: قبائل بدوية(هند اوربية) قدمت من سهول روسيا.

وكان العنصر الخطير الاخر هو تطويع الحديد. فقد كانت تلك التقانة سرا قوميا للحثيين الجدد،وكانت استفادتهم منها محدودة، وعندما توصل(الاشوريون) الى فك اسرار تلك التقانة فقد صار انتاج السلاح الاكثر مضاءً اكثر سهولة. ثم حولوا مئات الاطنان منه الى دروع من حلقات وزرد يرتديها جنديهم لحمايته، ثم توسعت صناعة هذه الدروع فكسوا بها خيولهم، وتبعا لزيادة الحماية، زاد الاندفاع وقلت الاصابات.

ولما كانت التجارة الاشورية مصدر قوة هؤلاء القوم فقد صار الجيش الاشوري المتطور منافسا لها في موقعها، وصارت تلك التجارة بفضل القوة العسكرية المتمكنة، فعالة، محترمة من قبل الجميع مما زاد في رفاهية الدولة ورخاء الشعب الذي اخذت امم وشعوب تسعى لخدمته والحظوة برضا ملوكه الذين كانت الحرب من وجهة نظرهم طقسا دينيا يرجون من ورائها ارضاء الههم(اشور)، وان قيام الملك بحملة واحدة في السنة باقل تقدير هو اجب ديني[٢]، وكان بعض الملوك الضعفاء من الشعوب الاخرى يتملقونهم فيعبدون الهتهم ويمارسون بعض طقوسهم العبادية كما فعل الملك اليهودي (عمون٦٣٩-٦٣٨ ق. م) والذي قلد جده(آحاز)[٣] الذي كان يقبل ايدي (تجلات بلازر) ويستجدي عطفه لانقاذه من حلف معاد.

وكما كان الملك بصفته القائد العام للجيش وكونه نائب الاله (اشور)، فأنه يضطلع بكتابة تقارير خطية (تقارير حركات) يقدمها لتمثال الاله عقب كل معركة مما سهل علينا متابعة العمليات العسكرية الآشورية بتفاصيل دقيقة كما مر بنا في المبحث الثاني من الفصل الثاني. وبسبب كون قائد الجيش وضباطه من صنف الكهنة (كما مر بنا سابقا) فان حماسا دينيا يلهب صدور الجنود باستمرار، امر متحقق يجعلهم يضحون في سبيل عقيدتهم بالروح قبل أي شيء آخر، عيونهم مسمرة بالقرص المجنح الذي يرفعه الملك على عربته خلال الحملات

ممثلاً للاله. كانت تلك بعض وسائل رفع الحماس عند (الاشـــوريين) مما لم يكن له مثيل يقابله عند(اليهود) الذين يفترض انـــهم موحـــدون والذين استعاروا من (الاشوريين) صفة الههم(آشور) ليلصقوه بمـــن اسموه(يهوه) وجعلوه ربا لهم حيث اطلقوا عليه اسم(رب الجنود) وغيره من اسماء لم تفلح في رفع شجاعة جنودهم بوجه(الآشـــوريين)، ممـــا جعلهم يفكرون بسبل اكثر جدوى طمعا بالبقاء برغم طموحات التمـــرد على السيادة الآشورية القوية.

وبسبب اهمية قرار الحرب في الدولة الآشورية وضرورة ابقائـــه بيد الملك، فقد فرضت مركزية صارمة على القرار العسكري وحـــرم الحكام المحليون من اية فسحة للتصرف بالقطعـــات العســكرية التـــي بأمرتهم ويسري ذلك حتى على الحاميات الصغيرة التي تفرز لحمايـــة الاهداف الحيوية في شتى انحاء الامبراطورية حيث يبقـــى ارتباطـــهم بالقيادة العامة مباشرة[٤]. ويبقى واجب الحكام المحليـــن تجـاه تلـك القطاعـــات مقتصـــرا علـــى تـــأمين مـــواد تمويـــن القتـــال فقـــط (ارزاق، اعلاف..الخ).

ولكي لا تبقى الملاحظات المفيدة حبيسة الصدور فقد سمح بـــابلاغ المسؤولين الاعلى بما لدى الادنى من آراء حتى ولو انطـــوت علـــى انتقادات للقرارات الملكية ذاتها حيث نطلع على انتقـــاد كتبـــه احدهـــم ووجهه الى الملك(سرجون الثاني) مباشرة جاء فيه "على الرغم مـــن أن الملك اصدر امرا الى الجيش بدخول بلاد(ماني) فانه ينبغي أن لا يدخل كل الجيش، بـــل يقتصـــر الدخـــول علـــى الخيالـــة وفـــرق المشـــاة الخفيف(داكو). إن(جيميرين) الذين قالوا إن بلاد(ماني) تحت تصرفـــك، يعلمون جيدا انه محض كذب، أنهم مجرد جماعة من شذاذ الافاق الذين لا يلتزمون بيمين ولا اتفاق". ثم يقترح هذا القائد الغاضب خطة بديلـــة للعمل وعلى تلك الشاكلة فقد كان القادة العسكريون بما لهم من مكانـــة خاصة في نفس الملك والشعب يستطيعون تقديم اعتراضـــات(مهذبـــة)

على ما لا يروق لهم حتى وان كان امرا ملكيا. فالملك يعرف شجاعة هؤلاء وحبهم له وتفانيهم في سبيل ترسيخ أُسس ملكه، ولا عجب فقد كتب له احدهم(سيدي: منذ بداية حكمك والمعارك والمتاعب تبدو بالنسبة لنا بمثابة عيد)(٥).

وبرغم تباعد النقاط الساخنة عن مركز الامبراطورية، الا أن الإمبراطور كان على اطلاع تام وتفصيلي بمجريات الاحداث بسبب نظام استخبارات كفوء وسريع العمل. وعندما يقرر الملك(آشور بانيبال) تنفيذ هجوم احباطي * ضد(السميريين) فانه يبرز ذلك بان نبوءة ما اعلمته بنياتهم بالهجوم عليه(٦)، ونعتقد أن ادعاءه(التنبؤي) ذاك انما كان وسيلة لاخفاء مضمون تقارير الاستخبارات الواردة اليه حماية لمصادر معلوماته.

فالاستخبارات كانت تمثل موردا عظيم الاهمية يحيطه الملوك الآشوريون برعاية خاصة، ونستطيع الاستدلال من بعض المخلفات الوثائقية أن ثمة وكلاء محليين من مواطني الدول الاخرى يقدمون تقارير معلومات الى هيئات الاستخبارات الآشورية حول اوضاع بلدانهم، وهناك ادلة من(اور ارتو)،إضافة الى أن الحكومة المركزية الآشورية كانت على علم تام واطلاع واسع بما يجري في(اور شليم) عام ٧٠٩ ق.م فعندما ارسل(سنحاريب) قواته لتطويقها ومحاصرتها كان(الرابشاقي) الذي يتكلم العبرية يستطيع أن يستثمر تلك المعلومات(٧). ولم يكن الملك ليقبل بأية معلومات ترد اليه إنْ لم تكن مستوفية لشروط معينة، لذا لا يجد حرجا في تكليف أحد قادة الجبهات بان يرسل عناصر تتسلل الى داخل حدود العدو لتدقيق صحة

---

* الهجوم الاحباطي: هو ضربة استباقية أو وقائية توجه للعدو الذي يكاد يكمل استعداداته للهجوم فيصار الى احباط نياته واستعداداته الهجومية.

المعلومات(من داخل حدود الاعداء)[٨]. هذا بالاضافة الى طرق اخرى كالاستطلاع بالقوة وخطف الاسرى للحصول على معلومات وغيرها. إن هذه المنظومة الكفوءة من العمل الاستخباري تجعل من مداولات ما بين الكواليس في (اور شليم) و(السامرة) و(دمشق) وسواها من مدن تخطط سرا ضد السيادة الآشورية امورا خاضعة للنقاش واساسا للتخطيط المستقبلي في العاصمة الآشورية. وكان ما يزيد من قوة رد الفعل الآشوري حيازتهم على قابلية حركة فائقة إضافة الى قوة اقتحام شديدة التأثير، وهذان العنصران ناجمان عن الاستخدام الكفوء للحصان والحديد حيث كانت العربات الآشورية المقاتلة وسيلة فعالة لاقتحام صفوف الاعداء وبعثرتها. ولم تكن اقوى المدن قادرة على الصمود بوجه سلاح الهندسة العسكرية الذي أسسوه بادئ ذي بدء لغرض فتح وتحسين الطرق في المناطق الجبلية لتسهيل حركة العربات التي تجرها الخيول، ثم انيط به واجب احداث ثغرات في الاسوار أو نقبها، وكانت المهمة الخطيرة المتمثلة في تأمين عبور الجيش للموانع الطبيعية وخاصة نهر(الفرات) والانهر الاخرى القاطعة للجبهة في مسرح الحرب الشامي من بين ما تكلف به الهندسة العسكرية. وتحقيقا لتلك المهمة كانوا ينصبون جسورا ويصنعون عوامات(اكلاك)، يحملون مستلزمات عملها معهم، في حين كانت جسورهم العسكرية عبارة عن قوارب متراصة مع بعضها تمد فوقها الواح من الخشب لسير الافراد وكذلك العربات.

وشكل نهر(الفرات) التحدي الخطير للآشوريين حتى وهو في ادنى منسوب للماء فيه حيث كان عبور الجيش بقيادة(تجلات بلازر الأول) عملا خارقا قام الملك بتوثيقه. بينما كانت حملة(شلمنصر الثالث) عام ٨٤٥ ق.م منمازة في العدد والعدة حيث شارك فيها (١٢٠) الف مقاتل

مع عرباتهم وخيولهم وارزاقهم واعلاف حيواناتهم وتجهيزاتهم الحربية الشخصية واكباش التخريب الفخمة والمنجنيقات وذيل اداري طويل جدا(*) ولا نظن أن عبور كل هذه القطعات نحو مسرح الحرب الشلمي استغرق وقتا طويلا، فالعبور بحد ذاته يعد وقتا حرجا بسبب الوهن الذي يعتري القطعات خلاله خوفا على هلاكها غرقا أو من تدخل معاد، فياله من جهد هندسي مبدع ذلك الذي افلح في تحقيق عبور كل تفاصيل تلك الحملة الضخمة بوقت قياسي.

وكانت مدن(فلسطين) خصوصا ومدن بلاد(الشام) عموما لما تتمتع به من اسوار قوية تشكل دافعا مهما يستجاب له بزيادة قدرات المهندسين وصنفهم الذين عليهم يقع واجب تهديم الأسوار أو احداث فتحات فيها. وعموما فان اساليب العمل كانت تجري على وفق الصيغ ادناه:

١. احداث فتحات في الأسوار أو تهشيم الابواب بواسطة الاكباش عندما تكون الأسوار عالية جدا.
٢. تسلق الأسوار عندما تكون سميكة يتعذر تخريبها وارتفاعها يساعد على التسلق.
٣. حفر انفاق اسفل اسس الاسوار التي يتعذر تسلقها، ولا يمكن تخريبها.

خلال تلك الاعمال الانتحارية يكون رماة السهام النارية قد ركزوا جهودهم لاحراق كل ما يمكن أن تحرقه النار فوق الاسوار وفي الابراج واحيانا يستخدمون المنحدرات المؤدية الى

---

* الذيل الاداري: هو جميع التسهيلات الادارية والخدمية التي لا تشترك في القتال وانما واجبها تقديم الخدمات الادارية للقطعات المقاتلة ويكون تسلسلها في نهاية الارتال لذا عدت ذيلاً لها وهو ما يعبر عنه المصطلح الوافد (الدعم اللوجستيكي).

اسوار المدينة وبواباتها، يغرقونها بكميات ضخمة من النفط ثم يشعلون النار فيه لاغراق المدينة في بحر من النيران. وكان الكيمياويون يقذفون بحاويات خاصة تحوي غازات نتنة جدا داخل الحصون غالبا ما(تذهب بعقول الاعداء) (٩).

في هذه المرحلة من المعركة يكون المكلفون بالحرب النفسية قد قطعوا شوطا كبيرا في تحطيم معنويات العدو. ولعل(الرابشاقي) الذي اثر كثيرا على معنويات السكان خلال محاصرة عاصمة(يهوذا) خير مثال لهذا الفعل النفسي حيث سنفصل القول عنه في محله لاحقا. ولقد وثق بعض ملوك(آشور) ادوارهم في التخطيط والتنفيذ في مجال الحرب النفسية التي لمسوا حجم تأثيرها على افراد العدو المحاصرين، وكانت اجادة لغة العدو سلاحا مهما في الحرب النفسية حيث لم يكن تأثير كلام(الرابشاقي) عند محاصرة(أور شليم) قد فعل فعله المؤثر لولا اجادته لغة سكانها.

وكانت اعمال الترحيل اشد الاعمال قسوة مما يجعل المتمردين يعيدون التفكير مرات قبل اقدامهم على التمرد والعصيان، وكانت قطاعات واسعة من سكان البلدان المعادية تحسب حساب التهجير والترحيل مما يجعلها تتمرد على زعمائها ليس حبا بالآشوريين ولكن خوفا من تلك العقوبات الصارمة.لقد كان لحماس(ارميا) المطالب بصداقة(بابل) ما يبرره فهو مولود عام ٦٥٠ق.م أي قبل تلاشي الامبراطورية الاشورية بجيل من الزمن مما يعني انه على وعي ودراية تامة بحقيقة العقوبات التي يمكن أن تحل ببني جلدته، لو استمر عتاتهم في رفع رايات العصيان والتمرد بوجه(نبو خذ نصر)وريث الامجاد العراقية القديمة.

وبالمقابل فقد كانت مهمة رفع معنويات الجنود الآشوريين وتحصينهم ضد وسائل الدعاية المضادة، واجبا خطيرا اوكل الى هيئة

مختصة تؤدي واجبها باشراف كبار الكهنة الذين يلجأون الـــى شــتى الطرق التي تحقق غاياتهم في مجال رفع المعنويات كالاســتعانة بفــأل ملائم لكسب المعركة فيشجع ذلك الجنود الذين سيقاتلون باستماتة وهــم على ثقة تامة ومطلقة بنزول النصر على جحافلهم.

وقد ترك الملوك(الآشوريون) ثغرات واسعة في صفحة معلوماتنــا عن حجوم تشكيلاتهم العسكرية ورتب قادتهم وكذلك ســياق التخطيــط للعمليات وجوانب معينة من عقيدة القتال مما حــدا بالبــاحثين لتلمــس ضالتهم في النصب والمسلات المصــورة[١٠] كمــا يدعــو المرحــوم الاستاذ(طه باقر).

اما حجوم الحملات الآشورية التي كانت تنطلق بحمــاس منقطــع النظير نحو بلاد الشام فأن بعضها معروف لدينا حيث أن احداها كــانت تضم(١٢٠) الف مقاتل وقليل منها كان تعداد المقاتلين فيها اكــثر مــن ذلك. الا أن حملات ضخمة بهذا الحجم كانت قليلـــة التكــرار بســبب ضخامة الذيل الاداري اللازم لتأمين اسنادها اداريــا، خصوصــا وأن اهتمام الملوك الآشوريين براحة وصحة ورفاه جنودهــم يحتــم طــول وضخامة الذيل الاداري لاية حملة يوجهونها أو يقودونها. فلم تكن حملة من حملاتهم تخلو من خيم تنصب عندما تعسكر القطعات حيث تكلــف بنصبها وحدات الهندسة العسكرية. ولدينا وثائق اثاريــة عــن اعمــال مورست في تلك المعسكرات الوقتية تدلنا على حجم الاهتمــام الملكــي براحة جنود الحملات، ففي احداها مشهد لجنـــود لا يحملــون اســلحة يحضرون حفلة راقصة بينما كان جنود الواجب يؤمنون حماية مكـــان الحفلة اضافة الى مشاهد اعداد وجبات الطعـــام لقطعــات، وغيرهــا. وللاستدلال على الاهتمـــام الشـــخصي للملـــك بتلـــك الامــور يقــول (سرجون الثاني) معبرا عن موقف صعب مرت به قطعاته خلال الحملة

الثامنة(*) " لم استطع ان اريحهم من ارهاقهم، ولم استطع ان اقدم لـهم الماء ليشربوا ولم استطع ان اقيم لهم الخيم ولم استطع ان اعزز الدفـاع عن المقرات.. الخ"[11].

وعندما يعجز القادة عن حمل كميـات المـاء اللازمـة لاسـقاء القطعات في المناطق الصحراويـة مـن (سـوريا) او (النقـب) او (سيناء)، فانهم يستعينون بالقبائل العربية لجلب الماء على ظهور الجمال كما حصل مع قطعات (اسرحدون)[12] الذي يقـول واصفـا حركتـه الصاعقة في احدى حملاته الغربية عام٦٨١ق.م" لم اتأخر يوما واحـدا. لم انتظر حتى تتجمع كل قواتي .. لم اخف من ثلج وصقيع شهر شباط وقسوة شهر شباط وقسوة الشتاء.. الخ "[13].

ان جيشا بهذا الحجم من التطور والاقتدار لم يكن ليمتنع يوما عـن تنفيذ اوامر الملوك الطموحين الذين يرون في سحق العدو واجبا دينيـاً مقدسا. لذا لم يكن الوقوف بوجههم امرا محمود العواقب، ولكن قلة مـن خصومهم كانت تعي حقيقة المصير الاسود الذي يرفرف فوق الرؤوس عندما ترفرف الرايات الآشورية في الافق، وكـان (ارميـا) الرجـل الاكثر فهما لعواقب الامور،والذين هم على شاكلته منبوذين بين قومـهم (اليهود)، لان صدور رجال القوم مشحونة بالعداء للاشوريين، وبرغـم ترقب وانتظار فرصة ضعف (الآشوريين) ليحقق (اليهود) نصرا ولـو لمرة واحدة على قواتهم، فان ذلك لم يتحقق تماما، لذا لجأ اليهود الـى توسل الانتقام بطرق سرية تصاغ بدهاليز التآمر طمعت في تحقيق مـا عجزوا عن تحقيقه في سوح المنازلة والقتال ،فكيف كـان رد الفعـل الآشوري تجاه التآمر اليهودي؟

---

*الحملة الثامنة: هي الحملة التي شنها(سرجون الثاني) عام ٧١٤ق.م وهـي حملـة شهيرة افرد لها المؤرخون صفحات واسعة في سجله اعتماداً على تقريـر حركـات كتبه (سرجون) الى الاله(اشور) فصل فيه مجريات تلك الحملة. (اذ رمت مزيـدا فراجع موسوعة الجيش والسلاح ج١ ص٢٨٥).

المبحث الثاني
ادارة عمليات الجبهة الغربية

كان (آشور ناصر بال الثاني ٨٨٤-٨٥٩ ق. م) الذي بلغ سواحل البحر المتوسط ودفعت له الممالك السورية الجزية، اول ملك اشوري في عصرهم الحديث حقق اندفاعا ناجحا نحو الغرب ويوثق لنفسه في تقارير الحركات التي اعدها بقوله" اقتربت من مدينة سور والتابعة لمملكة بيت حالوبي فأخذ اهلها الرعب من عظمة الهي آشور وسارع رؤساء وشيوخ المدينة إليَّ لينفذوا بجلودهم وعانقوا قدمي قائلين: اذا رغبت فاذبحنا واذا أردت فدعنا احياء، افعل كل ما يشتاق اليه قلبك"[١٤]. وعندما خلفه ابنه(شلمنصر الثالث ٨٥٩-٨٢٤ ق. م) فقد نقش لوحات برونزية على ابواب قصره تبين كيف ان جزية بلاد الشام تصله بالقوارب. وعندما ساءه تكتل بعض حكامهم وبضمنهم (اليهود) توجه على رأس حملة ضخمة عام ٨٥٣ ق. م حيث خاض غمار معركة (القرقار الاولى) في منطقة (حماث) حماة الحالية على نهر(العاصي) والتي سنفصلها لاحقا. وقد رأى (شلمنصر) ان يتوجه الى (فلسطين) مستعرضاً قوته الى الدرجة التي اذعن له فرعون(مصر) فارسل أفخر ما في بلاه من هدايا لتليين عريكة الملك الاشوري، وبرغم ذلك التسلط الاشوري على (فلسطين) زمن (شلمنصر الثالث) اضافة الى انتصاراته على (آخاب بن عمري ٨٧٣-٨٥٣ ق. م)، وان (ياهو بن شافاط ٨٤١- ٨١٤ ق. م) دفع له الجزية ، فأن اسفار العهد القديم لم تبرز فعاله في السيطرة على ساحة الحركات الفلسطينية. عموما فان التاريخ لا يدرس على وفق ما دونه الاحبار في العهد القديم من وجهة نظر منحازة ومتأخرة عن فترة الحديث بعدة قرون اعتماداً على روايات رواة يملأ صدورهم الحقد والغيظ، وان الوثائق الاجدر بالدراسة هي مدونات هذا الملك[١٥] كونها تعد وثائق تاريخية خلافا

للاسفار المذكورة وخاصة صفائح البرونز التي تغطي بوابات قصره والتي عثر عليها في تل (بلاوات)(*) والموجودة حاليا في المتحف الانكليزي وكذلك مادونه على مسلته السوداء(**).

ثمة دلائل تنبئ ان (شلمنصر الثالث) قد ادخل الرعب والفزع الى قلوب ملوك بلاد الشام، فالتمعن في طبيعة وحجم التحالف الذي اقاموه ضده يجعلنا في حالة الاندهاش، فالحلفاء خليط غير متجانس لايجمعهم غير العداء للملك الآشوري، وكانت العداوات والحروب الناشبة تصل حد رغبة بعضهم تدمير البعض الاخر،ولكنه كالتحالف بين (المصريين) و(الحثيين) عقب معركة (قادش).

لقد كان الحلف الذي شارك او ساهم فيه (١٢) ملكا يتألف مما يأتي:

-(ابن حدد) ملك (دمشق) يسميه الآشوريون (ادد- اد – ري) وكان زعيما لذلك التحالف وكان بصحبته ١٢٠٠ عربة و ١٢٠٠ فارس مع (٢٠) الف جندي.

-(اير خوليني) ملك (حماة) وبصحبته ٧٠٠ عربة و ٧٠٠ فارس و (١٠) الاف جندي.

---

*تل بلاوات(٢٤ كم شرق الموصل و ٩ كم عن مدينة نمرود) كان موقعا لمدينة (كر – انليل) الاشورية.

**المسلة السوداء:نحت على حجر المرمر الاسود، على شكل برج مدرج عثر عليه في (كالح) نمرود، موجودة حاليا في المتحف الانكليزي، يبلغ ارتفاعها حوالي مترين. زينت بخمسة انطقة بارزة النحت تتكرر في كل جانب من جوانب المسلة تتضمن تقديم فروض الولاء والخضوع من قبل الملوك والحكام امام (شلمنصر الثالث) ومن بينهم (ياهو) الذي حضر كما دون على المسلة الى ارض (عموري) ليقدم الجزية مقبلا الارض عند موضع قدمي (شلمنصر).(١٦).

-(آخاب) ملك(السامرة) ساهم بالفي عربة و (١٠) جنود.

-(ماتينو) بعل ملك (ارواد)ومعه (٢٠٠٠) جندي.

-اما بقية اطراف التحالف فكانت مساهماتهم اقل من ذلك وكما يلي:

-(موصيري) ١٠٠٠ جندي (ويشير الاسم الى بلده في جنوب آسيا الصغرى)[١٧](*)

-(قوى) ١٠ عربات و ٥٠٠ جندي.

-(عرقانا) (١٠) الاف جندي.

-(اشناتا)٢٠٠ جندي.

-(سيناو)٣٠ عربة والف جندي.

-امارة عربية ١٠٠٠ جمل.

كما ساهم في التحالف(بعشا بن رحوبي، والعمونيون).

ولم تدون تفاصيل معركة (القرقار) بشكل واضح في المخلفات الوثائقية الآشورية اكثر مما اورد الملك (شلمنصر الثالث) الذي قال عنها" فكانوا اثني عشر ملكا نازلوني في معركة حاسمة لكنني هزمتهم بين مدينتي قرقار وجيلز فامتلأ نهر العاصي بجثثهم، وقتلت منهم (١٤) الف جندي بالسيف وامطرتهم كما يفعل ادد.. لم يستوعب الوادي

---

*لم نجد في معجم البلدان بلدة في تلك الانحاء يطابق او يقارب اسمها ما اشير اليه سوى (المصيصة)الواقعة على شاطئ (جيحان) من ثغور الشام بين (انطاكية) وبلاد الروم تقارب (طرطوس) سميت باسم الذي عمرها وهو (مصيصة بن الروم بن اليمن بن سام بن نوح)[١٨]. اما (جوسيت ايلاي) الذي ينقل عنه رافد كاظم كريدي الصالحي من مقال نشر في مجلة سومر المجلد ٤٢ فيذكر اقليما فينيقيا باسم (صيميرا) الذي تقع اطلاله في منطقة (تل كازل) الحالي جنوب جزيرة (ارواد) وللمزيد تراجع رسالة الصالحي (مصدر سابق) ص ٤٨.

اجسادهم لضيقه وكذلك الريف الفسيح لم يستوعب مقابرهم لذا جعلت اجسادهم جسرا في نهر العاصي"[١٩].

وللتقرير المطمئن على انتصار (شلمنصر) في معركة (قرقار) فاننا ومن خلال تأمل سير احداث المعركة ومداخلاتها نجد مايلي:

١.كان التحالف الشامي ذا طبيعة عدوانية يهدف الى تقويض دعائم الدولة الآشورية والقضاء عليها ودليلنا على ذلك ان الملك الآشوري اضطر الى عبور (الفرات) في وقت الفيضان" في السنة السادسة من حكمي عبرت نهر الفرات في ذروة فيضانه"[٢٠]. وهذا أمر خارج المألوف الذي دأب عليه (الآشوريون) الذين كانوا يشرعون بحملاتهم في شهر تموز حيث يكون الحصاد قد انجز والماء في نهر (الفرات) في ادنى مناسيبه(الصيهود). وهذا امر ذو مغزى عميق يحملنا على تفسير عبوره الاضطراري برد فعل (هجوم احباطي او ضربة وقائية). ويعزز تفسيرنا اضطراره ثانية لعبوره (الفرات) في ذروة فيضانه في العام الحادي عشر من حكمه فحرق مدنا ودمر اخرى مما يعني انه عبر مستعجلا الانتقام هذه المرة.

٢.ان بقاء (شلمنصر الثالث) في بلاد الشام يتجول في ربوعها عقب معركة (القرقار) دليل على انتصاره في المعركة، ولو كان قد خسرها امام حشد ضخم كالذي ألفه التحالف المعادي لكان قد لوى عنان جواده ويمم مذعورا شطر عاصمته لينظم الدفاع عنها او على الاقل لينجو بنفسه وبقية قواده. وهذا لم يحصل بل بقي هناك مطمئنا هادئا بعد ان مزق فلول التحالف.

٣.سرعة انهيار التحالف دليل على فشله وذهاب ريحه، حيث تغيرت التحالفات لاحقا وهجم ملك (دمشق) على أملاك حلفائه في (رامات جلعاد) واحتلها في نفس السنة التي وقعت فيها معركة (القرقار) ٨٥٣ق.م وهو الامر الذي دعا (آخاب) ملك (السامرة) الى

التحالف مع (يهوشا فاط) ملك(يهوذا). ثم يقتل(آخاب) في المعركة اللاحقة في نفس السنة ويخلفه ابنه(اخزيا ٨٥٣- ٨٥٢ ق.م).

لقد الحق(شلمنصر الثالث) باعدائه خسائر فادحة، الا أن عجزه عن احتلال(دمشق) أو متابعة الحصار [٢١]، جعل المتقولين يدعون بخسارته معركة(القرقار) وهو شطط بالرأي لا ريب.

وعقب مقتل(آخاب) ملك (السامرة) على ايدي حلفائه السابقين، فقد بدا الضعف والهزال يدب في كيان مملكته، وكانت مملكة(دمشق) قد ارهقت كثيرا بفعل الخسائر التي تكبدتها في معركة(القرقار) إضافة الى ما جره عليها حصار(الآشوريين) من مشاكل كبيرة، وكان موت ملكها العجوز(إبن حدد) ثالثة الأثافي في مصيبتها فقفز الى عرشها(حزائيل) الذي واصل عداء سلفه للآشوريين من غير حلفاء، بينما اتى انقلاب عسكري في(السامرة) بالضابط (ياهو) الذي تبوأ عرشها ٨٤١- ٨١٣ق.م فمتع نفسه بحفلات دموية قضى خلالها على كل افراد عائلة سلفه (آخاب) ومؤيديهم ولم يتورع عن ممارسة اعمال قتل يخجل(الآشوريون) المتهمون بالسادية عن الاتيان بمثلها. فقد القى(ياهو) بزوجة الملك القتيل(آخاب) المدعوة(ايزابيل) الى الكلاب توخيا لمزيد من المتعة في القتل.

ولعل دراسة تفاصيل المسلة السوداء التي نحتت احتفاءً بانتصار باهر في معركة(القرقار) والحوادث التالية لها، وتلك التفاصيل يحاول بعض ذوي الغرض السيئ غض الطرف عنها كالمشهد الذي يبين(ياهو بن شافاط) بوضع ذليل كما قدمنا وانه قدم جزية مؤلفة من الذهب والفضة وبينها اوان ومزهريات واقداح مختلفة ودلاء ذهبية وعكازة الملك ومواد خشبية[٢٢] إضافة الى الاثاث الباذخ الذي كان يملأ قصره الملكي[٢٣]. وإذا ما تمعنا في كون رمزية عكازة الملك من بين مواد الجزية، فأن ذلك ربما يرمز الى فقدان المملكة اليهودية الشمالية

استقلالها تماما من خلال تنازل ملكها عن صولجانه مما يفسر ما قاله الدكتور سامي سعيد الأحمد(وبذلك جعل ياهو المنطقة التي يحتلها جزءا من الامبراطورية التي يحكمها هو بالنيابة عنهم)(٢٤).

وبعد أن توفي(ياهو) فقد اقر الآشوريون صعود ابنه(أحاز) خلفا له ٨١٤- ٧٩٨ ق.م، الا انه لم يكن بنفس قدرة والده على الخضوع للسلطة المركزية الآشورية وشعر (الآشوريون) بذلك لذا فرضوا عليه مراقبة صارمة. وعندما انكشف سوء نيته فقد عمدوا الى تقليم اظفاره بتقليص جيشه تقليصا كبيرا بجعله قوة حماية محلية وحسب، حيث سمحوا له بالاحتفاظ بـ(٥٠) فارسا و(١٠) عربات و(١٠) الاف جندي مشاة(٢٥).

اعقب(شلمنصر الثالث) ابنه(شمشي- ادد الخامس ٨٢٤-٨١١ق.م) ولم يثبت قيام هذا الملك باي جهد في المسرح الشامي بسبب انشغاله في اخماد حركات مضادة داخل العاصمة وبعض مدن المملكة الاخرى، وقد اضاع خمس سنوات في هذه المهمة، ثم انتقل بعد استتباب الامن الداخلي لمعالجة تدهور الموقف في الشمال الشرقي وفي الجنوب حيث كانت الاضطرابات في منطقة(بابل) تتأجج مما دعاه لان يداهمها مرتين. ثم فجأة اعلنت وفاته واستولت على العرش زوجته (سميراميس) فارضة وصايتها على ابنها (ادد- نيراري الثالث). وتبعا للتعتيم الذي لف فترة حكمها من الناحية التاريخية، فليست لدينا وثائق عن الاوضاع في فلسطين خلال حقبة حكمها.

وما ان حرر (ادد ـ نيراري الثالث ٨٠٩-٧٨٢ ق. م) نفسه من وصاية امه حتى استعاد نشاط جده (شلمنصر الثالث) في مسرح العمليات السوري وتوابعه. فقد اغرى انكفاء (الاشوريين) وعدم تنفيذهم حملات في ذلك المسرح ملك(دمشق) للتفكير في اعادة التحالفات السابقة ضد الدولة الآشورية على الرغم من

ان ملك اليهود الشماليين الجديد(يواش بن آحــــاز) مــــايزال وقتــذاك خاضعا للعرش الاشوري متمتعا بحمايته حيث لم يجـــد حرجـــا فـــي مهاجمة مملكة(دمشق) برغم التقليص المفروض على جيشه وســـجل ثلاثة انتصارات على ملكها (ابن حدد الثالث) في منطقة (افيق).

رأى (ادد- نيراري) ان لا وسيلة تجبر ملـــك (دمشـــق) علـــى التخلي عن نياته غير ان يعبر اليه بنفســـه. ونتلمـــس صفحـــة مسـلة (السباعة)(*) لنقرأ عليها ما كتب هذا الملك مؤرخا عملـــه ذاك حيـــث يقول " في السنة الخامسة من سلطتي جلست بوقار على العرش الملكي وحشدت البلاد للحرب وامرت جيشي الكبير للســـير الـــى فلســـطين وعبرت الفرات في ذروة فيضانه"، واختار مدينـــة (قـــادش) جنـــوب (حماة) مقرا متقدما له يدير منه عملياته الشامية. لقد عادت (دمشـــق) تدفع الجزية، وكان استمرار الصراع بينها وبين مملكـــة (المـــامرة) يصب في مصلحة (الآشوريين) دونما شك.

وفي المملكة اليهودية الجنوبية (يهوذا) اغتيل في تلك الحقبة ملكها (يهواش) وحل محله ابنه (امصيا ٧٦٩-٧٦٧ ق.م) حيث عمد الى مد سلطته حتى شمال خليج (العقبة) باستيلائه على اراض ادومية جديدة.

---

*مسلة السباعة: مسلة من حجر دون عليها (ادد نيراري الثالث) فعاله الحربية فـــي بلاد الشام وخاصة حوادث العام الخامس لجلوسه على العـــرش عـــثر عليها مؤخرا مع اختلاف في تحديد المكان الاصلي لها بيـــن ان يكـــون منطقة (سنجار) او قرب مجرى (الفرات) شمال البو كمـــال، وهـــي بالاضافة الى مسلة تل الرماح كانتا مصدرين مـــهمين مـــن مصـــادر معلوماتنا عنه. علما انه توجد اشارات لمسلات اخرى تركها هذا الملـــك في (زباني) وغيرها [٢٦].

ولقد استمر (يربعام الثاني ٧٨٢-٧٥٣ ق. م) في سياسة التحرش بمملكة (دمشق) الارامية مستغلا رضا (الآشوريين) ومباركتهم،اضافة لابتعادهم عن هذا المسرح لانشغالهم في مسارح اخرى حيث تطلب الامر ارسال جيوشهم لترسيخ دعائم الامن على الحدود الشرقية والشمالية وخاصة تجاه) اورارتو) في وقت كان الملك الآشوري (ادد- نيراري الثالث) ينتظر رحيله النهائي، وان ابنه (شلمنصر الرابع) يستعد لاستلام التاج ويدرب نفسه على قيادة الدولة، وكان في نيته شن حملة على البلاد الشامية، الا اننا لا نملك معلومات تفصيلية عن تلك النيات وهل حققها ام انها بقيت مجرد نيات، عكس اخيه الذي اخلفه على العرش (آشور - دان الثالث ٧٧٢-٧٥٤ ق. م) الذي ساهم في تسطير احداث حربية في بلاد الشام ولكنها على ما يبدو غير موفقة، وكان اخوهم الثالث الذي استلم الحكم بعد ذلك(آشور- نيراري الخامس٧٥٣-٧٤٦ ق. م) خامل الذكر، قتل خلال مؤامرة تمت في قصره ليستلم العرش رابع اولاد (ادد- نيراري الثالث) وهو الملك (تجلات بلازر الثالث ٧٤٤-٧٢٧ ق. م) والذي يعد بحق مؤسس حقبة جديدة في تاريخ الدولة الآشورية.

لقد فتح صفحة جديدة من تاريخ العمليات العسكرية الآشورية في بلاد الشام وخاصة ضد (اليهود) الذين ميزوا حكمه في تاريخهم، واطلقوا عليه اسم (فول) عندما تناولوا اخباره في سفر الملوك الثاني.

وهذا الاسم هو تحريف للإسم الذي اطلقه على نفسه عندما كان حاكما على (بابل) خلال حكم اخوته الثلاثة وهو (بولو). وكانت (ارواد) مقره المتقدم في فترة ادارته العمليات العسكرية في بلاد الشام.

وفي مملكة (السامرة) كان (مناحم بن جادي) قد ركب رأسه وخرج على طاعة الدولة الآشورية معتقدا ضعفها، وعندما توجه (تجلات بلازر) نحو (فلسطين) فقد بعث من يفاوض (مناحم) ويعيده

الى طاعة (الآشوريين) والاستمرار على دفع الجزية التي كانت قد فرضت بواقع (٥٠) شيقل عن كل رجل وكانت قيمتها الكلية(١٠٠٠) وزنة من الفضة. ولم يطل التفاوض حيث تعترف اسفار العهد القديم بعودة مملكة (السامرة) الى التبعية الاشورية" فجاء ملك آشور على الارض فاعطاه (مناحم) الف وزنة من الفضة لتكون يداه معه ليثبت المملكة في يده"[٢٧].

لقد صار مؤكدا لدينا ان (مناحم) دفع الجزية بانتظام لعدة سنوات لاحقة وخاصة الاعوام ٧٤٣ و ٧٤٢ و٧٣٨ ق. م[٢٨].

ولم تكن حملة (تجلات بلازر) قد شملت عمليات عسكرية ضد المملكة اليهودية الجنوبية التي كان يحكمها(عزريا) والذي عاصر (تجلات بلازر) اربع سنوات اصيب خلالها بالبرص وكان مشغولا بقتال اهالي البلد الاصليين من (فلسطينين) و (عمونيين)، وكان يحسب حسابات التغيرات السياسية الكبرى حيث انهمك في رفع وتحسين اسوار(اورشليم)[٢٩] تمهيدا للصمود داخلها عند الحاجة مستقبلا(*). ولما كانت اهداف الحملة قد تحققت سريعا فلم يكن ثمة ما يتطلب اطالة مكوث الملك في(فلسطين) خصوصا وأن(اليهود) عادوا الى رشدهم وأقروا بالتابعية للآشوريين، إضافة الى أن تغييرا

---

*برغم الموضوعية التي الف بها (ساكز) كتبه، الا ان المبحث الموسوم (التوسع في عهد تجلات بلازر الثالث) لم يخل من تشويش لانه اعتمد على تفسيرات جيم تدمر الاسرائيلي كما يعترف في الصفحة ١٢٩(من الترجمة العربية) من كتابه (قوة آشور) وكما اشرنا الى ذلك في المقدمة. لذا حاول التقليل من احتمالات دفع(مناحم) للجزية برغم وجود نص توراتي صريح وحاول ايهام القارئ بخصوص اسماء الملوك(عزريا- مناحم) وتشويش افكاره بالاستفادة من اسماء الملوك اليهود في كل من الكيانين الشمالي والجنوبي. فراجع ذلك في محله ودقق لتتيقن وتحكم.

سوقيا قد حصل علـــى السياســة العليــا للدولــة الآشــورية جــراء تهديد(أورارتو) للطرق التجارية المهمة في شمال بلاد(الشام) وبضمنـها منطقة(كركميش) الحاكمة في ثنية(الفرات) مع وجود دلائــــل نــزوع مصريٍ نحو التحرك، برغم ضعف امكانياتها، وتبعا لمتطلبات الموقـف السوقي العام فقد قرر الملك الآشوري اختيار(حداتو) التي هي(ارســلان طاش) الحالية مقرا متقدما لادارة العمليات الشامية لأهمية موقعها بيــن (حران)و(كركميش). فقد عثر المنقبون على قصر فخم الحق به معبــد كبير دلالة على طول المدة التي كان يقضيها الملك الآشوري هناك.

لقد كانت المواقف سريعة التغير في الكيانين اليــهوديين (الســامرة ويهوذا) خصوصا بسبب كثرة المؤامــرات الداخليــة، ربمــا كــانت السياسات الخارجية والولاءات تتغير تبعا لتغير القيادات، وكان يتعيــن على الملك الآشوري ان يبقى مستنفرا نفسه وقواته باستمرار لكـــي لا يفلت زمام الامور من يده في تلك المناطق التابعة له.

فالملك اليهودي(مناحم) مات واخلفه ابنه (فكاحيا) الذي لم يســتطع الاحتفاظ بملكه ولا بحياته اكثر من سنة حيث قتله (فقح) الــذي كــان قائدا لخمسين جنديا والذي حكم بعد ذلك ثماني سـنوات ٧٤٠-٧٣٢ ق. م .لقد كانت العقد النفسية، والتأثيرات التـــي خلفتــها وراء تصرفاتــه المتسرعة اللاحقة . فقد ناصب ملك (يهوذا) المدعو (آحاز) العــداء. ولم يقف عداؤه عند حد المهاترات بل ارتكب حماقة لم يحسب حســابا لما ستجره عليه من عواقب عندما اقدم على التحالف مــع (راصيــن) ملك (دمشق)، خصوصا وان تحالفا كهذا يثير الريبة فـــي العاصمــة الآشورية لوجود اكثر من سابقة مماثلة في تاريخ العلاقات السياسية في بلاد الشام كانت مبعثا لانزعاج (الآشوريين) وبسبب حراجة الموقــف في (اورشليم) الناجم عن ضعف موقف ملكـــها وخســارته لمعركــة

حاسمة مع تحالف (فقح – راصين) قرب اسوار عاصمته ونجاح (الفلسطينيين) في الاستيلاء على مدن كثيرة منه الى الدرجة التي حرموه فيها من التواصل مع خليج (العقبة)، وكان (الادوميون)قد وجدوا الفرصة السانحة للاستحواذ على مايمنون النفس به من غنائم بالهجوم على هذا الكيان المستباح، بسبب ذلك كله فقد اعد (آحاز) ملك (يهوذا) هدايا ضخمة ذات قيمة بالغة ومؤثرة جمع مادتها من محتويات قصره ومن الهيكل ومن كل زعماء و رؤساء القبائل والوجهاء وارسلها الى (تجلات بلازر) بصحبة وفد على مستوى عال يحمل رسالة توسل ورد نصها في سفر الملوك الثاني جاء فيها" انا عبدك وابنك، اصعد وخلصني من يد ملك آرام ومن يد ملك اسرائيل(*) القائمين علي"(٣٠).

ولم تتأخر استجابة (تجلات بلازر) حيث قاد الجيش بنفسه ودخل (دمشق) وفيها القى القبض على (راصين) ثم استدعى (آحاز) لينفذ حكم الاعدام بحق ملك (دمشق) بحضوره. لقد قدم (آحاز) فروض الولاء والطاعة لسيده وكرس نفسه تابعا له الى درجة انه ادخل بعض جوانب العبادة الآشورية في جملة الطقوس العبادية اليهودية(٣١).

ونقف على اعتاب معضلة جديدة بسبب اختلاف في النصوص، فما ان ازاح (تجلات بلازر) حكومة (راصين) والحق (دمشق) بالتبعية الآشورية حتى قرر التوجه الى (السامرة) للقضاء على ملكها (فقح) واعتلى العرش (هوشع ٧٣٢-٧٣٣ق. م) الذي اعلن تابعيته للعرش الآشوري، والاختلاف هنا حول عدم معرفة ما اذا كان الملك الآشوري قد دخل (السامرة) وقتل ملكها وعين (هوشع) بدلا عنه، ام

---

* يقصد ملك المملكة الشمالية (السامرة).

انه كان مازال في الطريق وسارع (هوشع) بتنفيذ انقلابه ليحمي (السامرة) من غضب (تجلات بلازر)؟

ونجد في وثيقة تركها لنا هذا الملك الاشوري ضوءا على ما حصل " اخذت كل سكان السامرة واملاكهم الى بلاد آشور، فطاحوا بملكهم فقح، ونصبت هوشع ملكا عليهم واستلمت منه عشر وزنات ذهب والف وزنة من الفضة جلبتها الى بلاد آشور"[٣٢] نستنتج ان ما خلفته مسيرة الجيش الآشوري الذي جاس خلال الديار باسلوب استباحي غليظ، جعل قادة الجيش اليهودي الحريصين على مصلحة كيانهم ينسقون مع الملك الآشوري في احداث انقلاب عسكري يشير اليه الملك فعلا بقوله"فاطاحوا بملكهم فقح" ولكنه فعل لايخلو من تنسيق مع (تجلات بلازر) بلا شك، كونه خفف من غلوائه كثيرا، خصوصا وانه ضم نصف مملكة (السامرة) الى الامبراطورية الآشورية[٣٣]ضما كاملا ومباشرا.

لقد هدأت الاوضاع في بلاد (الشام) بعد ان قطعت رؤوس الفتنة وصار كل من (يهوذا والسامرة) توابع للدولة الآشورية، وملوكها مجرد حكام يتطلعون الى نيل رضا وحنان الملك الآشوري. واستمر الحال على هذا المنوال حتى اسلم (تجلات بلازر) الروح عام ٧٢٧ ق. م حيث اعتلى العرش ابنه (شلمنصر الخامس ٧٢٧-٧٢٢ ق.م).

وجد الملك الالعوبة (يوشع) ما ظنه فرصة للعصيان مستغلا مرحلة التغيير في السلطة التي حصلت في العاصمة الآشورية عقب موت ملك واستلام اخر. وكان استثقال مبلغ الجزية التي الزم نفسه بدفعها الى (الآشوريين) السبب العلني في عصيانه الذي كان (اللوبي المصري) في (السامرة) قد اثاره وتبناه الملك. وكانت (مصر) تهدف من وراء

ذلك الى اقلاق (الآشوريين) وارهاقهم ان لم تستطع مملكة (السامرة) تحقيق غايتها بالخروج عن طوعهم والالتحاق بالركب المصري.

لقد (جنت على اهلها براقش)[*] حيث اصر الملك الآشوري الجديد على حسم موضوع الكيان اليهودي في (السامرة) وانهائه كونه وسيلة دائمة لإثاره المشاكل والمتاعب في المنطقة. وتنفيذا لما عقد عليه العزم فقد توجه شخصيا على رأس حملة قوية، فضرب طوقا حصاريا على (السامرة) امتد لثلاث سنوات.

ان التمعن في (الاصحاح: ١٧) من سفر الملوك الثاني يوضح صراحة ان (هوشع) كان يعد العدة لمؤامرته العصيانية منذ امد طويل، حيث يقول"ووجد ملك آشور في هوشع خيانة. لانه ارسل رسلا الى سوا ملك مصر ولم يؤد الجزية الى ملك آشور حسب كل سنة فقبض عليه ملك آشور واوثقه في السجن"[٣٤]، وفي ذلك تفسير لمعنى بقاء مدينة هامشية مثل (السامرة) عصية على الملك الآشوري طيلة ثلاث سنوات اذ ان (هوشع) قد اعد العدة لحصار طويل مؤملا رعيته بعون مصري لايتحقق الا في الخيال المريض.

وسواء لدينا انجاز فتح (السامرة) في زمن (شلمنصر) ام في زمن خليفته (سرجون). اذ كان الهدف الآشوري الذي خطط له (شلمنصر) في انهاء هذا الكيان المتآمر الذي كان يحكمه ملك نصبه

---

*جنت على اهلها براقش:مثل يراد به ما يلحق القوم من مصائب جراء حماقة احدهم، وهو في الاصل قصة قوم تخفوا ليلا عن خصم يلاحقهم، وكانت بصحبتهم كلبة اسمها (براقش) ونجحوا في التخفي والتعتيم على الخصم لولا نبحت (براقش) فاستدل عليهم خصومهم بنباحها فظفروا بهم فابادوهم بجريرة نباحها فارسلته العرب مثلا.

(الآشـــــوريون) وتــــآمر عليـــــهم، قـــد تحقـــق، وصـــارت مملكة (السامرة) مقاطعة تابعة، وصارت تحكم مـــن قبـــل العاصمـة الآشورية مباشرة بعد ان جرى ترحيل العناصر التآمرية المثيرة للشغب الى انحاء اخرى، من الامبراطورية والاتيان بعناصر بديلة من شـعوب واقوام مختلفة للحلول محلهم.

ولانشك ان عملية الترحيل تمت على يد (سرجون) حيـــث تـرك وثيقة تقول" جلبت ٢٧٢٩٠[٣٥] من اهل السامرة ومعهم حمولتهم واملاكهم كغنائم وشكلت خمسين عربة للحرس الملكي"ويبقى الباحثون عن أي من الملكين فتح (السامرة) في حيرة من امرهم، اذ هـــل ان (ســـرجون) رحل اهل (السامرة) بعد فتحها مباشرة ليسجلوا له فضل فتحــها، ام ان الترحيل تم بعد الفتح بفترة جراء اعمال شغب وتمرد حصلت فيها خلال فترة حكم (سرجون)؟. عموما ذاك امر لانهتم به كثيرا هنا.

وعقب تلاشي مملكة (السامرة) وانتهاء دورها السياســـــي، عـــاود المصريون محاولاتهم في استقطاب الحاقدين من ملوك الشام (حمـــاة وارواد ودمشق ويهوذا وغزة) ومع هؤلاء لفيف من الهاربين الذيـــن افلتوا من قبضة (الآشوريين) من سياسيين وقادة مملكـــــة (الســامرة) المنحلة مما دعا (سرجون الثاني) الى مواجهة هذا الحلف حيث كـــانت البداية في معركة(القرقار الثانية) عام ٧٢٠ق.م التي تشـــتت عقبــها زعماء الحلف واطلقت يد (سرجون) في بلاد الشام بحرية تامة .

وكان ملك (يهوذا) (حزقيا٧١٥ – ٦٨٦ ق.م)قد تورط في عداوة لم يكن اهلا للاضطلاع باعباء عواقبها عندما تجرأ واستقبل فـــي العـام ٧١٢ ق.م وفدا يحمل رسالة من الخائن (مردوخ – ابلا – ادينا). ثـم انساق وراء رغبات اللوبي المصري الفعال داخل بلاطه والــذي كـان يتزعمه (شيبنا)[٣٦] حاجبه الارامي. واندفع (حزقيا) وراء تحريـــض

(مصر) المباشر له للتمرد والعصيان بوجه اسياده (الآشوريين)، ولم يرعو برغم جهود (اشعيا) الرامية الى رده الى جادة العقل والصواب ليس حبا بالآشوريين ولكن تحسبا وخوفا على مصير الكيان السياسي اليهودي واتعاظا بما حصل للمملكة الشمالية.

وبسبب النهج الخاطئ الذي اعتقده (حزقيا) وسيلة لتدمير الدولة الاشورية(!!) فقد اصر عليه انطلاقا من تقدير خاطئ للموقف السوقي.(*) فهو قد راقب حلفاءه وهم يخرجون من دائرة التبعية الآشورية، فملك (اشدود) المدعو (يماني) تمرد، وكذا فعلا ملكا (ادوم وموآب)، وكان المحيط الخارجي للامبراطورية يغلي تحت تأثير المتمردين ودعاة الانسياق وراء(مصر)، حيث كانت تدفعهم هذه الاخيرة نحو الهاوية، أما في الشرق فالعيلاميون نسقوا جهودهم مع(الاورارتيين)،ولم تكن(بابل) التي تتحين الفرص للخروج من الدائرة الآشورية باقل حماسة من كل هؤلاء، فكان(سرجون) برغم الموقف الذي لو وجد غيره نفسه فيه لارتبك، قد درس الحقائق واستحضر الامكانات المتاحة وقدر الموقف بصواب، فارسل رئيس اركان الجيش(الترتانو) الى فلسطين حيث شرع في مهمته بادئا بتلقين ملك(اشدود) الدرس الأول في تلك المهمة الغاضبة ولكنه لم يظفر به حيث "هرب الى الحدود المصرية واختفى هناك كاللص تاركا زوجته واطفاله" (٣٧) ثم مارس(التورتانو) اعمال التأديب ضد بقية الملوك العصاة المشاركين في التحالف التآمري. ولم يتح لنا المؤرخ الآشوري الرسمي فرصة الاطلاع على الكيفية التي جرى على وفقها تأديب ملك(يهوذا)، حيث اكتفى باخبارنا انه "تم اخضاع بلاد يهوذا البعيدة،

---

* السوقي: الاستراتيجي.

وازالة حاكم حماة- ياو بعدي الذي قبض عليه" خصوصا وانه عقب العفو الذي من به(سرجون) على(مردوخ -ابلا- ادينا) وقيامه بحكم(بابل) مباشرة من خلال تقلده تاجها فان التمرد والعصيان فيها قد تلاشى حتى نهاية حكمه مما اتاح له فرصة تحرير قطعاته منها وارسالها الى بلاد(الشام)(٣٨).

ومن خلال تعرفنا على اساليب عمل ملوك (يهوذا) في المواقف الحرجة نكاد نجزم انه ارسل الهدايا والتوسلات واستعداد الخضوع والطاعة واعلان التوبة، والى ان نحصل على وثيقة تاريخية تحمل غير هذا الاعتقاد، فأننا سوف نبقى متمسكين به.

سواء كانت نهاية (سرجون) قتلا في عاصمته الجديدة (دور شروكين) او في معركة مع (**الاورارتيين**) في الشمال، فأنه بلا شك نجح في ابراز جوانب القوة والعظمة الدولية لبلاده، واستطاع اقتلاع واجتثاث جذور التمرد والعصيان من الكيان اليهودي الشمالي(مملكة السامرة الملغاة) بترحيل العناصر الاكثر رعونة وعدوانية وانه اسس سلالة ملكية جديدة قادت بعنادها وطموحاتها اللامحدودة دولتهم الى نهاية ماسأوية، في ذات الوقت الذي كان عالم ذلك الزمان يحبس انفاسه خوفا من تورط ملوكه في مؤامرات ضد هذه الامبراطورية القوية شديدة البطش بالخونة والمتآمرين.

ومع اعتلاء (سنحاريب) العرش الآشوري عام ٧٠٤ ق. م كانت اخطار جمة تحيط بامبراطوريته، ففي مايسمى الان (ايران) كانت اقوام شرسة تمني النفس في اقتطاع اجزاء مختارة من جسد الامبراطورية الآشورية، وكان (الاورارتيون) يتطلعون الى ماوراء الجبال التي تفصلهم عن تلك الامبراطورية. في ذلك الوقت الصعب ظهرت اخطار وتهديدات لم يكن لها تأثير خطير في السابق كالاغريق

والاقوام المتخلفة القادمة من روسيا (السيثيون) وغيرهم. كل تلك الاخطار لم تكن تستحوذ على اهتمام(سنحاريب) بالقدر الذي يفعله خطر التآمر (اليهودي- المصري) في (فلسطين). والغزل المتبادل بين (حزقيا) والخائن البابلي (مردوخ- ابلا - ادينا)، فهذا الغزل يعني ان التآمر اليهودي بلغ عقر دار الملك الآشوري!.

فملك يهوذا(حزقيا) وانطلاقا من حقد واسع، اعتقد واهما ان كثرة الاخطار التي تهدد (الآشوريين) تنطوي على فرصة ثمينة ساقتها اليه الاقدار، وشارك ضمن الجوقة المصرية التي تضم ملوكا لايقلون عنه حقدا بعزف الحان الامل. بينما كانت طبول الحرب تقرع خارج اسوار قصره لتهيئ الناس لقبول ما سيقدم عليه (الآشوريون). وشرع باكمال مستلزمات الدفاع مثل تحسين انفاق المياه[*] التي حفرها(اليبوسيون) قبل اكثر من الفي سنة من تلك الحقبة لجلب الماء الى حصنهم الذي صار عاصمة للدولة اليهودية تحقيقا للاكتفاء الذاتي من المياه في حالة الحصار، كما مر بنا. وفي ذات الوقت ارسل جماهير من رعاياه ليطمسوا معالم الابار والعيون حرمانا للجيش الآشوري من مصادر المياه في المناطق الصحراوية التي سيمرون بها خلال مسيرهم نحوه كما يروي سفر اخبار الايام الثاني.

ولم يفرط (سنحاريب) بوقته حيث رتب مستلزمات ردع الاعداء على الحدود الشرقية والشمالية. فيما انطلق يقود جيشا جرارا لقمع التآمر (المصري- اليهودي) في (فلسطين) حيث بدأ بتصفية حساباته

---

[*] بسبب افلاس اليهود من حضارة مشخصة . فقد عد مفكروهم عمل هذا الملك (تحسين قنوات وانفاق حفرها اليبوسيون قبله بأكثر من الفي سنة) اساسا ماديا لحضارة خاصة بهم. وسيناقش ذلك في موضعه.

مع الشماليين من افراد الجوقة. ولان مؤامرة (حزقيا) كانت واسعة، فقد شملت اعمالا تعرضية ضد الملوك الباقين على ولائهم للملك الآشوري والذين رفضوا الانضمام للحلف التآمري، فقد كان (بادي) ملكا على(عقرون) الا ان (حزقيا) عمل على تحريض اشراف دولته للتآمر ضد ملكهم. وفعلا نشبت في (عقرون) اعمال شغب واضطراب انتهت بالقاء القبض على (بادي) واستكمالا للمؤامرة فقد سلم المتآمرون من اشراف (عقرون) ملكهم الى (حزقيا) ملك (يهوذا)[٣٩] الذي احتفى بتسلمه السلسلة التي كان الملك (بادي) مربوطا بنهايتها فاودعه السجن في (اورشليم). ولم يكن عمل (حزقيا) تآمريا فحسب وانما كان ارهابيا على مستوى عال يهدف الى تجريد (الآشوريين) من حلفائهم الصلبين الخلص الذين يتعذر كسبهم وضمهم الى الاحلاف المضادة.

واستطاع (سنحاريب) اطلاق سراح حليفه المخلص (بادي) من سجن (حزقيا) في (اورشليم)، حيث ورد ما يفيد انه اعاد(بادي) الى الحكم وفرض عليه الجزية، وربما يكون ذلك قد حصل ضمن الشروط التي املاها على (حزقيا) خلال تلك الحملة. وبمسيره المحاذي للساحل فقد اعاد (عسقلون) الى سيطرته بعد ان اعلنت التمرد وعين عليها ابن حاكمها السابق[٤٠].

كانت الاسبقية الاولى ضمن اهتمامات (سنحاريب) بعد ان فتح مقره المتقدم في (لخيش)، (تل الدوير الحالية غرب مدينة الخليل)، حيث استقر استعدادا لادارة العمليات من هناك، هي تأديب (حزقيا) الذي تطاول كثيرا على السلطة الآشورية حيث كلف (الرابشاقي) وهو منصب يعني ان شاغله هو كبير سقاة الملك(ولا نستبعد ان يكون عنوان رتبة عسكرية او منصب عسكري رفيع ولكن أسيء ترجمته مما

يتطلب تدقيق ذلك من قبل المعنيين). وقبل ان يطبق الجيش الآشوري الحصار على (اورشليم) تم ايصال انذار (سنحاريب) الى الملك اليهودي ومعيته متضمنا طلب الاستسلام وتجنب الغضب الذي سينزل الهلاك بساحتهم ان هم اصروا على موقفهم المتعنت.

لقد كان(حزقيا) يمني النفس بان يبر فرعون(مصر) بوعوده التي ساهمت بتوريطه بهذا الموقف، وحاول الفرعون ارسال بعض المرتزقة، الا ان القوات الآشورية فتكت بهم قبل وصولهم المدى الذي يطمئن (حزقيا) المحاصر.

لقد حفل سفر الملك الثاني بنداءات (الرابشاقي) الى سكان (اورشليم) لكي لا يستمروا بالوقوف الى جانب الملك الخاطئ وكان يبين لهم حقائق الموقف السياسي التي اخفاها عنهم ملكهم، لذا حاول الملك وقادته مناشدة (الرابشاقي) ان لا يتكلم بالعبرية، وانهم سيخاطبونه بالارامية التي يجيدها طرفا الحوار خوفا من انكشاف المزيد من الحقائق امام انظار ابناء المدينة المحاصرة الذين اخذوا بفضل نداءات القائد الآشوري يكتشفون حقيقة الاشخاص الذين يقودونهم وبضمنهم (حزقيا)، ولكن (الرابشاقي) اصر على موقفه واخبرهم انه يريد ان يتكلم مع السكان وليس مع القادة. لقد قال (الرابشاقي) للسكان كما يذكره السفر المذكور" قولوا لحزقيا هكذا يقول الملك العظيم ملك آشور. ما الاتكال الذي اتكلت. قلت انما كلام الشفتين هو مشورة وبأس للحرب. والان على من اتكلت حتى عصيت علي . فالآن هو ذا قد اتكلت على عكاز هذه القصبة المرضوضة، على مصر التي اذا توكأ احد عليها دخلت في كفه وثقبتها. هكذا هو فرعون ملك مصر لجميع المتكلمين عليه. واذا قلتم لي: على الرب الهنا اتكلنا. افليس هو الذي

ازال حزقيا مرتفعاته ومذابحه وقال ليهوذا واورشليم امام هذا المذبح تسجدون في اورشليم".

ولم يكن في مستشاري الملك اليهودي رجل رشيد،حيث كان الرجل الذي يهرعون اليه في الملمات (اشعيا) يزيد من إصرار الملك على التحدي عندما قال له حسبما ورد في السفر المذكور" هكذا قال الرب: لاتخف بسبب الكلام الذي سمعته والذي جدف به علي غلمان ملك آشور".

وعقب سوء الاحوال الحاصل في العاصمة المحاصرة لم يجد (حزقيا) الا ان يستسمح (سنحاريب) ويتوسل اليه بالصفح والعفو مقابل اية شروط يفرضها، حيث تضمنت رسالته:" لقد اخطأت. ارجع عني، ومهما جعلت على حملته" . وبهذا جاءت مطاليب (سنحاريب) لرفع الحصار كما يأتي:

- ثلاثون طالنت ذهب (حوالي ٩,٩ كغم)[*].
- ثماني مئة طالنت فضة (اكثر من ٢٤ طنا).
- لوحات الهيكل المرصعة بالاحجار الكريمة.
- ثلاث فتيات من بنات الملك وست من بنات كبار رجال الدولة الى قصر الملك (سنحاريب).
- جميع موسيقيي ومغني الملك اليهودي.
- جزية سنوية منتظمة من الذهب والفضة.[٤٢]

واذا ما تأملنا اللوحة التي نقش عليها الملك (سنحاريب) هذا الانتصار والذي قهر فيه (حزقيا) رأس الفتنة والتآمر وحبسه

---

* الطالنت الواحد يساوي ٣٠,٣ كغم[٤١].

كالعصفور في (اورشليم)[٤٣]،فسنجده يقول: "اما حزقيا اليـــهودي فلم يرضخ لسلطة غيري فحاصرت ٤٦ مدينة من مدنه المحصنـــة عدا القرى المجاورة التي لا يحصى عددها واستوليت عليها كلـــها باستخدام انواع الالات الحربية والمنجنيقات ممـــا ســاعدنا علـى الاقتراب من الاسوار وطرقها. واخذنـــا منـــهم ١٥٠-٢٠٠ نسـمة رجالا نساء واطفالا وشيوخا مع حيواناتهم مـــن الخيـول والبغــال والحمير والجمال وهذه كلها غنائم استولينا عليها. اما حزقيـــا فقـد جعلته حبيسا في قصره كطير في قفص.

واحطته باكوام من التراب للتضييق على من يحاول الخروج مـن باب المدينة.قسمت مدنه التي استوليت عليها على ميتيني ملك اشدود وبادي ملك عقرون وسيليبيل ملك غزة وهكذا قلصت حدود بـــلاده وفرضت عليه زيادة في الجزية التي يدفعها سنويا".

لقد رأى(سنحاريب) أن خضوع(حزقيا) لم يكن كافيا حيث لا بد مـن تلقين فرعون مصر درسا يجعل المصريين يحجمون عن التدخـــل فـــي شؤونه الشامية. وفي(لخيش) مقر قيادته المتقدم، اخـــذ يضـــع الخطـــط اللازمة لاحتلال(مصر). وما أن نضجت الافكار وتكاملت الخطط وتبين أنها عملية وقابلة للتنفيذ حتى امر بالشروع بتنفيذها.

وسلك يقود جيشه، الطريق الساحلي والتي كانت مدنه تحكم من قبـل توابع له، ثم بلغ منطقة(رفح) ولكنـــه عـــاد دون تحقيـق تمــاس مـع جيش(مصر). وإن لم يترك لنا ما نتلمس بضوئه حقيقة ســبب عودتــه حيث لم يرد نص في(ARAB) الذي يعتمد عليه كثيرا في كشف الكثـــير من غوامض واسرار تلك الحقب. الا أن الشامتين من اليهود ادخلوا فـــي اسفار العهد القديم نصا يتضمن حادثا مختلقا لم تؤيده المصادر الأخـرى حيث جاء في سفر الملوك الثاني(وكان في تلك الليلة أن ملاك الـــرب

خرج وضرب جيش آشور مئة الف وخمسا وثمانين الفا. ولما بكروا صباحا اذا هم جميعا جثث ميتة. فانصرف سنحاريب ملك آشور وذهب راجعا واقام في نينوى).

ان المبالغة المفرطة في ادعاء ان ضحايا الكارثة المجهولة كانوا(١٨٥) الف جندي واضحة، اذ ليس من المعتاد ان تكون الحملات الآشورية بهذه الضخامة حيث ان الناجين عادوا مع الملك ولم يعترضهم احد من الاعداء في طريق العودة مما يعني انه كان ضمن قوة مرهوبة الجانب وهو عائد الى (نينوى). ثم ان وجود قوات آشورية ضخمة تعمل على تأمين أمن وسلامة الامبراطورية ضد الأعداء المتحفزين في الشمال والشرق كما مر بنا يجعل من قيادة جيش ضخم بهذا الحجم في مسرح الحرب الشامي امرا غير مقبول إضافة الى التبريرات التي اوردناها سابقا عن تعذر قيادة جيوش تزيد عن (٥٠) الف جندي. ثم اين كان ملاك الرب عندما حبس هذا الجيش (اليهود) في مدينة محاصرة لايصلهم فيها غير السباب والشتائم والكلام اللاذع وفضح الاسرار؟.

ثم أن هناك ما يجب الانتباه اليه جيدا وهو أن(حزقيا) واضب على دفع الجزية السنوية حتى عام ٦٨٧ق.م أي بعد(١٣) سنة من ذلك الوقت. فإذا كان الآشوريون قد خسروا جيشهم وعماد قوتهم فلماذا يستمر على دفع جزية بالغة الى الدولة ليس لها جيش يستطيع اجباره على ذلك؟. ثم ماذا بشأن الاعداء المتربصين عبر حدود الدولة الآشورية شمالا وشرقا في وقت ابيد فيه الجيش الآشوري كما يدعي(اليهود) حيث لم نطلع على تحرشات خطيرة تعرضت لها الدولة الآشورية في تلك الحقبة.

لقد ورث العرش اليهودي(منسى ٦٨٧- ٦٤٢ق.م) وهو ابن الملك السابق(حزقيا) وكان قد وعى الدرس الذي لقنه(سنحاريب) لوالده فظل

يدين للملك الآشوري اللاحق(اسرحدون) بالولاء المطلق والطاعة التامة ويدفع الجزية في موعدها المقرر. وكان(اسرحدون) دبلوماسيا ذا حنكة لم تعكر صفو حكمه الاضطرابات. وقد عاشت عموم بلاد(الشام) في ايامه بهدوء باستثناء(صيدا) التي تورط ملكها(عبدو ملكوتي) بعصيان ضد(الآشوريين) دفعه اليه فرعون مصر(تهراقا). وقد دفعت(صور) الثمن باهظا في الحال حيث استباحها الجنود(الآشوريون) ونهبوا كل شيء فيها دونما تدخل من(تهراقا). لقد كان ذلك العمل دافعا للملك الآشوري(اسرحدون) للتفكير في غزو(مصر) وتلقين(تهراقا) الدرس الذي سيعد به الاخرون. وفعلا احتل عاصمته(منفس) حيث هرب الفرعون جنوبا وعاد بعد ان غادر (اسر حدون) قافلا نحو عاصمته تاركا حاميات من الجنود وهيئات من الموظفين لادارة شؤون(مصر).ولكن(تهراقا) استغل رحيل(اسرحدون) فعاد محاولا تغيير الامر الواقع الذي فرضه ملك آشور، مما اضطر(اسرحدون) الى العودة الى احتلال(مصر) ثانية ولكنه مات في الطريق قرب(حران) واوكل المهمة الى من يليه.

وعلى الرغم من ضعف(منسى) ملك(يهوذا)، الا أن التحريض المستمر حرك في دواخله نوازع التمرد والعصيان، فانظم الى احد عشر ملكا من ملوك الشام في حركة تحالفية لاعلان التمرد والعصيان على(آشور بانيبال ٦٦٨- ٦٢٧ق.م) الذي يعدد اسماء هؤلاء الملوك على نصب حجري، ولكنه لم يكلف نفسه عناء كتابة مجرى الحوادث الذي نجم عنه تدمير ذلك التحالف. لقد كان همه اكبر من هؤلاء الملوك الصغار، حيث عقد العزم على معاقبة من يقف وراءهم انه(تهراقا) فرعون(مصر).

وكان توجهه الى(مصر) ليس بقصد احتلال(منفس) كما اكتفى ابوه من قبل، بل واصل اندفاعه نحو عاصمة الجنوب(طيبة) برغم بعد

المسافة بينهما. وقام بتعيين(نيخو) فرعونا لمصر يأتمر بامر التاج الآشوري، بدلا من(تهراقا) المخلوع مستفيدا من تجربة ابيه الذي لم يفكر بتنصيب احد على العرش المصري مما جعل(تهراقا) يستعيده بسهولة.

وعقب وفاة(تهراقا) قام ابنه بتمرد ضمن محاولة للاطاحة بالفرعون المعين(نيخو) عام ٦٦١ق.م. حيث اضطر (آشور بانيبال) الى محاولة احتلال(طيبة) فاستتب الأمن في(مصر) التي صارت تأتمر بأمر الملك الآشوري، لذا لم يعد ثمة تآمر وتحريض في مسرح بلاد(الشام)، واستمر الحال على هذا المنوال حتى سقطت الإمبراطورية الآشورية عام ٦١٢ق.م.

ترى هل سيكف(اليهود) عن ممارسة التآمر ضد الدولة الآشورية برغم ضعف ملكهم وغياب المحرض الاكبر؟.

لقد أخذ سيل من التقارير الاستخبارية ينهمر على البلاط الآشوري تشير بنودها الى حصول اتصالات مريبة بين انظمة لا يركن الى ولائها ولا يطمئن الى نياتها وبين شقيق(آشور بانيبال)المعين حاكما على(بابل) من قبل اخيه الإمبرطور. فقد اخذت تبدر تصرفات مريبة عن هذا الاخ الذي(ثوره) جو(بابل). وعندما فحصت المعلومات الواردة ضمن تقارير الاستخبارات تلك والتي تشير الى تلك الاتصالات بوضوح تام ودقة وعناية، اتضح أن مملكة (يهوذا) التي كانت معزولة عن مجرى الحوادث منذ عدة عقود عندما اقتلع(سنحاريب) عام ٧٠١ق.م انيابها ومخالبها، اخذت تخطط مع الشقيق المتآمر الذي يتحصن في(بابل) ويهيئ سكانها للتمرد والعصيان معتمدا على وعود ومساعدات من مختلف اعداء الدولة الآشورية(العيلاميون والآراميون والفينيقيون والمصريون واليهود).

بأي جبهة سيبدأ(آشور بانيبال) انتقامه، ليضمن شل وتدمير هذا التحالف المريب؟ لقد استقر على أن تكون نواة هذا التحالف هي البداية

فهاجم(بابل) التي انتهى عصيانها بانتحار قائدها شقيق الإمبراطور كما مر بنا. ثم ارتكب القائد غلطة العمر عندما كلف الجحافل الآشورية الضاربة بتدمير دولة(عيلام) ومسحها من على الخارطة السياسية. فهي في ذلك الوقت مجرد كيان ضعيف سبق وأن استجدى الطعام من(الآشوريين) الذين انقذوا حياة ابناء شعبه، بينما اتاح تدميره الفرصة للميديين لأن ينشطوا سرا في غفلة عن عين الرقيب الآشوري، وفي غياب خصم قوي في الاصقاع المجاورة. وعلى ايدي هؤلاء(الميديين) كانت نهاية(الآشوريين). كونهم شكلوا نصف التحالف الذي نجح في مهمة القضاء على الدولة. ولو كان(آشور بانيبال) قد ابقى على(العيلاميين) ولو ضمن كيان هزيل لكانوا بالمرصاد لفلول(الميديين) الذين كانوا قبائل بدوية متشردة في مناطق واسعة من(ايران) يحاولون اتقان فن الحرب الآشوري ونجحوا في هذا المسعى(٤٤).

ولم ينس (آشور بانيبال) حاد الطباع، تآمر اليهودي الضعيف(منسى) ضده، فاوعز الى أمر الحامية الآشورية في مملكة (يهوذا) بالقاء القبض عليه واقتياده الى(بابل) مكبلا بالاغلال لمحاكمته ميدانيا في المدينة التي مازال الملك ماكثا فيها يصفي عناصر التآمر.وقد وصف سفر اخبار الايام الثاني(الاصحاح:٣٣) هذه الحادثة كما يلي: "رؤساء الجند الذين لملك أشور اخذوا منسي بخزامة وقيدوه بسلاسل نحاس وذهبوا به الى بابل". ولكن تغيرا ما طرا على نيات (آشور بانيبال) تجاهه حيث صفح عنه لسبب مازلنا نجهله.

ما زاد الامر تعقيدا وجهل الغموض يلف كثيرا من حوادث تلك الحقبة هو أن(آشور بانيبال) عزف عن ممارسة هوايته الملكية المحببة، وهي كتابة المذكرات اعتبارا من العام ٦٣٩ق.م. وقد يعزى ذلك العزوف الى شدة اضطراب الامن الداخلي للدولة وتعاقب الحروب

والصراعات و"قمع التجار المتغطرسين في صور وارواد واليــهود ذوي الاعناق المتخشبة والقبائل الآرامية الهائجة دوما [٤٥].. الخ.

كل ذلــك صــير الأغريقــي (هــيرودوتس) الــذي عــاش بيــن ٤٨٤ــ٤٢٥ق. م مصدر المعلومات الوحيد[٤٦]. عن تلك الحقبــة التــي كانت سنة عزوف(آشور بانيبال) عن كتابة المذكرات فيها بداية لها.

المبحث الثالث

تآمر اليهود وسقوط الدولة الآشورية

"ويل لمدينة الدماء...

تنفتح لاعدائك ابواب ارضك

تاكل النار مغاليقك... هناك تأكلك النار

يقطعك سيف

نعست رعاتك يا ملك آشور

اضطجع عظماؤك وتشتت شعبك على الجبال، ولا من يجمع

ليس من يجبر كسرك

جرحك عديم الشفاء كل الذين يسمعون خبرك يصفقون بايديهم عليك.. لانه على من لم يمر شرك على الدوام؟" (٤٧)

ليست تلك الكلمات قصيدة شعرية، انها نص(ديني) من اصحاح ورد في سفر(ناحوم) احد اسفار العهد القديم الذي خطه الحاخامات بايديهم ونسبوه الى الله سبحانه وتعالى. فلقد كان(ناحوم الالقوشي) وهو من علية اليهود يتمنى في سره سقوط(نينوى) وخرابها الابدي، كان يغني ويشيع في داخله الامل الحقود، طردا للكوابيس دونما قدرة على الافصاح عما في الدواخل العدوانية والتمنيات المتخمة حقدا وكراهية. يقول كلاما يدعى انها رؤيا، ويسجل تابعوه لاحقا ما قال مضفين عليه صفة القداسة.

اما في مجال التطبيق العملي لتلك المشاعر التي لم تقتصر على(ناحوم) فقد كان الملك الالعوبة(حزقيا) سباقا في مد الجسور مع الخائن البابلي(مردوخ- ابلا- ادينا) في تآمر عميق ضد(الآشوريين) كما وضحنا ذلك سابقا، وكذا فعل الملك الضعيف(منسى) عندما تحالف مع قادة التآمر في(بابل) وعلى رأسهم شقيق الملك الآشوري ليس حبا

به ولكن طمعا في تفتيت كيان الامبراطورية، وعلى ذات النهج التآمري سار الملك المراوغ(يوشع ٦٤٠- ٦٠٩ق.م) حيث راسل(نبوبو لاصر) تآمرا ضد(الآشوريين) املا في تقويض دعائم تلك الدولة التي قهرتهم طويلا.

لقد كان(يوشع) يحاول بين آونة واخرى جس نبض السلطة الآشورية وقياس احتمالات رد فعلها تجاه محاولاته التوسعية، فما أن مات (آشور بانيبال) عام ٦٢٧ق.م حتى كرر (يوشع) محاولاته الرامية الى توسيع حدود دولته الصغيرة على حساب المناطق التي كانت تشكل الكيان الشمالي(مملكة السامرة المنحلة) والتي ازالها الآشوريون من الوجود قبل قرن من ذلك الوقت، وصارت رقعتها مقاطعة تدار بشكل مباشر من قبل الحكومة المركزية في (نينوى). وقد تذرع بالعمل الديني لتحقيق غاياته التوسعية ومطامعه الدنيوية.

وكان (يوشع) يمني النفس في نجاح (نبوبولاصر) بتقويض دعائم الامبراطورية الآشورية، حيث ستولد دولة ضعيفة حسب ظنه يتمكن من استثمار ضعفها في تحقيق ما عجز عن تحقيقه في ظل دولة قوية تقهر ارادته دائما.

وتمهيدا للظهور اليهودي القوي الذي يخطط له (يوشع) فقد سارع في استغلال الظرف المضطرب وشرع يحقق مشروعه الطموح في التوسع، وبذا فقد نجح في احتلال القرى والمدن ضعيفة الدفاع ووصل نفوذه مسافات بعيدة عبر حدود تلك المقاطعة، الا انه عجز عن تحقيق نجاح مماثل مع المدن الفلسطينية ذات الامكانيات الدفاعية القوية[٤٨].

في تلك الفترة بالذات تعرضت المنطقة الى اجتياح شرس من قبل موجة بشرية صعبة المراس متمثلة بشعب (السيثيين) القادم من الاصقاع الشمالية في (روسيا). وقد تمكن هؤلاء المتوحشون من شن غارات مدمرة على (الميديين) وسيطروا عليهم قرابة جيل كامل.

وانطلاقا من (ميديا) اخذوا يصولون ويجولون فـــي عمــوم ارجــاء الشرق، ولم تسلم من شرورهم الدولة الآشورية ذاتها. وكانت بلاد الشام وبضمنها (فلسطين) نهبا لجحافلهم، يغيرون عليـــها باســتمرار. امـــا (مصر) فقد حمت نفسها من شرورهم برشوة قادتهم [٤٩]. لقد كـــانت تلك الظروف الصعبة عائقا جديدا بوجه الملك اليهودي(يوشع) تمنعـه من توسيع شراكته في الجهد الرامي الـــى تدمــير الدولـــة الآشــورية خصوصا وان الحلف المعادي للآشوريين اصيب بصدمة عقب مقتـــل (فراذرتس) ملك (الميديين) وهو يحاول اقتحام اسوار (نينوى) عـــام ٦٥٣ ق. م عندما كان (الآشوريون) قد استخدموا (السيثيين) باعمـــال الدفاع بموجب اتفاق عقده(آشور بانيبال) مع ملكهم(ماريس) كان قــد اثبت جدواه في الوقت المناسب.

ولم يجد الملك الميدي الجديد (كي اخسار) وسيلة لكسب او تحييـد (السيثيين) فرأى ان يدعوهم للتفاوض وحل المشاكل العالقة، وفي فترة استراحة بين ساعات المفاوضات حيث كانوا يعبون اقداح الخمرة فـــي تراخ وخدر اجهز عليهم حراس الملك الميدي المضيف فابادوهم جميعا. لذا فمنذ تلك الحادثة التي قصمت ظهر كيانهم عـــام ٦٣٠ ق. م كـــان الشرق قد انطلق نحو افق جديد في فوضى وارتباك من نوع آخر نجـح المتآمرون خلاله في رفع رؤوسهم وتنسيق اعمالهم التآمرية جهارا فـــي سبيل تحقيق هدفهم الكبير.

ومع ان (آشور بانيبال) قد توقف عن تزويدنــــا بمعلومـــات عـــن التاريخ الرسمي للدولة الآشورية اعتبارا مـــن العـــام ٦٣٩ ق. م كمـــا ذكرنا ذلك سابقا، الا ان ما لاشك فيه هو حصول اضطرابات عديـــدة في انحاء متفرقة من الامبراطورية التي بدت عليها اعراض الشيخوخة وخاصة عندما توفى اخر قادتها العظام (آشور بانيبال)، لقـــد صـــار

الخبر الآشوري منذ ذلك الحين مفقودا عدا عن نتف لا تساعد في قراءة تاريخ دولة عظيمة.

ولاشك ان بداية الملك الآشوري الاخير (آشور- ايطل - الى) ابن (آشور بانيبال) كانت موفقة اذ انه نجح في سحق عصيان خطير في العاصمة مما مكنه من تبوؤ عرش ابيه، وختم عهده القصير (حكم اربع سنوات) بقمع عصيان آخر.

وعن تآمر الملك اليهودي وجهوده الخفية في اسقاط الدولة الآشورية، فانه لم يكتف في التحالف مع (الميديين) و (الكلدانيين)، وانما سارع الى اعلان تمرده في حياة (آشور بانيبال)[٥٠] . فهو في مأمن من رد الفعل الآشوري الغاضب حيث ان العاصمة الآشورية محاطة باخطار قوية لا تسمح للملك الآشوري بالمجازفة بارسال قطعات الى (فلسطين) كونه بأمس الحاجة اليها في الدفاع عن كيان الدولة المهدد.ففي الجنوب من الدولة الآشورية كان (نبوبولاصر) قد توج نفسه ملكا على (بابل) باسناد قوى صاعدة حديثا للتربع على عرش الهيمنة العالمي. انها دولة (الميديين) الذين اسسوا قواعد حكم قوية في عاصمة منتخبة بعناية قرب حدود (الاشوريين) هي (اكبتانا) او (همدان) الحالية بعد ان افسح لهم (آشور بانيبال) المجال للبروز كقوة سياسية وعسكرية يحسب لها اكثر من حساب وذلك بقضائه غير المدروس على (العيلاميين).

في هذا الجو المكفهر ،وبسبب عدم احتفاظ (الآشوريين) برصيد لدى أي من القوى العالمية فانهم لم يجدوا من يطلبوا مساعدته غير صنيعتهم (نيخو) فرعون (مصر)، مع علمهم المسبق والاكيد ان هذا الفرعون سيحقق طموحات الفراعنة منذ الاف السنين في ترسيخ الاقدام المصرية في بلاد (الشام) والمكوث فيها مع وجود ملوك ذوي هوى مصري طالما اتعبوا الجيوش الآشورية.

ولان احتمال تأخر او تقاعس الفرعون في القدوم وكذلك احتمال انشغاله في قضم بلاد (الشام) قائمان وتحت تأثيرهما تسحق الاعصاب الآشورية المتعبة، لذا قرر الملك الآشوري التلويح لعدوه (نبوبولاصر) بغصن زيتون يحقق له طموحاته دونما تماد في ارهاق الدولة الآشورية. وذلك بان يمنحه حكما ذاتيا على (بابل) وان يسبق ذلك تفاوض بين الطرفين تسهيلا لحل وطني للمشكلة بعيدا عن تدخل القوى الطامعة. وقبل ان يبدي (نبوبولاصر) رأيه في العرض الآشوري تدخل (كي اخسار) ليفشل الحل الوطني ويحرض (نبوبولاصر) على رفض فكرة التفاوض وعدم القبول بمشروع الحكم الذاتي. ونجحت المساعي الميدية في استبعاد الحل الوطني، وبقي قيام التحالف ضروريا برأي جميع اطرافه لحل المشكلة عسكريا.

ومع تأخر (نيخو) بارسال نجدة سريعة للآشوريين، تقدم (نبوبولاصر) مفتتحا صفحة جديدة من النجاحات ضد (الآشوريين)، في عقر دارهم هذه المرة حيث العاصمة الدينية (آشور) التي تعرضت لتهديده عام ٦٠٦ ق. م . ولكن مازالت بعض نفحات من الروح العسكرية الآشورية تدفع سكان المدينة والقطعات الموجودة فيها للدفاع عن مقدساتهم فيتراجع (الكلدانيون)، وتعقبهم قوة آشورية شجاعة تستمر في مطاردتهم الى (تكريت) ، ويبدو ان الانكسار النفسي الذي تعرض له (الآشوريون) كان قد فعل فعله حيث لم يطور قائد القوة هجومه في وقت كان بمستطاعه محاصرة جيش (نبوبولاصر) في (تكريت) وابادته، ولكنه لم يفعل ما يحقق له ذلك الانجاز التاريخي الخطير.

ويسرع (كي اخسار) لاستثمار فرصة خروج قوة اشورية قوية الى (تكريت) فيهاجم العاصمة الدينية (آشور) ويحقق نجاحا سوقيا فريدا

باحتلالها، فيعزز ذلك النجاح بالتقدم نحو العاصمة السياسية(نينـــوى) ولكنه تلكأ في ضواحيها لتسود فترة من الهدوء استغلها القائد الاشوري المرابط في (تكريت) قبالـة الجيـش البـابلي فـانقض علـى مقـر (نبوبولاصر) الذي نفذ بجلده ميمما شطر (بابل) يعقبه جيشه المذعـور ناجيا باعجوبة من مصير اسود مخبأ طي مفاجأة لم يحسبوا لها حسابا.

ويتغير الموقف السوقي مع اطلالة العام ٦١٢ق.م حيـث تسـتدعي القيادة العامة الآشورية جميع القطعات المرابطة في المقاطعات للتوجـه الى العاصمة بسرعة . والعجيب ان توارد القطعات نحو العاصمة لـم يعمل على رفع ارادة الصمود، ويحتمل ان ذلك كان سببا فـي انـهيار المعنويات والانكسار النفسي لدى الشعب سرى الى رجال الجيش وربما الى عناصر القيادة العليا للدولة، والا فما تفسير عجز(الآشوريين) تلـك الامة الشجاعة التي دوخت العالم، عن الصمود داخل حاضرتهم لاكـثر مـن ثلاثـــة شـــهور؟. وقبـــل انقضـــاء العـــام ٦١٢ ق.م (في شهر كانون الاول) كان كل شيء قد انتهى، وانتحر الملك داخـل قصره الذي صار طعما للنيران. بينما نجحت النخبة مـن قواتـه فـي التملص والهرب الى (سوريا) أملا في ارجاع بعض من مجد غـابر، وعل فرعون(مصر) يلبي النداء فيقدم على رأس قوة تعمل على تغيير مسار التاريخ.

وداخل اسوار العاصمة المستباحة (نينوى) اغنى مدن العالم طـرا التي باتت نهبا للغزاة، احتفل (كي اخســار) ملـك (الميديـن) مـع (نبوبولاصر) ملك (الكلدانيين) بالانتصار على القوة الاقوى في العالم. بينما كان على الضفة الغربية من نهر (الفرات) قائد آشوري متحمـس لا نعرف اسمه لانه لم يهتم بتخليد اسمه الشخصي وانما وضـع تـاج سيده المنتحر على رأسه وقاد اكثر الجنود شجاعة وحماسة متخذا لنفسه اسم(آشور- اوبالط) تيمنا باسم هذا الملك الذي حقق اروع الانتصارات

قبل ستة قرون وحرر بلاده يومئذ من ربقة الاجانب. ويتحصن الملك الآشوري الجديد في (حران) عاملا على انشاء نواة قوة يلتف حولها كل راغب في استعادة المجد الآشوري الزائل.

وتصل طلائع القوة المصرية الى (حران)، ولابد من تصحيح خطأ ارتكبه المؤرخون ، فهي لم تأت للنجدة وانما للاستئثار بالغنائم، والا فلماذا القدوم المتأخر جدا(الم يقطع نبوخذ نصر المسافة من الحدود المصرية الى بابل بثلاثة وعشرين يوما عندما بلغه نبأ وفاة والده؟). عموما فقد كان هيكل النظام الدفاعي الآشوري في منطقة (كركميش) قد تكامل بحيث ان (نبوخذ نصر) الذي امره والده (نبوبو لاصر) باستثمار الفوز* عجز عن عبور(الفرات) سنتين بسبب قوة ومتانة ذلك الدفاع. وحتى قبل وصول القلة المصرية كانت الفلول الناجية من الآشوريين والتي رفضت الاستسلام تقاتل برغم غياب العنصر القيادي المسؤول عقب انقطاع اخبار الملك الآشوري الذي كان يقودها وبرغم أن قتالها كان في ارض حافلة بالاعداء والشامتين. ولم تنطفئ جمرة مقاومتهم الا بعد ثلاث سنوات من سقوط(نينوى).

وكمن صحا من غفوة عميقة، شعر فرعون(مصر) الجديد(نيخو الثاني) أن عليه التوجه الى(سوريا) تحت ذريعة نجدة حلفائه(الآشوريين) الذين عشش البوم في قاعات قصور ملوكهم منذ سنوات، فزحف نحو(فلسطين) وكان هدفه الحقيقي غير خاف على ذوي البصيرة الثاقبة، (فسوريا) و(فلسطين) تشكلان خط الدفاع الأول عن(مصر)، وفيها ثروات يسيل لها لعاب الملوك الطامعين فلماذا لا

---

* استثمار الفوز: صفحة من العمل التعرضي، تعقب عادة نجاح الاختراق أو الاحاطة وتتميز بالتقدم السريع تجاه المقاومة المنهارة قد تكون الغاية منها الحصول على هدف في العمق خلف العدو أو مطاردة قوة العدو المنسحبة(٥١).

يستغل فرصة الفراغ السياسي الكبير ويسارع للاستئثار باكبر قسط منها قبل أن تسقط ثمرة يانعة بيد(الكلدانيين) خصوصا وأن القوة الآشورية المتبقية ستكون بامرته.

ولم يجد ما يعيق تقدمه شمالا في اراضي(الفلسطينيين) حيث عبر(غزة) و(عسقلان) و(اشدود) دونما مشاكل مع قياداتها السياسية ولكن المفاجاة برزت عندما اعترض تقدمهم الملك اليهودي الشامت(يوشع)* صادا اياه عن تحقيق هدفه في التقدم شمالا لادامة الاتصال بالقوات المصرية والفلول الآشورية قرب(الفرات) ولاول مرة(ولعلها الاخيرة) يبتعد ملك يهودي عن الركب المصري الذي كان سابقوه يضحون بكرامة شعبهم وثرواتهم وارواح بنيهم من اجل اللحاق بذلك الركب. فهو يأمل حرمان العناصر الآشورية من أي امل في تحقيق بعض اهدافها، وهو يريد أن يفرض نفسه قوة تأخذ دورا كبيرا في عملية ملء الفراغ الذي ظنه حاصلا، فهو يعمل ضمن هذا التوجيه المفضي الى الهاوية منذ أمد، فقد تم العثور مؤخرا على رسالة كتبها هذا الملك بالعبرية على قطعة خزف بعث بها الى ممثل(مصر) في جنوب(فلسطين) عبر بها عن جرأة في طرح استيائه من اجراءات معينة لفرعون(مصر) السابق (٥٣).

---

* لم تكن الشماتة بما حل بالدولة الآشورية مقتصرة على هذا الملك اليهودي، فهو النموذج للشماتة اليهودية. أذ ان اسقار العهد القديم طافحة بالوان الشماتة التي تربا عنها التربية الدينية. فقد اترعت اسفار(حزقيال وناحوم وصافانيا) وغيرها بما يجعلها تقطر حقدا وكراهية وشماتة مع انها كتبت بعد انتهاء الاسر البابلي الاخير عقب سقوط(بابل) بايدي (الفرس) يقول ديورانت: (وتحدث اليهود عن نينوى حديثا ينطوي على الحقد والضغينة ووصفوها بأنها المدينة الدموية التي تفيض بالكذب واللصوصية » (٥٢).

كل تلك الامور كانت في بال الفرعون وهو يجري تقديرا للموقف تمهيدا للخروج بخطة عمل ملائمة، فيستجيب لتحدي الملك اليهودي. وتم اللقاء الدموي في منطقة(مجدو) تل المتسلم الحالية شرق(حيفا)، وكانت احدى المحطات المهمة على الطريق بين(مصر) و(بابل). وخسر المتآمر اليهودي حياته، وخسرت(يهوذا) حياة الكثير من جنودها واستبيحت مدنها. ورقى ملكا عليها ابن القتيل المدعو(شالوم) والذي غير اسمه الى(يهو احاز) ولانه خالف النهج اليهودي المعتمد واقتفى اثر ابيه في معاداة(مصر)، فقد دفع حريته ثم حياته ثمنا، حيث ارسل الفرعون قوة مكلفة بالقاء القبض عليه، واقتيد مكبلا بالاغلال الى(ربلا) في(حماة) حيث المقر المتقدم للفرعون، ولكن الفرعون يأمر بترحيله الى(مصر) لاجراء محاكمته واعدامه هناك[٥٤]. وجرى تنصيب شقيقه(يهوياكيم ٦٠٧- ٥٩٧ق.م) والذي لا نجد صفة اليق به غير(المتردد)، فقد كان قلقا لا يدري الى أي المعسكرين ينضم وضد من يقاتل. فالمصريون اقوياء برغم أن(نبو خذ نصر) انزل بهم هزيمة نكراء في(كركميش)، وأن(بابل) بعيدة عنه برغم عظمة انتصاراتها، في حين كان ضغط العناصر الداعية الى صداقة(بابل) يحظى بتأييد قوي(ليس حبا بها وانما خوفا من تكرار مأساة القصبة المنخورة وظهور رابشاقي بابلي)، وكان(آرميا) يتزعم هذا الفريق بسبب وعيه العميق لحقيقة ومعاني الاقتدار البابلي خصوصا عقب الانتصارات الهائلة في(سوريا) التي حققها ولي العهد(نبوخذ نصر)، مع ادراك تام لطموحات(بابل) بضوء ذلك الاقتدار. وهذا كله يعني ضرورة أن يسارع اليهود لحجز كرسي في صف حلفاء(نبو خذ نصر) وبذا يستعيدون مكانهم السابق في هذا التحالف قبل سقوط الدولة الآشورية. فالغرب بالنسبة للبابليين مهم وضروري، ولو ان ملك (بابل) وجه جيوشه شطر الغرب، فسيتدحرج تاج ملك (يهوذا) بين حوافر خيله.

ازاء هذا الضغط المعزز بالحجج الكافية والاقناع القوي ، كان عملاء الفرعون في بلاط الملك اليهودي وحزبهم المنتشر بين قطاعات واسعة من سكان العاصمة يمارس ضغطا بالاتجاه المعاكس. ونستطيع الان ان نقرر انهم كانوا اقوى من دعاة التحالف مع (بابل) حيث نجحوا في حرف اتجاهات سياسة الدولة، بالوقت الذي بذل فيه(ارميا) جهودا مضنية لثنيهم عن عزمهم من خلال اطلاعه على حقائق توصل اليها نتيجة التمعن في دراسة القوة الحقيقية لبابل، ثم ادعى انها نبوءات ربانية!!

ولكن الملكَ المتردد حزم امره فسار في ركب قاتلي ابيه وآسري اخيه.

وقبل ان نغادر هذا المبحث نجد ان لا مندوحة من مناقشة (فرية) طلع بها الدكتور(احمد سوسة) في كتابيه(حياتي في نصف قرن) و(ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق) تلكم هي وجود امارة يهودية في شمال العراق اسمها (حدياب) فهو يبدأ مبحثه في (حياتي في نصف قرن)[٥٥] بقوله" ومما يذكر ان هناك امارة واسعة في منطقة آشور القديمة ازدهرت في القرن الاول الميلادي وهي نفس المنطقة التي نقل اليها اليهود المسبيون- الاسباط العشرة- من زمن الآشوريين تدعى - امارة حدياب-. وفي المصادر الكلاسيكية والعربية- حزه - وعاصمتها مدينة اربيل". ويركز على ذات الموضوع عندما يكرر ذكرها في كتابه الآخر(ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق)حيث يقول عن نفس الامارة " وحققت امارة حدياب في القرن الاول الميلادي استقلالا تاما تقريبا في عهد ملكها ايزاط الثالث الذي اعتنق اليهودية هو وامه هيلانة" الى ان يبلغ قوله" وقد ظلت امارة حدياب هذه في ظل حكم سلالة يهودية حوالي ثمانين سنة حتى غزاها الرومان". ويخلق لها دورا مع التركيز على يهوديتها بقوله" ولقد لعبت امارة حدياب على عهد

ملوكها المتهودين دورا مهما في النـزاع التقليـدي بيـن الرومـان والفرثيين وبين الرومان واليهود لما كانت هذه الامارة تتمتع بـه مـن موقع استراتيجي"(٥٦).

نقول ان اليهود الذين سباهم الآشوريون لم يسكنوا منطقـة واحـدة حيث نشروا في (كوثا) قرب (بابل). وفي (ميديـا) وفـي (حلـح) و(حران) ومنطقة (الخابور) وان وجودهم في المنطقة التي يحـاول ان يفتعل (سوسة) قصة وجود امارة يهودية فيها مؤكدا على انها المنطقـة التي سبي اليها (اليهود) كان غير لافت لنظر المؤرخين الا البـاحثين خصيصا عن الاماكن التي يقبع بها هؤلاء (اليهود) كالرحالة اليـهودي (بنيامين التطيلي). والا فاين دورهم في تقويض دعائم الامبراطوريـة الآشورية التي قضوا اجيالا يتمنون فناءها ويغنون امانيهم حقدا وحسدا (ويل لمدينة الدماء ... الخ) . فلو ان وجودا يهوديا ملموسا فـي تلـك المنطقة كما يحاول (سوسة) تصويره لنا كان قائما بالفعل، لكـان قـد حقق فعلا قويا وحاسما في مرحلة تقويض الدولة الآشورية وهو الامـر الذي لم يسجل في مضماره شيء من هذا القبيل. عموما ان لدينـا ردا على بعض المغالطات التي تشبث بها (سوسة)سننجزه لاحقا بعون الله.

حواشي الفصل الثالث

١. رو(مصدر سابق) ص٣٣٦.

٢. ساكز، الحياة اليومية(مصدر سابق) ص٢٢٩.

٣. الأحمد، تاريخ فلسطين القديم(مصدر سابق) ص٢٣٠- ٢٣١.

٤. ساكز، قوة آشور(مصدر سابق) ص٣٤٥.

٥. الطعان، عبد الرضا، الفكر السياسي في العراق القديم- دار الرشيد -بغداد ١٩٨١ ص١٨٧.

6. ARAB, 11, S855.

٧. ساكز، قوة آشور(مصدر سابق) ص١٢٦.

٨. المصدر السابق ص٣٦٢.

٩. ديورانت،(مصدر سابق) ص٢٧٤.

١٠. باقر،(مصدر سابق) ص٥٣٨.

١١. ساكز، الحياة اليومية(مصدر سابق).

١٢. ساكز، قوة آشور(مصدر سابق) ص٣٥٧.

١٣. المصدر السابق ص٣٥٩.

14.ARAB, 1, S443.

١٥. يمكن مراجعة ما كتب عن حملاته الطويلة في ARAB,1, 553- 612.

١٦. سوسة،(مصدر سابق) ص٣٠٥.

١٧. الصالحي(مصدر سابق) ص١٥.

١٨. الصالحي(مصدر سابق) ص١٥ وكذلك ARAB, 1, S611.

١٩. الحموي،(مصدر سابق) ج٥ ص ١٤٤- ١٤٥.

٢٠. الصالحي(مصدر سابق) ص١٤٢.

٢١. بوستغيت، نيكولاس، حضارة العراق واثاره، ترجمة سمير عبد الرحيم الجلبي- دار المأمون للترجمة والنشر- بغداد ١٩٩١ص ١١٠.

٢٢. الصالحي(مصدر سابق) ص٢٣.

٢٣. الاحمد، تاريخ فلسطين القديم(مصدر سابق) ص٢٠٨.

٢٤. نفس المصدر في نفس الصفحة اعلاه.

٢٥. المصدر السابق ص٢٠٩.

٢٦. الصالحي(مصدر سابق) ص٣٢.

٢٧. الملوك الثاني، الاصحاح ك١٥.

٢٨. الاحمد، تاريخ فلسطين القديم(مصدر سايق) ص٢١٠.

٢٩. هيئة تحرير، المنجد في الاعلام، دار المشرق بيروت ط١٣ لسنة ١٩٨٤ ص٤٦١.

٣٠. الملوك الثاني، الاصحاح:١٦.

٣١. الاحمد، تاريخ فلسطين القديم(مصدر سايق) ص ٢٢٣.

٣٢. الصالحي(مصدر سابق) ص٤٦.

٣٣. رو، (مصدر سابق) ص٤١٤.

٣٤. الملوك الثاني، الاصحاح:١٧.

٣٥. الصالحي(مصدر سابق) ص٥٥.

٣٦. الاحمد، تاريخ فلسطين القديم(مصدر سابق) ص٢٢٥.

٣٧. الصالحي(مصدر سابق) ص٦٤.

38. ARAB, 1,S38.

39. ARAB, 1, S73- 78.

40. ARAB, 1, S 60- 66.

٤١. النجفي، حسن، مقتبسات من الشرائع العراقية القديمة- مطبعة البنك العراقي -بغداد ١٩٨١ ص٥٧.

42. ARAB, 11, S 540.

٤٣. الشريقي،(مصدر سابق) ص١٣٧.

٤٤. ساكز، قوة آشور (مصدر سابق)ص١١٦.

٤٥. رو،(مصدر سابق)ص ٤٤٧.

٤٦. باقر،(مصدر سابق)ص ٥٢٨.

٤٧. سفر ناحوم، الاصحاح ٣.

٤٨. الاحمد، تاريخ فلسطين القديم(مصدر سابق)ص ٢٣٢.

٤٩. رو،(مصدر سابق)ص٥٠٠.

٥٠. ساكز، قوة آشور (مصدر سابق)ص١٧٠.

٥١. فتحي،(مصدر سابق)ص ٩٩.

٥٢. الصالحي،(مصدر سابق)ص ٩٩.

٥٣. ديورانت،(مصدر سابق) ص٢٩٩.

٥٤. الاحمد، تاريخ فلسطين القديم(مصدر سابق)ص٢٣٣.

٥٥. سوسة، احمد، حياتي في نصف قرن- دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد ١٩٨٦ص ٨٧.

٥٦. سوسة، احمد، ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق، مركز الدراسات الفلسطينية -جامعة بغداد مطبعة اسعد-بغداد ١٩٧٨ص ٤٠- ٤١.

الفصل الرابع
بابل هدف التآمر الخطير

*الولادة القوية
*التحدي اليهودي
*دور اليهود في سقوط بابل



اختلفت الدولة الجديدة التي أسسها(نبو بو لاصر) في بابل عـن سواها من الدول في انها كانت قوية منذ ولادتها. وان مواطنيـــها هـم سكان(بابل) التواقون للحرية والمتعطشون لحكم وطني يمارســون مـن خلاله قيادة انفسهم وصنع مستقبلهم. وعقب محاولات جادة في تحقيــق المطلب المنشود ضد القوة الآشورية التي رأت في بلاد الرافدين وحــدة سياسية واحدة، فقد تعاون سكان(بابل) مع(الكلدانيين) صعبي المراس من اجل اخراج مدينتهم من الحضيرة الآشورية. وبسبب الاقتدار الآشــوري فأن(الكلدانيين) رأوا أن يستعدوا للمواجهة بقوة اضافية حيــث تحــالفوا مع(الميديين) الأجانب، وراسلوا(اليهود) وبعثوا اليــهم ببعـوث، ربمــا ليضمنوا حياد(مصر) او ابعادها عن الساحة بوضع حجـر عـثرة فــي طريقها(اليهود)، عندما تبدأ المعركة بينهم وبين(الاشوريين).

الأ انه وبعد أن تحقق النصر على ايــدي القــادة(الكلدانييـن) بزعامة(نبوبو لاصر) فقد اخذت نيات الحلفاء الأجانب وخططهم تتكشف بالتدريج مما خلق وضعا جديدا يدعو الى اعادة النظر بالتحالفات القائمـة واعداد قائمة جديدة بالاعداء القائمين والمحتملين. وكان(اليهود) الذيــن ظنوا انفسهم في منعة من الغضب البابلي يكررون افعالا يعرفون حــق المعرفة ما يترتب عليها من نتائج، وكان(نبوخذ نصر) شديد الحمــاس، سريع الحركة في رده على تمردات(اليهود) وعصياناتهم المتكررة حيـث كان اللوبي المصري في(اور شليم) يورط ملك (اليهود) بمواقف يدفعون ثمنها سملا وقتلا وسبيا وخرابا، في حين يقبض عناصر اللوبي اجورهم بالذهب والفضة من الفرعون، وتتكــرر تلــك المشــاهد بسـبب حقـد ملوك(اليهود) وكراهيتهم لبابل وملكها حتى رأى(نبوخذ نصر) أن العلاج الوحيد للتآمر اليهودي هو استئصال شأفة هؤلاء الحاقدين، ولكنه كــان اكثر رأفة ببسطاء(اليهود) من زعمائهم، فتركهم في ارضــهم منصبـا عليهم حاكما منهم يصرف امورهم.

ولقد شمل التآمر اليهودي بعد الأسر تحطيم ركائز ومقومات الاقتصاد البابلي وافقار المواطن بالديون المحملة بفوائد وربا فاحش، وسيرت قطاعات واسعة كالزراعة في طرق التردي والانحطاط، وشوهت سمعة الملوك العظام، واشيع الفساد والانحلال الخلقي والميوعة التي نجم عن ذلك شرخ كبير بين السلطة والشعب. وما فتئ بعض المؤرخين يحسب خطأ أن سكان(بابل) كان لهم دور في تسليم مدينتهم الى الغزاة، وليس ذلك غير محاولة يائسة لتقليل مسؤولية(اليهود) في العمل التآمري، فلقد كان سكان(بابل) في عزلة عن الحكام الأجانب الذين كانوا منهمكين في سلب ثروات اولئك السكان قاصدين ابقاءهم في مستويات معيشية متدنية بالتعاون مع الصنائع اليهودية العميلة وخاصة عن طريق الربا الذي مارسه الحكام الاجانب وفي مقدمتهم حاكم(بابل) وولي عهد الدولة الفارسية(قمبيز) اضافة الى اساليب القهر والحرمان والتسلط القسري التي مارسها الاجانب.

ولقد نجم عن الرفض الشعبي البابلي للحكم الأجنبي عدد وفير من الثورات والانتفاضات الشعبية ذات النفس القومي من خلال اعتزاز قادة تلك الثورات بالتسميات القومية وخاصة اسم الملك العظيم(نبوخذ نصر) الذي كان قادة تلك الثورات يطلقونه على انفسهم. ولم يكن القهر والقسوة البالغة قادرين على إيقاف النشاط الثوري البابلي حتى اضطر الغزاة الفرس الى نشر الخراب والدمار في عموم ارجاء اجمل مدينة في عالم ذلك الزمان.

المبحث الأول
الولادة القوية

وإن كنا قد تطرقنا في المباحث السابقة وخاصة(الفصل الثالث) الى بعض جوانب ظهور الدولة الكلدانية(سلالة بابل الحادية عشرة) او ما تسمى(العصر البابلي الحديث)، الا اننا سنعمد هنا الى استخلاص جوانب القوة التي ظهرت على سمات هذه الدولة منذ نشوئها.

واذا ما كنا تطرقنا بشيء من التفصيل الى اصول الكلدانيين في(المبحث الثالث من الفصل الثاني). فأن تشكيلهم دولة ذات اعتداد قوي بالنفس في جنوب العراق(بيت ياكين) دليل على انهم اقوياء ومنظمون منذ بداية ظهورهم في هذه البلاد، وانهم لم يتورعوا عن الإغارة على(بابل) طيلة قرون طوال. مع اهمية(بابل) ومكانتها الخاصة المسلم بها، حيث لاينبغي لشعب ضعيف منزو التفكير باحتلالها واخراجها من دائرة الحكم المركزي الآشوري، وتحقيق هدفه ذلك بسهولة. فهل كانت اعمالهم تلك مغامرات محض؟. ثم أن جانبا ذا أهمية يظهر جليا من خلال هذا الصراع المرير، وهو موقف سكان(بابل) الاصليين، فلماذا كانوا دائما مع(الكلدانيين) الى درجة انهم يعرضون مدينتهم العامرة للغضب الاشوري بين فترة واخرى جراء مواقفهم الممالئة لهؤلاء؟

لاشك أن السبب هو اما أن يكون الطغيان الشعبي الكلداني على مدينة(بابل) قد تحقق جراء المجاورة في السكن، أو أن(البابليين) عقب يأسهم من امكانية تأسيس كيان سياسي ذي قدرة على مناوأة الآشوريين، جعلهم يراهنون على الكلدانيين، حيث صار لديهم الاستعداد النفسي للاصطفاف خلفهم أملا في إظهار جوانب عظمة مدينتهم وربما يكون الطرفان قد عقدا مواثيق وعهودا قد تظهر في لاحق الايام.

غير ذينك السببين لا نجد مبررا لان يسلم اهل(بابل) قيادهم للكلدانيين مع القدر الكبير من اعتزاز سكان(بابل) بحضارتهم وخوفهم الشديد على

شواهدها الى درجة أن(الآشوريين) حاولوا استغلال هذه النزعة لتشـــويه صورة الكلدانيين الاقل تحضرا بتظر اهالي(بـــابل) وتكريســـهم عـــدوا مشتركا. وبرغم المساهمة الميدية في تحطيـــم الدولـــة الاشـــورية، الا أن(نبوبولا صر) وجيشه كانا ينفذان المهمة الاكثر مشقة وخطـورة. وأن السطور التي كتبها(نبوبولا صر) مؤرخا لدوره المتميز فـــي الإطاحـــة بالدولة الآشورية كانت تصلح لأن تتحول الى واحدة من الاعمال الادبية الباهرة في مجال الملاحم، ولكنه أوجز ذلك الدور واختصر ذلك الجـــهد بقوله "ذبحت بلد الآشوريين واحلت ارض العدو الـــى اكـــوام ورميـــم. وارغمت الآشوريين الذين حكموا منذ زمن بعيد جميع الشعوب، والذين جلبوا باستبدادهم الثقيل الأذى لشعب الوطن، على ترك بلاد اكد، وخلعت نيرهم"[1].

المثلبة التي نسجلها على الكلدانيين هي انهم برغم عنـــاصر القـــوة الذاتية التي تيسرت لهم ماديا ومعنويا، لجأوا الى مشاركة الأجانب فـــي اعادة رسم خارطة الشرق وصنع مســـتقبله، فتحـــالفوا مـــع الميديـــن، وارسلوا مبعوثا يفاوض(اليهود) بشأن الانضمام الى هذا التحالف برغـــم محدودية قدرة(اليهود) وضعف إمكانياتهم المادية لجعلهم شـــركاء فـــي عملية التغير المرتقبة، الا أن تفكير(البابليين) في تعويـــق(المصريـــن) ومنعهم عن بلوغ ميدان المعركة الكبرى المقبلة جعلهم يـــأملون تحقيـــق بعض النفع من مد الجسور مع(اليهود)، وكان(اليـــهود) يؤسســـون فـــي خيالهم أطماعا من نوع اخر تنطوي على القدر الذي ينشدونه من النفعية والمصلحية من هذا التحالف، إضافة الى الرغبة الشـــديدة فـــي تحقيـــق الانتقام من(الآشوريين)بالفعل حيث كانوا يقتصرون على تمنـــي دمـــار وزوال حاضرتهم(نينوى)[2].

ومع كل ما يسجل ضد(الكلدانيين) من تـــثريب ولـــوم جـــراء تلـــك التحالفات فانهم وعوا مبكرا حقيقة حلفائـــهم ذوي الاطمـــاع الشـــريرة

وخاصة(اليهود)، فكانوا بالمرصاد حيث يصفهم(ارنولد توينبي) بانـــــهم ومنذ ولادة كيانهم السياسي القومي "يتمتعون بكثير من القوة في مقاومتهم لآشور وقد وجد فيهم سكان سوريا ومصر قوة وعنفا على نحو ما كـــان للاشوريين، وذلك لما تمكن الكلدانيون من فرض انفسهم بقوة الســــلاح، على الجزء السوري من املاك الآشوريين السابقة"[٣].

وقد تكشفت اطماع حلفائهم(الميديين) لما دخلوا (حـــران) وركــزوا حامية من جيشهم فيها خلافا للاتفاقات والمواثيق التي تحـــدد علاقاتـــهم التحالفية مع (الكلدانيين) وخاصة خلال فترة ما بعد تحقيق النجاح فـــي القضاء على الامبراطورية الآشورية.

وكان عملهم الخياني ذلك ينطـــوي علـــى تـــهديد خطـــير لخطـــوط المواصلات البابلية تجاه ممتلكاتهم في بلاد (الشام)، وزاد من خطـــورة أمر (الميديين) مدهم لاطماعهم الى مناطق اخـــرى يزاحمـــون عليـــها الكلدانيين في عقر دارهم ،فقد طمعوا في مناطق مهمـــة مـــن جنـــوب (العراق) وكان ذلك اضافة الى بوادر عدوانية سابقة سببا وجيها في ان يستشعر (الكلدانيون) الخطر القادم من الشرق علـــى ايـــدي حلفائـــهم بالذات مما جعلهم يتعاملون معهم بحذر شديد . ولم يكـــن الحـــذر مـــن (اليهود) اقل قدرا (بوصف أن هؤلاء اضعف قوة)، فقد كـــانوا يمنـــون انفسهم بالاستئثار بمناطق قيمة ودفع حدودهم شمالا مما عده (الكلدانيون) اعتداء على ميراثهم الذي حازوه بجهد وتضحيات عظمى دونما مساهمة مادية من (اليهود).

وعموما فقد كان الملك البابلي الجديد(نبو بو لاصر) يرى ان حقه في الاستئثار بكل مخلفات(الآشوريين) امرا لايخضع لجدال، ولتكريس هـذا الحق فقد توجه برغم الجهد الجهيد الذي بذلته قطعاته لخوض معـــارك مصيرية كبرى في اكـــثر المنـــاطق صعوبـــة وتعقيـــدا مـــن الناحيـــة التضاريسية، وابتداء من منابع (دجلة) التـــي تحتلـــها مملكـــة (بيـــت

حانونيا)[٤] حيث فرض ملوك (اورارتو) أرمينيا الحالية سيطرتهم السياسية والعسكرية عليها.ومن هناك عاد منتصرا تثقل حركة ارتاله الغنائم الكبيرة التي شكلت ثروة هائلة للدولة الفتية، واما المباني وما تعذر حمله فقد اهداها بكرم طعاما للنيران.

المهمة الاكثر خطورة التي اضطلع (نبوبو لاصر) بتنفيذها هي درء الخطر المصري الذي يهدد حدوده الغربية معرضا المصالح البابلية في افضل مجالاتها للتهديد القاتل. فقد احتل المصريون بقيادة ملكهم (نيخو الثاني) شخصيا (كركميش) جرابلس الحالية تحت ذريعة نجدة حلفائهم (الاشوريين)، ولكنه في الحقيقة كان يبحث عن مغانم عقب سقوط الدولة الآشورية وقبل ان يتقوى حكام (بابل) الجدد.

وكان (نيخو) قد حقق نجاحا ابتدائيا عندما قتل ملك (اليهود) ونصب مكانه العوبة يتبعه كظله حيثما حل ورحل خائفا مرعوبا. بينما صارت الممالك الفينيقية الثرية خلف ظهر الجيش المصري الذي حظر أي اتصال بينها وبين بلاد الرافدين . وتبعا لذلك فقد سدت منافذ التجارة الرئيسية بوجه (بابل) ولم يبق من سبيل امام الدولة البابلية الناهضة غير المواجهة الحاسمة المصيرية. ولان ملك (بابل)شاخ ولم يعد قادرا على قيادة الحملات لتحقيق أهداف الدولة على حساب الاعداء الاقوياء الذين يرص صفوفهم الفرعون، فقد كلف ابنه الشاب (نبو خذ نصر) بقيادة الحملة الضخمة المنوط بها واجب ازاحة (المصريين) عن ثنية (الفرات) الحيوية لحياة (بابل).

وكانت اولى الصعوبات التي واجهت (نبو خذ نصر) هي عبور (الفرات) ومن البديهي ان العبور يتطلب اقامة جسر بعد تحقيق موطئ قدم ثم تأمين رأس الجسر بالضفة البعيدة واخيرا توسيع منطقة رأس الجسر للسماح بعبور القسم الاكبر من القطعات . لقد كان الدفاع المصري في الضفة الغربية دفاعا قويا متراصا تسبب في اعاقة الجيش

البابلي ومنعه من العبور لمدة عامين برغم محاولاته الجريئة والمتواصلة في كل المواسم. وكان المصريون قد استأجروا لمهمة الدفاع عن الضفة الغربية مرتزقة من الاغريق. ولكن الجيش البابلي نجح اخيرا في تحقيق هدفه وانتقل كاملا الى الضفة الغربية في حزيران من عام ٦٠٥ ق. م [٥] ليلتحم بالقوات المدافعة في معركة مصيرية بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معان، حيث أبيدت القوات المصرية بكاملها، ولم ينج منها غير ثلة هيأت وسائل الهرب والنجاة وعلى رأسها الفرعون ذاته الذي كان وقت المعركة قابعا في مدينة (كركميش)، ولقد تقلص عدد أولئك الناجين حيث لحقت بهم قوة بابلية ذبحت معظمهم في (حماة) ويصف سفر (ارميا) ما حصل بان" بطلا يصدم بطلا فيسقطان كلاهما معا" وتلك امنية لم تتحقق لليهود لان البطل الحقيقي بقي يندفع جنوبا بحماس عظيم لايعرف الفتور .

كانت معركة (كركميش) تلك من المعارك الفاصلة في التاريخ بسبب كونها هزيمة كبرى لفرعون (مصر) وعلى الرغم من ان(نبوخذ نصر) كان عازفا عن مزاولة كتابة المذكرات فإننا لانعرف التفاصيل بيد إننا على اطلاع تام من ان حدود (مصر) باتت مكشوفة أمام تقدم جحافل (الكلدانيين) ، مما يؤيد صحة خبر الابادة التي تعرضت لها القوات المصرية ومرتزقتها في معركة (كركميش) وانه تعذر على القيادة المصرية تأمين القطعات اللازمة للدفاع عن حدود(مصر).

وعندما حاول (نبوخذ نصر) استثمار الانهيار المصري واستغلال الفرصة التي يتيحها ، وفيما كان جاثما على الحدود المصرية يتهيأ لغزوها، ورده نبأ موت أبيه الذي اضطره الى تنصيب قائد بدلا عنه على الحملة أودع اليه الأسرى والغنائم ثم شرع بقطع مسافة ١١٠٠ كم التي تفصله عن (بابل) واكمل ذلك المشوار بثلاثة وعشرين يوما حيث توج ملكا على بلاده يوم ١ ايلول من عام ٦٠٥ ق. م.

مارس ملك(بابل) هواية جديدة منذ بداية عهده بالملك، وهي التوجه الى بلاد(الشام) سنويا، التي دأب كل ملوكها على دفع الجزية بانتظام لممثلي الملك، وكانت(دمشق) و(صور) و(صيدا) و(يهوذا) في مقدمة دافعي الجزية. وفي عام ٦٠١ ق.م، كرر(نبوخذ نصر) هجومه على(مصر)، الا أن المعركة التي خاض غمارها جيشان متهيئان لم تكن حاسمة، فتضررا، ولم يوفق الملك البابلي في احتلال عاصمة الفرعون الذي فاز بدموع (اليهود) وحسراتهم كما يعبر عنها سفر الملوك الثاني(الاصحاح ٢٤) حيث يقول "ولم يعد ملك مصر يخرج من أرضه لان ملك بابل اخذ الأرض من نهر مصر* الى نهر الفرات، وكل ما كان لملك مصر".

---

* نهر مصر المقصود به(وادي العريش) شمال سيناء.

المبحث الثاني
تحدي اليهود لنبوخذ نصر

كان(يهوياكيم) ملك(يهوذا) المعاصر لنبو خذ نصر ملكا سـيئا بنظـر العهد القديم، نحا الاعتبارات الدينية جانبا وعمل بموجب شهواته الدنيئـة حتى أنه لم يتورع عن اقامة علاقات شاذة مع إمه اضافة الى زوجة ابيه وكان شغوفا بالقتل وسفك الدماء [٦]. ولقد دفعه حظـه العـاثر وحقـده على(بابل) وكرهه لملكها الى ركوب المخاطر وبرغم النصـائح التـي اسداها له(ارميا) الذي نجح في تخمين العواقب من خلال تمحيصه لحجم الاقتدار البابلي، بيد أن الملك كان منطويا على رغبة عارمة في التمـرد على (نبوخذ نصر) رغم معرفته العميقة والتفصيلية بالاقتدار البـابلي.. ولقد افلح اللوبي المصري في بلا طه (عملاء الفرعون) في اسـتغلال ذلك التوجه الحاقد وبالتالي رغبوه في طاعة الفرعون(الذي قتـل ابـاه وساق اخاه الى مصر اسيرا ثم اعدمه هناك) مع علمه الأكيد أن(مصـو) لا تشكل خطرا على من يخرج على طاعتها وليس بمقدورها نجدة مـن يطمع في نيل مساعدتها، وأن(نبو خذ نصر) قادر على أن يجوس خـلال دياره ويكبله بالأصفاد ويطوي سجل حكمه.

ومتجردا عن الحكمة والعقل انساق وراء عملاء(مصـر)، وراسـل الفرعون سرا وتحالف معه معولا على عدم علم(بابل) بذلك، مسقطا من حساباته ما سيترتب على فعله ذاك لو وصل خبره الى هناك.

لقد كانت(يهوذا) تدفع الجزية الى(بابل) بصورة منتظمة منـذ العـام ٦٠٣ ق.م، وفي صيف عام ٦٠٢ ق.م لم يكن ثمة ما ينبئ عن تفكـير ملكها بالامتناع عن دفع الجزية البالغة(١٠٠) وزنة من الذهب والفضة، يجبي كميتها من مواطنيه بشكل ضرائب. ففي تلك السنة كان ملك(بابل) يقيم في مقره الصيفي في(ربلا) الكائنة في سهل(حماة) ويرسل مبعوثيـه

الى ملوك الشام لإستحصال الجزية منــــهم، وكـــانت(يـــهوذا) بانتظـــار رسل(نبوخذ نصر) لجبي مبلغ الجزية دونما وجود دلائل سلبية.

وبسبب مفاسد(يهوياكيم) وانتشار فضائح جرائمه اللاأخلاقية المنكــرة مع محارمه وسفكه الدماء تشفيا وسادية وانـــه يضمـــر نيـــات تمـــرد على(بابل) مما يعرض الكيان اليهودي الى خطر ربما يصل الـــى حـــد الكارثة والدمار بسبب عجزه عن المقاومة، فقد افتى(ارميا) بتكفيره وعده غير جدير بتولي الحكم. وكانت فتوى(ارميا) قـــد ســـرت بيـــن عمـــوم المواطنين، ترفع مستوى حماسهم كالنار في الهشيم مما اجج المشـــاعر ضد السلطة وخلق تحركا جماهيريا ساخطا يطالب الملك بالتنحي عـــن العرش ولقد وجدت(مصر) في ذلك فرصتها فأخذت تتملق الملك المنبـوذ بواسطة عملائها في بلاطه الذين عملوا بجـــد علـــى رفـــع معنوياتـــه ومساعدته على الوقوف بصلابة ضد المطالب الجماهيرية. ولما صارت نيات ملك يهوذا(يهوياكيم) في قطع علاقاته مع(بابل) واضحة ومشخصة، فقد اعلن عنها، ورفض دفع الجزية، وعجيب ما في هذه القضيـــة، انـــه ارسل الجزية الى(مصر) مع عدم وجود تهديد مصري يلزمه بذلك. إننـــا نضع واحدا أو كل الاحتمالات التالية سببا لهذا الخضوع:

*لانه اراد ان يعترف بالفضل الذي خصه به الفرعون عندما نصبـــه ملكا عقب مقتل ابيه واقتياد اخيه اسيرا الى (مصر)التي اعدم فيها.

*أو لأن اللوبي المصري كان قويا الى درجة أن الملك الغـــارق فـــي الفضائح كان يتحاشاهم ويتجنب شرورهم، وربما يتملقهم .

*أو لأنه كان يهدف الى رشوة(نيخو) املا بخلق ظرف للتحالف معـــه ضد القوة الاقوى في المنطقة وهذا أمر مألوف عند(اليهود) حيـــث سبق وأن قدموا هدايا للآشوريين للوقوف الى جانبهم عند الحاجة.

ويبدو أن تمرد(يهوياكيم) لم يكن عاملا على اثارة(نبو خـــذ نصـــر)، حيث انه خلال صيف عام ٥٩٨ق.م. كان قد اكمل اســـتعداداته لتنفيـذ خططه المؤجلة لغزو(مصر) خصوصا وان ذلك كان عقب حصول تمرد

ملك(يهوذا)، ومانما من انباء متكتمة عن تململ لدى بعض حكام الشام جراء التحريض المصري صار مطلبا ملحا لا مجال للتمادي في تأجيله مما دفعه الى التوجه لفعل حربي حاسم ضد(مصر). وفي طريقه الى هناك قرر أن يوجه بعض قطعاته لتأديب الملك اليهودي المتمرد.

كانت الخطة التي اقرها(نبوخذ نصر) والرامية الى مهاجمة(اور شليم) تستند على اسس، اهمها، قطع طرق الاتصال مع(مصر)، وكان ذلك الاساس لا يمكن تنفيذه ما لم يتم احتلال قلعة(رامات- نقب). ولم تكن تلك القلعة من ممتلكات الكيان اليهودي الا ان الملك القتيل (يوشع) ضمها الى ممتلكاته في فترة انهيار الدولة الآشورية ضمن محاولات توسيع حدود دولته. وقد اوعز (نبوخذ نصر) الى تابعه ملك(ادوم) لمهاجمة القلعة واحتلالها.

لقد كانت القلعة المذكورة تشكل نقطة ارتكاز مهمة جدا في الهيكل الدفاعي العام لليهود، وعثر مؤخرا على فخارية تحمل رسالة من (يهوياكيم) الى قائد الحامية اليهودية في قلعة اراد (٢٧ كم شمال قلعة رامات – نقب) يأمره فيها بارسال نجدة الى قلعة (رامات – نقب) للعمل على وقف هجوم (الادوميين) عليها[٧] وتبقى بقية الاحداث الخاصة باعمال الدفاع عن القلعة مجهولة الى حد ما.

اما بخصوص الدور الادومي في مهاجمة تلك القلعة ، فنحن نسجل تحفظنا على آراء المؤرخين الزاعمين ان (نبوخذ نصر) طلب عونا او مساعدة ادومية من اجل احتلال القلعة، وان سبب تحفظنا بل اختلافنا معهم وعدم قناعتنا بحاجة (نبو خذ نصر) الى المساعدة الخارجية، هو علمنا الاكيد ان الملك البابلي تجهز ليس لمعاقبة اليهود، وانما لغزو (مصر)، لذا فان مايملكه جيشه من امكانات ووسائل وعزيمة يجعل من مسألة ازاحة قلعة عن طريقه اشبه بالتدريب على الواجبات المقبلة. ثم ان هذا الجيش ذاته دك اسوار (اورشليم) بعد شهرين، فهل كانت تلك

القلعة اقوى من تحصينات العاصمة ليطلب الملك البابلي مساعدة خارجية من امارة متواضعة تطمع بحماية البابليين ضد غطرسة ملوك (يهوذا) وتوجهاتهم التوسعية؟

مانقرره بخصوص هذه المسألة هو ان (نبوخذ نصر) اصدر أمرا لملك تابع هو ملك(ادوم) لتنفيذ واجب ازاحة ذلك الجيب اليهودي بالاستفادة من الموارد المتاحة وتحاشيا لتشتيت قوة وجهد الجيش المركزي خصوصا وان المناطق شرق (الاردن) كانت تخضع لملك (بابل) من ٦٠٥- ٥٩٧ ق.م.[٨] وهذا يؤيد وجهة نظرنا حيث لايمكن قبول ادعاء طلب (نبوخذ نصر) للمساعدة من تابعيه الخاضعين لسلطته.

وعقب استكمال عوامل محاصرة العاصمة فقد وجه (نبوخذ نصر) قواته لتنفيذ الواجب الاكثر أهمية وتأثيرا، انه مهاجمة (اورشليم) وفتحها لتأديب ملكها المتمرد. ومع عدم وجود وثيقة يمكن الركون اليها لمعرفة مصير الملك اليهودي، الا اننا لانشك في فقد حياته خلال الحصار سواء بفعل المهاجمين او انه اغتيل، وقد يكون مات حتف انفه حيث نأخذ بالحسبان الاعتبارات التالية:

١-ليس ثمة دلائل على وقوع (يهوياكيم) اسيرا بيد (نبوخذ نصر) برغم ان سفر دانيال (الاصحاح الاول) يزعم القاء القبض عليه من قبل (نبوخذ نصر). ولسنا ملزمين بالقبول بكل ماورد في اسفار العهد القديم بسبب عدم دقة ما ورد في تلك الاسفار، وللاستدلال نقول: ان سفر اخبار الايام الثاني (الاصحاح:٣٦) يحدد عمر (يهوياكيم) عندما اجلس على العرش بثماني سنوات بينما يدعي سفر الملوك الثاني (الاصحاح: ٢٤) ان عمره كان ثماني عشرة سنة. فأي الادعاءين نعتمد؟

٢- ان مدة حكم(يهوياكيم) بصرف النظر عن حقيقة سنه كانت ثلاثة اشهر وعشرة ايام فقط ثم اسره (نبوخذ نصر) واقتاده اسيرا مع

امه وحاشيته الى (بابل). فهل يمكن التسليم بان ملــــك (بـــابل) نصبه ثم اسره بعد ثلاثة اشهر، مما يعني انه نصــب قبـل فتـح (اورشليم) وليس بعدها.

٣-ان العاصمة كانت تضطرم بنيران الثورة وان حزب (ارميا) الذي كان يدعو الى مد الجسور مع (بابل)- خوفا منها وطمعـــا فـــي رحمتها- كان قويا ويظهر معارضة شديدة للملك الذي مالأ اللوبي المصري مما يعني ان احتمالات موت الملك غيلة خلال الحصـــار امر ممكن جدا ومقبولة.

لقد انتهى حصار (اورشليم) بنتائج باهرة، حيث تـــم فتـــح المدينـــة وجرى تنصيب ملك جديد اختاره (نبوخذ نصر) من بين عناصر النخبة اليهوديـــة هـــو (ماتانيـــا) بعـــد ان غـــير اســـمه الـــى (صدقيا) وتأكيد تابعية (يهوذا) الى (بابل) مع سوق حوالـــي ثلاثـــة الاف اسير[٩] من الشرائح الاكثر اهمية وتأثيرا الى (بابل) في مقدمتـــهم الملك (يهوياكيم) وعائلته مع من يرجـــح انـــهم ســـيخلقون المتـــاعب وينسجون المؤامرات تحسبا للمشاكل بينما اظهر (نبوخذ نصر) تسـلمحا ورحمة مع البسطاء من اليهود[١٠].

وبرغم تظاهر (ارميا) بالانحياز الى (بابل) وموقفه الصلـــب ضـــد توجهات الملك (يهوياكيم)، الا انه بعدما اسر (نبوخذ نصر) ثلاثة الاف من بني جلدته (السبي البابلي الاول) واستقرار الاوضاع عقب تنصيـب ملك جديد يخضع لسلطة (بابل) كان (ارميا) يلبس وجهين، الاول قناع علني يتميز بمناصرة (بابل) والدعوة الجادة للخضوع لها. بينما كـــان الوجه الحقيقي الذي تحت القناع ينطوي على التخطيط للاســـتفادة مـــن الظروف الجديدة ومنها وجود ثلاثة الاف يهودي في (بابل) حيث كـــان يراسل زعماءهم سرا طالبا منهم تأليف قوة نفوذ قوية داخـــل(بـــابل)، وكان يقوي عزائمهم ويرفع معنوياتهم محاولا دفعهم للعمل مـــن اجـــل

الحفاظ على كيانهم (المتميز) داخل المجتمع البابلي ومقاومة الانصهار داخل ذلك المجتمع والتلاشي فيه، فهو يقول لهم :" هكذا قال رب الجنود اسرائيل لكل السبي الذي سبيته من اورشليم الى بابل. ابنوا بيوتا واسكنوا واغرسوا جنات وكلوا ثمرها. خذوا نساء ولدوا بنين وبنات وخذوا لبنيكم نساء واعطوا بناتكم لرجال ليلدن بنين وبنات واكثروا هناك ولاتقلوا".

ولكي يجنبهم غضب الملك لذا يحذرهم (ارميا)آخذا بالحسبان احتمال وقوع تلك الرسالة بيد رجال الملك فيقول محاولا بلوغ هدف مزدوج (اطلبوا سلام المدينة التي سبيتكم اليها وصلوا لأجلها الى الرب لان بسلامها يكون لكم سلام). ويكرر تحذيره من التمرد لانه ليس في صالحهم(لا تغشكم انبياؤكم الذين في وسطكم وعرافوكم ولاتسمعوا لاحلامكم التي تحلمونها). ثم (يبشرهم) بالخلاص ولو بعد حين، حيث يزعم انه (هكذا قال الرب. اني عند تمام سبعين سنة لبابل اتعهدكم واقيم لكم كلامي الصالح بردكم الى هذا الموضع[١١] انه سياسة اذن وليست دينا حيث كان (ارميا) يعد (احكم من السياسيين)[١٢].

لقد كان (نبوخذ نصر) ذا خبرة عميقة باساليب التعامل مع حكام اليهود، وكانت خيانة(يهوياكيم) والصيغة التي نفذت بها اخر تجاربه في هذا المجال. كما انه كان على يقين بأن ميل المتنفذين في (أورشليم) نحو (مصر) التي كانت بسبب ضعفها تبدو مسالمة ووديعة هو سبب كل هذه المشاكل، لذا وجد ان يأخذ من (صدقيا) موثقا في تجنب الخيانة والبقاء تابعا للعرش البابلي مهما كانت الظروف التي تستجد على المسرح السياسي او العسكري لاحقا، ووقف (صدقيا) امام (نبوخذ نصر) يؤدي يمين الطاعة المطلقة وقسم الولاء التام متعهدا انه لن يقدم على أي عمل تآمري او خداع وسيمتنع عن التحالف مع (المصريين)[١٣].

ويصدق حدس (نبوخذ نصر) المجرب الخبير في تعامله مع هـؤلاء الناس. اذ ان الفرعون الجديد (ابرايس ٥٩٥-٥٧٠ ق.م) تجاهل على ما يبدو فروقات القوة بين مملكته و(بابل)، فقد قرر ان يجرب حظه في التوسع والتحرش ببابل خصوصا وان تعاملا سريا وتآمرا خفيا كان قد نفذ مع بعض حكام بلاد الشام وخاصة مع ملك(يهوذا) وملك(غـزة) وبعض الفينيقيين في الساحل السوري اضافة الى (الادوميين)(١٤) . وعندما غدر بحليفه ملك(غزة) واحتل دولته بمساعدة عملاء الداخل وجد(صدقيا) أن ذلك الظرف ملائم لتنفيذ دوره في الخطة خصوصا وأن ما اشيع عن حصول مؤامرة في(بابل) ضد(نبو خذ نصر) أغراه بعدم امكانية قدوم جيش بابلي الى (فلسطين) ومكوثه فيها طويلاً ولحين يتمكن (نبوخذ نصر)من اعادة تنظيم جيشه(في حالة فشل المؤامرة ضده) حيث يكون(المصريون) قد رصنوا ما احتلوا من(فلسطين)، فان(نبوخذنصر) سيتردد وقد يحجم عن التوجه الى(فلسطين).

وهكذا كانت حسابات(صدقيا)، وبهذه الطريقة الساذجة كان يفكر، لذا حنث بقسمه ولحس مواثيقه واعلن التمرد والعصيان ضد(بابل) وبذا حقق عملاء(مصر) في بلاطه مكسبا عظيما بسبب وجود استعداد نفسي لدى(صدقيا) للانسياق وراء رغباتهم الشديدة التي يناهضها(ارميا) ذو البصيرة الثاقبة.

وكان (نبوخذنصر) قد حقق نجاحاً كبيراً في تصفية جيوب المتآمرين في الجيش وأعاد توزيع المناصب القيادية فيه على القادة الاكثر اخلاصا، وكانت عملية اعادة تنظيم الجيش سهلة بسبب قلة مؤيدي التآمر وقوة العناصر القيادية المؤيدة للملك مع تحقق شعبية طاغية لشخصه بين المقاتلين. وسرعان ما قاد جيشه ليتوجه مسرعا نحو(فلسطين)، ومن مقره المتقدم في(ربلا) كان يرسل الحملات لتأديب العصاة والمتمردين.

ومع وصول الاخبار عن تقدم(نبوخذ نصر) الـــى(فلســطين)، أخـذ التحالف الذي يقوده فرعون(مصر) بالتفكك، حيث كان أول من خـــرج عليه هم(الادوميون) الذي احسنوا صنعا في خروجهم المبكر لانهم أمنـوا حماية أرضهم وكيانهم وممتلكاتهم من غضب(نبوخذ نصر) لأمد طويـل لاحق. في ذات الوقت لمس الفرعون بوادر الفشل والتداعي حيث أخذت الانهيارات في جدار حلفه تزيده وهناً على وهن.

ولقد كانت التطورات التي حصلت كافية لان تشجع الحزب المعارض في اور شليم بقيادة(ارميا) على رفع درجة انتقاده ومعارضتــــه للخـط المصري الذي انضم اليه الملك. فقد كان(ارميا) يحسب حســـابا دقيقـا لاحتمالات المستقبل، خصوصا وانه سيتعرض للمساءلة من قبل(نبوخـذ نصر) فيما لو احتل(اور شليم) كونه شاهدا على القسم الذي أداه(صدقيـل) امام ملك(بابل). وعاد حزبه يستقطب الكثير من الساخطين على الملـك خوفا من عواقب الامور، خصوصا وانهم جربوا الركض خلف عربـــة الفرعون عندما حملهم(يهوياكيم) على ذلك.

وعملا بنصيحة عملاء(مصر) بقيادة(حنانيا) فقد قرر الملك اســـكات صوت(ارميا) وتقليل نشاط المعارضة بايداع قائدها السجن. ولكي يقضي على مقاومته واحتجاجاته في السجن وليجعل منه درسا قاســيا وعــبرة بليغة لبقية المعارضين فقد امر بمعاملته بقسوة داخل السجن حيث كــان قوته اليومي رغيفاً واحداً من الخبز لا يزاد عليه، ونسب احد اعضـــاء حزب(حنانيا)من عملاء(مصر) المدعو(يوناثان) ليكون مســـؤولا عــن زنزانته حيث مارس معه(يوناثان) أقســى ضــروب التعذيـب البدنـي والنفسي.وخوفا من هلاكه وما ينجم عنه من نقمة شعبية، أمـــر الملـك أخيرا بنقله الى سجن داخل القصر الملكي[١٥]. وبذا أمن إضافـــة الـى سلامته منع تسرب اقواله واخباره إلى مؤيديه مع فرض تعتيم أكبر عليه بمنعه من تنسم الاخبار ومعرفة مجريات الأمور.

ومع أن(حزقيال) الذي حمل الى(بابل) ضمن السبي البابلي الأول كان يبعث برسائل من هناك الى(اور شليم) ومنها رسائل خص بها الملك(صدقيا) يحذر فيها من مغبة الانجرار وراء عملاء(مصر) ليس كرها بالفرعون ولا حبا ببابل ولكن خوفا على الكيان السياسي اليهودي من غضب(نبوخذ نصر)،مع ذلك كله فأن هذا العمل يعد معارضة علنية اخرى لتوجهات الملك وتجدر الاشارة الى أن اغلب رسائل وتقارير(حزقيال) كانت مجفرة كما كان(ارميا) يجفر رسائله التي يبعث بها الى زعماء السبى في(بابل)، الا أن رسائل(حزقيال) كانت اكثر قيمة من الناحية العسكرية والسياسية من افكار وخطط تحمل التحذير لأن(نبوخذ نصر) لن يرحم من يخرج على طوعه وأن(الاصحاح:١٧) من سفره في العهد القديم حافل بالنصائح المبطنة.

لقد كان هذان الرجلان(ارميا وحزقيال) نجحا في تخمين ما يمكن أن يحصل لو أن(صدقيا) استمر في نهجه التمردي كونهما على بصيرة من حجم الاقتدار البابلي وضعف الكيان اليهودي وما تنطوي عليه طبيعة(نبوخذ نصر) من حزم وشدة في تعامله مع الخصوم حيث لا مهادنة ولا تسامح مع ناقضي العهود[١٦]. وكانا الاكثر توقعا والاصدق حدسا لما سيجره هذا التحدي الذي لا يرتكز على ارض صلبة.

وكانت اسفار العهد القديم قد أوردت صفات مميزة انماز بها(نبوخذ نصر) ومنها شدته البالغة مع(الذين ينقضون العهد) وكذلك مع(جبابرة الناس).أما (مساكين شعب الارض) فقد كان رؤوفا بهم ولم يجبرهم على الرحيل الى(بابل)[١٧]. لا بل كان برغم قسوته وغلظته مع الجبابرة نبيلا في تعامله مع عوائل الملوك المهزومين، حيث خصهم بمعاملة لائقة وخصص لهم جرايات(أرزاقاً) من مخازن القصر الملكي، وعثر المنقبون الاثاريون في(بابل) على كتابات تعود الى زمنه ونص احدها "الى يهو-كينا ملك بلاد يهودو ولأبناء ملك بلاد يهودو الخمسة ولثمانية

يهود لكل منهم نصف سيلا من الحبوب"[١٨] ولم يبق هذا الملك في الاسر حيث اطلق سراحه ومن عليه بمكانة متميزة وصيره من ندمائـــه ناسـيا فعلته وفعلة ابيه وبطانتهما. تلك كانت بعض صفات الملك البابلي الشديد في القسوة والشديد التسامح.

وبعد ورود تقارير استخبارات من(فلسطين) مشـــحونة بالمعلومـات المثيرة كاحتلال(المصريين) لغزة وتصاعد حجـــم التحـالف اليـهودي ضد(بابل)، والنيات المصرية المبيتة لاحتلال المزيد من ممـــالك بـلاد الشام بهدف تحطيم القوة الاقتصادية لبابل عن طريق تدمـير تجارتــها. إضافة الى معلومات مفصلة عن الأوضاع الداخليـــة لمملكـة(يـهوذا) والمعارضة القوية المنطوية على حرص شديد نحو اتقاء شر الغضـــب البابلي وما حل بزعيمها(ارميا). كل ذلك دفع(نبوخذ نصر) بعــد قيامـه باجراء تقدير سليم للموقف لان يقود جيشه مجددا ميمما شــطر مســرح الحرب الشامي.

ومن مقره المتقدم في(ربلا) ارسل القسم الاكبر من الجيش للتعامل مـع التمرد اليهودي وقمع العصيان الذي قام به(صدقيا) الذي حنــث بقسـمه امام(نبوخذ نصر) وتنكر للمواثيق والعهود التي قطعها على نفسه بالبقـاء تابعا مطيعا للسيادة البابلية. وانهزم الفرعون من(غزة) لائذا بالفرار فــي ظرف صعب مثل هذا الذي وجدت فيه الممالك الضعيفة في بلاد(الشـام) نفسها وجها لوجه امام(نبوخذ نصر)، لئلا يتعرض للمصـير المجـهول على ايدي جنود(بابل)، تاركا حلفاءه لمصير يقرره اقوى ملـوك العـالم يومذاك(نبو خذ نصر). وكانت اجزاء الجيش البابلي تتجه نحو اهدافــها لتأديب العصاة والمتمردين.

وكانت القوة الضاربة التي ارسلها(نبو خذ نصر) لالقاء القبض علـــى ملك(يهوذا) الجاحد(صدقيا) قد عملت على تدمير المدن والقرى المحيطـة بالعاصمة باتباع سياسة الأرض المحروقة لحرمان الملـــك المحصـور

في(اور شليم) من الاتصال بالخارج. وعندما طوق الجيش البابلي مدينة (اور شليم) انشأ ابراجا ضخمة حول اسوار المدينة(١٩) المحاصرة بشدة. ولم يكن قادة الجيش البابلي في عجلة من امرهم فيعرضوا حياة جنودهم للخطر لذا استمر الحصار ثمانية عشر شهرا نفذت خلاله الارزاق والمعنويات وانهارت قدرة الملك (صدقيا) على الصمود والمقاومة خصوصا وان الفرعون لم يحرك ساكنا فقرر ان يهرب مع افراد عائلته من خلال ثقب احدثه في سور المدينة تاركا رعيته تحت رحمة قادة الجيش البابلي، ولكنه قبل ان يحقق تماسا مع(المصريين) القي القبض عليه مع افراد اسرته ومن كان معهم في مدينة (اريحا) وسيقوا الى مقر الملك المتقدم في (ربلا) ليمثل امامه ويحاكم على افعاله المشينة.

كان اللقاء مشحونا بالغضب جراء ما اعتمر صدر (نبو خذ نصر) من شحناء ضد صنيعه الذي أحسن الذي اليه فصيره ملكا فجازاه بالخيانة ناكرا الايادي البيضاء التي لملك (بابل) عليه. فامر (نبو خذ نصر) باقتياده اسيرا مسمولا بصحبة اكثر من (٤٠) الف اسير من الخونة الذين كانوا يهتفون باسم الفرعون في عاصمة يفترض ان تجير تبعيتها(لنبو خذ نصر).

ولضرورة وجود ادارة تتولى شؤون ورعاية سكان المملكة المنحلة (يهوذا) لذا قرر (نبوخذ نصر) اختيار شخصية يهودية قادرة على الاضطلاع بهذه المهمة الصعبة في ظرف يتطلب نوعا متميزا من الرجال. فاستقر رأيه على تنصيب (جداليا بن اخيقان بن شافان)[٢٠] . ولقد كان (ارميا) المحبوس في القصر الملكي من بين العناصر التي بحث عنها قادة الجيش البابلي، وعندما عثروا عليه خيروه بين الذهاب الى (بابل) معززا مكرما او البقاء حيث هو فاختار المكوث في

(اورشليم) فهو لم يفعل ما فعل حبا بالكلدانيين وانما حرصا على بني دينه وحفاظا على كيانهم السياسي.

لم يكن رئيس شرطة بابل(نبوزردان) قد نجح في استئصال شأفة عملاء الفرعون في (اورشليم)، وكان بعضهم قد توارى عن الانظار خلال فترة تعقيب وتحري عناصر هذه الفئة. وما ان انسحبت القطعات البابلية من (يهوذا) بعد ان سلمت السلطة الى (جداليا) وحكومتة حتى ظهرت العناصر المختبئة لتواصل تآمرها الذي يقبضون ثمنه ذهبا من حكام(مصر) بينما يدفع مساكين الشعب راحتهم وامنهم وابناءهم ثمنا لتهدئة الغضب البابلي.

لقد جمع المتآمرون حشدا من الوجهاء وقابلوا (جداليا) ليتفاوضوا معه حول مستلزمات العمل في المرحلة المقبلة وما ينبغي ان تكون عليه سياسة الحاكم اليهودي من أسس ومرتكزات في ادارة شؤون الدولة. ولما كان (جداليا) اكثر بصيرة بعواقب الامور فقد اخبر عناصر الحزب المتعامل مع (مصر) ان بإمكانهم العيش بحرية وامان شريطة الاقرار بالطاعة لملك (بابل) لان في ذلك سلامة الشعب والممتلكات.

ولما كان موقف (جداليا) صلبا غير قابل للتأثر بارادة هؤلاء العملاء، اسوة بالمعارض الكبير (ارميا) فقد رأى جمع العملاء (المصريين) ان يتعاملوا معه بطريقة اخرى حيث عقدوا عزمهم على مهاجمته في مقره وقتله مع اعضاء حكومته وحاشيته، وكان لهم ما ارادوا فقتلوه ومن معه من (اليهود) و (الكلدانيين)[٢١] من رجال مشورة وحماية.

ولان (ارميا) صوت مدو صار ذو قدرة تأثيرية كبيرة بعد طول عهد في العمل السياسي المعارض وكانت اراؤه قد ثبت صوابها. فقد رأي المتآمرون ان يضموه اليهم في رحلة هربهم الاخيرة الى (مصر)، ولكنهم عجزوا عن اقناعه، ولما كان بقاؤه في (اورشليم) يشكل نقطة

لصالح (بابل) كونه سيقاوم اية محاولة للتمرد والعصيان، لذا عمدوا الى القبض عليه وحملوه الى (مصر) ليتقاضوا ثمن تأمرهم، ويتركوا بني جلدتهم يدفعون ثمن التمرد والعصيان غاليا بما يطفئ نار الغضب البابلي.

وفي (مصر)، يقرر الفرعون اناطة عمل اخر بعملائه (اليهود) بعد ان يأس من امكانية الحصول علي موطئ قدم في (فلسطين)، فاسكنهم في جزيرة (الفنتين) في الجنوب ليكونوا بعيدين عن العاصمة لا يصلها تآمرهم ومشاكلهم. وهناك في المنفى البعيد يموت (ارميا) غما وكمدا.

ولكي يبقى اليهود في جزيرة (الفنتين) فقد انيط بهم واجب دفاعي (مرتزقة) لتأمين حماية الحدود الجنوبية وهو الامر الذي استمر عليه حالهم خلال حقبة احتلال الفرس الأخمينيين لمصر حيث مارسوا نفس المهمة الارتزاقية[٢٢]، وهذا دليل على استعدادهم لبيع انفسهم وخدماتهم لكل راغب في الشراء.



المبحث الثالث

دور اليهود في سقوط بابل

شكل سقوط(بابل) على ايدي الغزاة الفرس الاخمينيين بقيادة(كـورش) عام ٥٣٩ ق.م نهاية الدولة البابلية المستقلة، وهو في ذات الوقت بدايـة لحكم اجنبي طويل الامد لم ينهه غير الفتح العربي الاسلامي عام ٦٣٩م. وتتجه اصابع الاتهام بثقة شديدة نحو اليهود المتواجدين في(بابل) عندمـا يراد تشخيص الاسباب والعناصر المساعدة على السقوط السريع لاهـم وامنع مدن الدنيا يومذاك حيث التحصينات الهائلة التي انشـاهأ ملوكـها المتعاقبون والتي توجها(نبوخـذ نصـر) مبلغـا اياهـا ذروة درجـات التحصين، سواء بتحسين الموانع الطبيعية(نهر الفرات والشبكة الاروائيـة المتفرعة عنه) أو الانشاءات والاسوار الضخمة والاستعدادات الكفوءة.

فاليهود داخل الحصن البابلي المنيع كونوا(رتلا خامسا)(*) ساهم فـي سرعة اختراق الغزاة تحصينات المدينة، وكان خطأ الحكومـة البابليـة القاتل يتمثل في وضع برميل بارود سريع الاشتعال داخل المدنية تتـألف مكوناته من(٥٠)ألف[٢٣] مشتبه به.

وزاد(نبو خذ نصر) من حجم اخطائه التاريخية في هذا المجال مـن خلال استخدام فئة منهم في اعمال الترجمة والخدمة في القصور الملكية، أو تعيينهم في وظائف ذات علاقة برفع درجة الاستعداد القتالي واعـداد الدولة للحرب. فقد انيط بهم الاشراف على القطاع الزراعـي وانشـطة اقتصادية اخرى كالسياسة المالية وادارة المصارف وغيرها. اسهم ذلـك كله بالتعاضد مع عوامل اخرى في تردي اقتصاد(بابل) بشكل مخطط له

---

* الرتل الخامس: هم الاشخاص الذين يقومون باعمال التجسس والتخريب والهدم فـي البلد لصالح دولة أجنبية[٢٤].وقد اطلق هذا المصطلح ابان الثورة الاسبانية بعد هجـوم الوطنيين على (مدريد) بأربعة أرتال وادعاء (فرانكو) انها كانت خمسة، وفسر الرتل الخامس بعملاء الداخل.

ومدروس بعناية مع أن الاستعراض المتأني للمستوى الحضاري الرفيع الذي كانت عليه(بابل) ينبئ انها ما كانت بعوز الى(اليهود) يشغلون تلك المناصب الخطيرة التي ادت الاساءة في ادارتها عمدا الى تدمير(بابل)،وهو الهدف الذي حققوه سلميا من الداخل بعد أن عجزوا عن تحقيق بعضه في ميادين القتال. فقد كانت مناصبهم وطبيعة تسللهم الى المفاصل الحساسة من السلطة والمجتمع البابلي واندساسهم فيها، وسيلة سهلت للمتنفذين منهم للوقوف على ادق مجريات الامور في مركز السلطة والتدخل الفوري لحرف الامور الى الاتجاه المراد. وقد اعتمدوا اشاعات مغرضة وسربوا أخبارا ملفقة لاحباط الشعور الوطني ومن تلك الإشاعات ما حمل فرية جنون(نبو خذ نصر) كما وردت في سفر(دانيال) والتي(لم تؤيد من أية وثيقة معروفة)[٢٥] وما زال بعض المؤرخين من ذوي الهوى اليهودي يرددون تلك الإشاعات التي تدعي أن(نبو خذ نصر)قضى عدة سنوات يمشي على اربع ويأكل الكلأ.

اما الدور اليهودي الفاعل في مجال التحريض المرير ضد الملك البابلي الأخير(نبونائيد) وخاصة دعاوى انتهاكه لحرمات المعابد[٢٦] كما سنفصل ذلك لاحقا فقد كان ملموسا ونفذ بدقة واتقان.

فالكراهية التي يضمرها(اليهود) لبابل سلطة ومجتمعا، وحجم المعلومات الخطيرة التي بحوزتهم جراء تسللهم الى مركز السلطة، ومقدار التأثر الذي يستطيعون فعله والذي ينجم عنه شل أو تدمير الحيلة الاقتصادية، كانت كلها عوامل مساعدة على قبولهم عملاء رخيصي الكلفة من قبل(كورش) ملك(الفرس الاخمينيين) ذي المظهر الاخلاقي والانساني الخلاب والمنطوي على سريرة وضيعة تضعه في مرتبة ادنى من مرتبة أي مجرم عادي،فهو(على سبيل المثال) تحالف مع(نبونائيد) ملك(بابل) ضد جده لامه (استيا جس) ملك(ميديا). ثم عمد الى شراء ذمم قادة جيش جده، وعندما لمس الجد خيانة من حفيده(كورش)، استدعاه الى

عاصمته(اكبتانا) التي هي(همدان) الحالية، ولكن الحفيد المتامر رفض المثول امام جده مما أجج نار الحرب بينهما. وكانت النتيجة معروفة مسبقا حيث نفذ قادة الجيش الميدي خيانتهم ضد ملكهم الذي بقي في ساحة المعركة وحيدا لا ناصر له ولا معين، فالقى جنود حفيده القبض عليه واقتادوه اسيرا ذليلا تمهيداً لتحقيق حلم الحفيد العاق(كورش) في توسيع حدود مملكته بعد اضافة مملكة جده إليها.

ويعترف(ديورانت) الذي يسهب في وصف(الاخلاق الراقية)للملك الفارسي بان تلك الأخلاق(قد شابتها شائبة كبيرة، تلك هي قسوته المفرطة في بعض الأحيان) [٢٧]. عندنا من بين شهادات سقوطه الأخلاقي تحريقه لأهالي(اكد) بالنار[٢٨]. كانت المصلحة مشتركة بين يهود السبي وهذا الملك الطموح، فاشتغلوا عملاء عنده، وحسنوا صورته، وما زال مؤرخوهم...يطرحونه كنموذج حضاري متقدم.

لقد رأى(اليهود) الذين في(بابل) بشخص الملك الفارسي(كورش) المسيح المنتظر، برغم وثنيته وساديته ومصلحيته. يصفه(اشعيا) مترنما "هكذا يقول الرب لمسيحه كورش الذي امسكت بيده لادوس امامه امما واحقاء ملوك اجل لأفتح امامه المصراعين والأبواب لا تغلق. وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابئ لكي تعرف اني انا الرب الذي يدعوك باسمك، اله اسرائيل" وفي مكان اخر من نفس الخطاب الالهي المزور "لاجل عبدي يعقوب واسرائيل مختاري دعوتك باسمك. لقبتك وانت لست تعرفني" [٢٩].

ومع أن(كورش) وثني لا يعرف رب(اليهود) كما يقر بذلك(اشعيا)، وانه كان على استعداد لعبادة أي وثن يقابله، نفاقا، طالما يخدع بعمله ذاك البسطاء من الناس. وقد حاول ذلك النفاق عندما احتل(بابل)متظاهرا امام اهلها بانه يحترم الهتهم، فقد(اخذ ايدي بعل)[٣٠] إلا انه كان قد خص

بآيات عديدة من اسفارهم التي زوروها ونسبوها الـــى ربـــهم الخـــاص (اله اسرئيل).

لقد كـــان الخطـــاب الالـــهي المـــزور طريقـــة ســـاذجة لتخريـــج اشتغال(اليهود)عملاء لدى(كورش) فراسلوه سرا ووزع عليـــهم المـــهام والواجبات وحدانا وجماعات في خطة(تفتح له المصراعين) كما وعدوه. وتلك كانت بداية التزلف اليهودي لملك(الفرس).

ولا شك أن(نبو خذ نصر) نفسه لا يعفى من تقصير كبير في تســـريع انهيار دولته، فقد حكم امبراطورية عظيمة طيلة ما يقرب من(٤٠)عامـــا لكنه لم ينجح في تدريب واعداد ولي عهد كفوء، ممـــا ســـبب صـــدور هفوات عنه صارت وسيلة للتشنيع به وخاصة من قبل اليهود واضعـــاف جبهته الى درجة أن المؤامرات المحيطة به قضت عليه بســـهولة بعـــد توليه الحكم بسنتين مع أن التاريخ يبرز احسان هذا الملك الى ملك اليهود الاسير واطلاق سراحه ربما لتحسين العلاقات مع(المصريين). عمومـــا تشكل شخصية ولي عهد(نبو خذ نصر) وخليفته نقطة ضعف في مسيرة هذا الملك العظيم اضافة الى اخطائه التي تمثلت في استثماره للعنـــاصر اليهودية وتعيينها في مناصب عليا في الدولة البابلية.

وعندما قتل ابن وخليفة(نبو خذ نصر) الملك(اميل- مـــردوخ) علـــى ايدي متآمرين،قفز الى العرش البابلي(نرجال- شار- اوصر) صهر(نبـــو خذ نصر) ولم يفرغ نفسه لدراسة المشاكل الداخلية ووضع حلـــول لـــها برغم التذمر الذي تفشى بين أوساط المجتمع، وكان(اليهود) كما قدمنـــا، العناصر الناقلة والمروجة لذلك التذمر وبدلا من التفرغ المطلوب، قـــاد الملك الجديد جيشه ليتســـابق مـــع(الميديـــين) فـــي احتـــلال منـــاطق عبر(طوروس) ربما ظنا منه أن ذلك سيساعده على تقوية مركزه فـــي العاصمة ولكن خابت كل اماله فرجع منكسرا مدحورا ليموت في(بابل)، وربما كان موته جزءا من مؤامرة جديدة عصفت بالقصر الملكي[٣١].

ولم يكن قادة الجيش راضين عن صعود(لباشي-مردوخ)ابن الملك القتيل الى العرش، فنحوه ورقوا مكانه(نبونائيد) الصهر الثاني لنبو خذ نصر وهو رجل ذو مكانة مرموقة، وكان يحظى بثقة حميه من خلال قيامه بمهمات دبلوماسية ناجحة كان بعضها(مساعي حميدة)تهدف لوقف الانهيار في علاقات الدولتين الميدية والليدية، بمعنى انه كان شخصا ذا مكانة دولية مرموقة، ولا عجب فهو سليل اسرة نبيلة كريمة المحتد من طرفيها.

كان في مقدمة اهتمامات الملك الجديد(نبو نائيد)وهو الشيخ المتبصر(كان في الستين من عمره عندما توج ملكا على بابل)أمران، أولهما الإصلاح الاقتصادي وثانيهما الإصلاح الديني. وربما ربط بين كلا الاهتمامين بعمل في حقل أي منهما محققا مراميه في الاهتمام الاخر. فمثلا كان لابد له من إستعادة(حران) من الميديين كونها مركز عبادة اله القمر الذي رفع(نبونائيد) من مكانته، فهو يريد أن يحقق هدفا دينيا في عمله ذاك، ولكنه ينطوي في ذات الوقت على منافع اقتصادية كبرى لبابل حيث أن(حران) عقدة التجارة الرئيسية وملتقى الطرق التجارية المهمة فلماذا لا تكون داخل حدود مملكته، ولاجل تحقيق ذلك فقد تحفز لقبول التحالف مع(كورش).

ثم انه عندما ذهب الى(تيماء) ليضمن سلامة طرق التجارة القادمة من(اليمن) فهو في ذات الوقت اهتم باله القمر(سن) الذي كان عرب الجزيرة وخاصة سكان(تيماء)يضعونه في مقدمة الهتهم، فقد كان الاله الوطني لتلك الانحاء. نستنتج أن هذا الملك كان يعمل بطريقة مبدعة يحقق اكثر من غاية خلال سعيه لتحقيق أي من غاياته، وهذا دليل نبوغه في مجال الحكم والسياسة وليس كما اتهمه(اليهود) بما هو مزر .

واذا ما تفحصنا طروحات(كورتيوس)* الذي ينقل(البستاني) في دائرة معارفه وصفا رواه لبابل حيث يقول(اشتهرت بابل بترفه اهلها وفساد اخلاقهم ولا سيما في أواخر ازمانها أي بعد أن صارت عاصمة لامبراطورية كبرى ولم يكن في الأرض اشر من ادابها ولا مدينة تحاكيها في الترف)، فأننا نسلم بصحة بعض هذا الوصف المتأخر عن سقوط (بابل) بخمسة قرون، باعتداد ان التدني الاجتماعي الذي اشار اليه كان سبب الضعف الذي حل بالقوة البابلية الضاربة الى درجة أن ملكها (نرجال – شار اوصر) ينكفئ منكسرا من ميدان المعركة مع (الميديين) الآيلين الى زوال كما مر بنا وان ملكها الاخير لم يكن قادرا على تنفيذ حملة عسكرية الا بعد لجوئه الى تجنيد ابناء المقاطعات الغربية[٣٢].

لذا فلا عجب في ان نجد ان الاصلاح الاجتماعي كان في مقدمة اهتمامات الملك (نبو نائيد)، والذي وجد ان لاسبيل الى بلوغ تلك الغاية الا عن طريق الاصلاح الديني، ورفع من شأن اله القمر، الذي كانت ام الملك الكاهنة الاولى في معبده الرئيس في (حران) وابنته (بعل- شالتي- ننار) الكاهنة الاولى لمعبده الرئيس في (اور). وقد يكون السبب هو شعوره بان تأثير الالهة المعهودة صار غير فعال وبات امرهم مألوفا عند الشعب او انه اراد ان يعزز مكانتها باله يراه جديرا بذلك، وربما كان قصده احداث صحوة دينية تلفت انتباه الناس الى الواقع المرفوض مما يتطلب معه العودة الى الدين مع انه لم يحضر عبادة أي من الالهة المعهودة، بمعنى انه لم ينفذ ثورة دينية في(بابل) كما فعل

* كوينتس كورتيوس: مؤرخ لاتيني اشتهر بكتابه(تاريخ الاسكندر) يعتقد انه عاش في القرن الميلادي الأول.

(خناتون) في (مصر) وانما حاول الاصلاح مع التسليم ببقاء المؤسسة الدينية على حالها الذي وجدت عليه منذ قرون.

ولم يكن الاصلاح بمختلف اتجاهاته يلائم بعض قادة المعارضة في الداخل، فظهرت قصيدة مشينة تتناول شخص هذا الملك المتدين لانه شرع بمحاربة الخلل الاجتماعي وحاول وقف الانهيار، وعنون ناظمو تلك القصيدة، قصيدتهم المشحونة كراهية وهجاءً ووضاعة (السيرة الشعرية لنبونائيد) تتهمه بأنه" شخص مجنون وكذاب يتفاخر زورا بانتصارات لم تطلها يداه ابدا وكافرا جدف بالوهية (مردوخ) وعبد (سن) الاله الذي لم يشاهده احد في البلاد"[٣٣].

وكانت تهمة الجنون بضاعة رائجة عند(اليهود) يلصقونها باعدائهم عند الحاجة كما فعلوا مع (نبوخذ نصر).

ولاشك ان تلك الحملة الضخمة ضد (تبونائيد) كانت تستهدف تدمير ركائز الصمود البابلي بعدِّ الملك شخصا غير اهل للحكم ، واستغل ذلك التشنيع عندما احتل الغزاة الفرس (بابل) لتكريس عدم جدارة الملك بالحكم وحفلت (لفائف البحر الميت)[*] بأمور مشابهة كثيرة يحضرنا منها ما اورده (ساكز) من ان احداها (مكتشفة عام ١٩٥٥ ومكتوبة في النصف الثاني من القرن الاول الميلادي) تتضمن" كلمات الصلوات التي قدمها نبونائيد ملك آشور وبابل، الملك العظيم، قالها عندما ضرب بمرض جلدي لعين بامر الاله الاعلى في مدينة تيما: لقد ضربت بمرض جلدي لعين لمدة سبع سنوات.ولكن عندما اعترفت بذنوبي وخطاياي

---

[*] لفائف البحر الميت وتسمى لفائف قمران: سجلات عثر عليها راع عربي في كهوف ومغارات (قمران) جنوب البحر الميت عام ١٩٤٧ آلت حيازتها الى الصهاينة بعد عدوان عام ١٩٦٧م. ويحاول الكيان الصهيوني التكتم عليها كونها تحمل ادانات لاتقبل الدحض لليهود وخاصة تعاملهم مع الملك (هيرود) اضافة الى ان محتوياتها تفند الكثير من اسفار العهد القديم.

متمنيا حكما جيدا. وكان هناك يهودي من .... وقد كتب واخـــبرني ان اقدس... لاسم الاله الأعلى " (٣٤).

لو اننا اعدنا ترتيب الاتهامات اليهودية والنقائص التي وصمـــوا بـــها شخصية الملك (نبونائيد) لنتجت عقب ذلك الترتيب شخصية تافهة، فـــهل يعقل ان (نبوخذ نصر) كان سيقبل بشخصية تافهة صهرا له؟ ثم كيـــف كان قد حقق نجاحاته على الصعيد الدولي في المهمات الدبلوماسية التـــي اضطلع بها وهو بهذا الضعف، وماذا وجد فيه قادة الجيش ليختاروه ملكا على (بابل)؟.

ومتابعة لعملية التشويه المتعمد لسمعة (نبونائيد) فان (جـــورج رو) يرد حركة التشويه تلك والتي مـــازال بعـــض ذوي المقـــاصد الحـــاقدة والنـــزعات الانتقاميـــة يمارســـونها ضـــد الامـــوات فوجـــد ان تلـــك كانت"اتهامات لئيمة ملفقة انتشرت انتشارا لم يكـــن مختلقوهـــا انفســـهم يتوقعونه"(٣٥). وان لادواع سياسية او نفسية تقف وراء قيام (نبونـــائيد) باستبدال (مردوخ بسن) في عماد مجمـــع الالهـــة البـــابلي وان تلـــك الدعاوي" ربما تعني الشطط في الاستنتاج"(٣٦) . واما اهتمام هذا الملـــك المتآمر على سمعته الشخصية، باعادة بناء زقورة (اور) فهو مســـبوق باهتمامات مشابهة لمعظم ملوك (بابل) الذين ســـاهموا بحمـــاس فـــي صيانتها واعادة بنائها (٣٧). وخلاصة القول أن ثمة استنتاج سابق خلـــص اليه(ساكز) يقول فيه "وأن الاتجاه نحو الاصلاح الديني ربما كان قد بـــدأ منذ عهد نبو خذ نصر حيث كشفت التنقيبات في مدينة اور بان هيكـــل زوجة اله القمر قد اصابه تغير في الطراز المعماري في عهد هذا الملك مما يشير الى تغير في الطقوس. غير أن(نبونائيد) كان هـــو المســـؤول بالدرجة الرئيسية عن هذه البدعة استنادا الى اخباره وكذلك استنادا الـــى اتهامات اعدائه عند سقوطه (٣٩).

وبهدف معالجة التهم والإشاعات اليهودية ضد(نبو نائيد) التي تصفه بالضعف والجبن والجنون وغيرها نقول: أن المجتمع البابلي قد تعلم التذمر والثورات والمؤامرات منذ اواخر عهد (نبوخذ نصر)، وأن مقتل ابنه وصهره وخلع حفيده، اعمال كانت بعض حلقات ذلك المسلسل(التخريبي اليهودي) ولعل هذا امر غير مستبعد في مجتمع مختلف الاهواء والمشارب(حوريون- كاشيون- حثيون- عيلاميون- مصريون- اراميون- اشوريون -كلدانيون- يهود)(٤٠). الا أن ما يلفت الانتباه بشدة هو أن زمن(نبو نائيد) الذي استمر(١٧) سنة لم يتضمن اشارة الى وقوع حوادث في(بابل) خصوصا وانه كان خارج العاصمة لعقد من الزمان وكان ابنه يتولى السلطة نيابة عنه(نائب الملك)، ولم يحصل تمرد أو عصيان داخلي في حين لن يقو ابن(نبو خذ نصر) على الصمود اكثر من سنتين.

لا شك أن سبب انعدام الحركات السياسية والعسكرية الانقلابية والتحريضية في عهده كانت ناجمة عن قناعة السكان بملكهم ونظام حكمه. فالمجتمع البابلي كان خلف الملك برغم كل ذلك الخلاف الديني بدليل عدم حصول حوادث باستثناء افعال اليهود الذين كانوا يتآمرون سرا من خلال مراسلاتهم مع الاعداء ويقرأون عليهم(كلام الرب) الذي اختارهم للخلاص برغم وثنيتهم، اضافة الى محاولاتهم المحمومة الهادفة الى احداث شرخ بين الملك وادارته من جهة وبينه وبين الشعب من جهة اخرى بشتى الوسائل والأساليب.

وعندما كشر الجوع عن ناب، وقد لا تكون حقبة(نبو نائيد) الرحم الذي ترعرع فيه، حيث أن الانفاق المالي الذي نفذه اسلافه وخاصة(نبو خذ نصر) كان كبيرا جدا سواء لتغطية تكاليف الحملات الحربية أو المشاريع العمرانية، وما أعقب ذلك من حصار شديد كان قد فرضه(الميديون) على تجارة(بابل) والذي ساهم في تفاقم الازمة

الاقتصادية كان هذا كله الظرف الذي ترعرع الجوع تحت ظله.. المـهم انه عندما كشر عن نابه فقد دفع ذلك(نبو نائيد) للتحالف مع(كورش) ضد جده ملك(الميديين) كما مر بنا محاولة لدفع غائلة الجوع عن شعب(بابل) عن طريق كسر الحصار الميدي.

لقد كان اهم بنود المؤامرة اليهودية لتقويض القدرة البابلية على الصمـود بوجه المخاطر هو تفتيتها اجتماعيا وتحطيـم العلائـق بيـن المجتمـع والسلطة من خلال تخريب صور الرموز الاجتماعيـة والحاكمـة كمـا ذكرنا ذلك وان المحاولات الجادة والحماسية لنبونائيد لشن حملة للعـودة الى الدين كانت ردا على بعض ذلـك التـآمر مـن خـلال اصـلاح المجتمع.فقد كانت العودة الى الدين هدفا من اهداف الملك لان هذا الفساد الذي لا تبتعد اصابع(اليهود) عنه والمجاعة التي لليهود دور كبير فـي حصولها بسبب اضطلاعهم بالاشراف على الزراعة وتوجيهها، إضافـة الى الانشطة الاقتصادية الاخرى، سرع من انهيار المجتمع الى درجة أن العوائل اعتادت بيع اطفالها في اسواق النخاسة تسديدا للقروض والربـا المترتب عليها والتي اقترضوها من العوائل اليهودية.

وإذا ما القينا نظرة فاحصة بصيغة عصرية على اسوار(بابل) فسنجد تحصينات هندسية غاية في الضخامة تشكل المدينة مركـزا لـها، وأن مجرد تصور عظمة تلك التحصينات يجعل من التفكير بمهاجمة(بـابل) ضربـا مـن الانتحـار أو الجنـون.فالتحصينـات التـي ورثـها (نبو خذنصر) وأبدع في تنميتها وتحسينها، كانت تتـألف مـن سـور مزدوج(سوران احداهما خارجي والاخر داخلـي) يبلـغ سـمك الأول (٦,٥ أمتار)انشئت عليه ابراج لا يبعد كل بـرج عـن الآخـر اكـثر من(١٨متراً). اما السور الخارجي الذي يفصله عن السور الداخلي فسحة عرضها(٧متر) فكان سمكه(٣,٥ أمتار) عليه ابراج يبعد كل منهما عـن الاخر (٢٠ متراً). يحيط بهذه الاسوار الضخمة خندق مـائي ذو قـاع

مبلط. اما الابواب الثمانية فقد كانت عبارة عن مجمعات دفاعية منيعة ونقاط ارتكاز بالغة القوة، فهي ذات حصون معززة بقوة دفاعية ضخمة في كل جزء من أجزائها . وبرغم كل تلك التحصينات المنيعة التي ينام سكان (بابل) داخلها باطمئنان تام فقد زادها (نبو خذ نصر) تحصينا وقوة اضافية تعتمد في هيكلها على سور مزدوج اخر لايقل عن سابقه الذي صار بوجود هذا السور الجديد داخليا. وترك فسحة بين السورين (الجديد والقديم) سعتها نصف كيلو متر تقريبا تكفي لحركة العربات وقوات الدفاع داخلها.وحتى في عهد (نبونائيد) فقد كان ثمة اهتمام ملكي خاص بتحسين وتطوير الاسوار بمستوى لا يقل عن مشاريع عمرانية اخرى شهدها ذلك العهد.

لقد كانت الاسوار الضخمة والقلاع الحصينة سببا في دهشة الكثير من المنقبين وخاصة الالمان الذين تفحصوها بدقة وراح بعضهم يطلق على التحصينات الهائلة أسماء اعتباطية لتغطية الفسحة الكبيرة من المجهول في اختصاص ومهام تلك المنشآت التي وثقها(كولد فاي) في العديد من كتبه المراجعية.

إن منظومة دفاعية بهذه الضخامة مع ما تيسر فيها من مستلزمات البقاء والصمود كالغذاء والماء الذي يخترق اسوارها بشبكة اروائية رائعة التصميم،تجعلنا نستبعد امكانية اجتياح المدينة من قبل أي من الغزاة مهما كانت قوته وامكانياته الحربية وبذا نجد أن من حق اهالي(بابل)النوم داخلها مطمئنين فكيف كان الهجوم الفارسي قد نفذ وتوغل الغزاة الى عمق المدينة سريعا وبغتة دونما قتال يذكر.

لا بد أن نتابع حركة(كورش) منذ تحرك من عاصمته، فدخوله(بابل) لم يكن مفاجأة كما حاول اليهود ومن لف لفهم تصويره. فمنذ أن ابتلع

مملكة جده اخذ يسعى الى ابتلاع مملكة(كورسس)* ملك(ليديـــا) وحقـق مسعاه لاحقاً. وما أن تم له ما اراد حتى بدا يتطلع الـــى جبـــال شـمال وشرق(العراق) ويفكر في قضمها حتى صارت(بابل) على اطلاع تـــام وعلم اكيد بنيات الملك الفارسي واخذت تراقب حركاته وسكناته برغـــم المتاعب التي تواجهها في الجنوب جـــراء هجمـــات الفلـــول المتبقيـة من(العيلاميين) على المدن المهمة(كالوركاء).

وكان النجاح الإبتدائي الذي حققه(كورش) في سيطرته على الضفـــة الشرقية لنهر(دجلة) وازاحته للمدافعين البابليين عنها دفعه للتفكير مليـــا بعبور(دجلة) واختار لتحقيق غايتـــه منطقـــة ملائمـــة درســـها بعنايـة هي(اوبس) قرب(المدائن) الحالية وفي ذلك المعـــبر حصـــل اول لقـــاء متكافئ بين جيشي الدولتين، لمس(البابليون) خلاله الطبيعـــة الشـــريرة والعدوانية للملك الفارسي الذي لم يكن يرويـــه غـــير الـــدم البشـــري، وانتشرت سمعته الدموية بين المقاتلين الذين جردتهم الميوعة والـــتردي الاجتماعي والإفساد المقصود والإشاعات المؤثرة من آخر شـــحنة مـــن ميراث الشجاعة التي خلفها لهم الاباء العظـــام فـــتراجعوا خوفـــا مـــن

---

* يسميه بعض المؤرخين(قارون) ربما تكريسا لقوة وعدالة(كورش) الـــذي يحـــارب الطغاة حسب هذا الزعم لما لقارون من سمعة رديئة في الفكر الاسلامي. وان(قارون) الحقيقي رجل من اثرياء بني اسرائيل عاصر (موسى) وخرج عليه والصق به التـــهم الشنيعة(فخسف الله به الأرض). اسمه في العهد القديم(تورح)، وان الفـــارق الزمنـــي بين(كروسس)و(قارون) الحقيقي(٧٠٠ سنة)تقريبا، والمزعج أن بعض كتابنا سار فـــي نفس هذا الاتجاه الخاطئ(راجع الترجمة العربية لكتاب الحياة اليومية في بـــلاد بـــابل وآشور تأليف جورج كونتينو وترجمة سليم طه التكريتي وبرهان عبد التكريتي الطبعة الثانية بغداد ١٩٨٦ حيث وضع المترجمان هامشا في الصفحة ١٦٥ ذهبا فيـــه الـــى نفس هذا المذهب الخاطئ) نأمل من كتابنا تجنب هذه السقطات التي نظنها من صنـــع اليهود لالصاق صفات اراذلهم بالاخرين.

دموية(كورش) على امل أن ينظموا دفاعهم في(سـبار)، الا أن ارتفـاع معنويات المقاتلين(الفرس) جعلهم يصلون الموضع الدفاعي الجديد قبـل أن يرصنه(البـابليون) الذيـن انكفـأوا الـى(كوثـا) يقودهـم الملـك الشيخ(نبونائيد).

وكانت مشورة القائد البابلي(كوبارو) المقدمة الى الملك(نبـو نـائيد) مشورة فاسدة حيث كان(اليهود)•• قد جندوه لخدمـة سـيدهم(كـورش) فاستجاب له الملك وانسحب لينظمَ الدفاع في منطقة العاصمة ذاتها دونما دراية منه ان القائد(كوبارو) باع نفسه وصار دليلا للغزاة يسهل لجيشـهم التوغل حتى اسوار(بابل) لقاء وعود بالمناصب الرفيعة.

وما حصل لا حقاً كان عجباً عجاباً اذهل المؤرخيـن ذوي الاتجـاه التحليلي والمحقق. فقد وصل(الفرس) الى منطقة(سبار) يوم ١٤ تشـرين الأول عام ٥٣٩ق.م وقبل انقضاء(٤٨) ساعة كانوا قد دخلوا مدينة(بابل) أي فجر يوم١٦ تشرين الأول على الرغم من أن المسافة بين الموضعين ازيد من ٧٠كم فكيف استطاع(الفرس) دخول(بابل) في هـذا الظـرف الزمني الذي بالكاد يكفي لقطع مسافة الطريق، فأين فترات التعويق وأين المعركة الدفاعية حول الاسوار الضخمة؟.

وللاجابة نقول ان أي قتال تعويق وبأي مستوى لم يحصـل بسـبب قيام حامية(كوثا) بقيادة(كوبارو) بتطهير الطرق وابقائها مفتوحة امـام الغزاة ثم تسلم الخائن(كوبارو) مهمة قيادة مقدمة الجيش الفارسي ودلالته الى منطقة العاصمة حيث كان التنسيق المسبق مع الرتـل الخـامس(٤١)

•• كان(كوبارو) حاكما أو قائدا لحامية(كوثا) وهي المدينة التي تقوم مقامها حاليا(جبـل ابراهيم) في منطقة مشروع(المسيب). وقد كانت(كوثا) احدى المنـاطق التـي رحـل اليها(سرجون الثاني) اليهود الذين اسرهم عند احتلاله (السامرة) كما مر بنا.

داخل المدينة قد حصل واكملت الاستعدادات اللازمة لاختـراق المدينـة بدون قتال.

لقد كان لليهود الدور الاكبر في التخطيط والتنفيذ لاستباحة(بابل) فقد قاموا قبل ليلة الهجوم بتهيئة كتل من اشجار الطرفاء مكبوسة على شكل مكعبات بحجم(١متر مكعب) مطلية بالكلس ثم قـاموا برصفـها داخـل نهر(الفرات) على شكل خط مستقيم يصل بين الضفتين(سد) اعلى مـن مستوى الماء تسبب في ايقاف جريانه فحول مجراه واندفع الى منطقـة رخوة مما تسبب في غرق احياء المدينة وهو الاحتمال الاكثر قوة مـع وجود رأي اخر يقول أن الماء اتدفع بتوجيه الى منخفض ارضي كبـير أو بحيرة حفرتها(سمير اميس) كما يروي ذلك(هـيرودوت)[٤٢] ويقـول آخرون ان النهر الذي اندفعت مياهه الى احياء المدينة وعبره الغزاة هـو ترعة خارجة من نهر(الفرات).

اندفع الغزاة مستخدمين قعر قناة تدخل المدينة ضمن شبكة اروائيـة ضخمة بعد ان انحسر الماء عنها وكان يقود ارتال الغزاة ادلاء محليـون من عناصر الرتل الخامس، مهما يكن المسار الذي اتخذه ماء (الفـرات) او (القناة حسب قناعة البعض) سواء الى داخل المدينة ام الى المنخفض الارضي فان الاتفاق على حصول سيطرة محكمة على مجـرى النـهر وتوجيه مسبق التخطيط نفذ ليلة دخل الغزاة تحصينات(بابل) قائم. فـهل يصدق ذو عقل ان (الفرس) قاموا بكل هذا الجهد خلال سـاعات ليلـة اختراقهم المدينة وبغفلة من سكانها، برغم مشاق طريق طوله (٧٠ كم) قطعوه بمرحلة واحدة طمعا بمزيد من الوقت؟.

لو ان جيشا متطورا معاصرا اراد فعل شيء مشابه لمـا اسـتطاع تحقيق ذلك بنفس الصورة لحاجته الى استعدادات مسبقة ضخمة ومعدات كثيرة واستطلاع دقيق ومعلومات عن التحصينات والقنـوات وتصميـم المدينة وغيرها، ولما استطاع تحويل مجرى (الفرات) بتلك السـهولة . اذن ليس هناك غير (اليهود) الذين نسقوا مع (مسيح الـرب)وعملـوا

كرئل خامس، وربما هم الذين استقدموه بعد ان عرفوا اطماعه وحبه للمغامرة فقاموا بكل ما قاموا به تسهيلا لمهمته، وعلى اساس ما تقدم نستطيع البناء على ان (الفرس) دخلوا (بابل) دونما توقف ولو وجيز امام أسوارها حيث كانت كل مستلزمات الاختراق قد هيئت مسبقا بما لم يلفت انتباه عناصر الاستخبارات والمراصد البابلية التي تحتل الابراج ، والعيون المبثوثة خارج الاسوار تترقب بحذر قدوم العدو دون ان ننسى ان التحفز والتهيؤ النفسي لمقابلة العدو في ظرف قصير زمنيا كان متحققا داخل (بابل) لان جيشها كان يقاتل وانسحب امام العدو المتقدم قبل بضع ساعات من بلوغه اسوار المدينة وان اطماع الغزاة معروفة ومشخصة فكيف نام كل هذا الحشد من المراقبين والقوات الضخمة المهيئة للقتال داخل المدينة؟.

واذا ما أخذنا بالرأي القائل ان (كوبارو) هو الذي عمل على تحويل مجرى النهراو القناة ليلة اختراق اسوار (بابل)، فهذا الرأي لايصمد طويلا بوجه النقاش حيث ان (كوبارو) كان يشكل الطليعة لجيش الغزاة وهو لم يسبقهم نحو (بابل) بهدف تهيئة مستلزمات التحويل والاختراق كما ان متسعا من الوقت لم يكن امامه لتنفيذ كل تلك الاعمال الهندسية المضنية.

ان هذا العمل اضطلع به عدد كبير من الرجال النشطين (الشبان) عملوا بحماس واندفاع بموجب توجيه مركزي وعلى وفق تخطيط دقيق مسبق وكان العمل برغم ضخامته وسعته سريا غير مشخص من قبل (عيون الملك)واهالي المدينة وحتى لو كان علنيا فأنه انجز بلاشك على وفق تبريرات مقبولة بعيدا عن الشكوك والريبة في مدينة يخيم عليها القلق والهواجس مما يجعلها تسيء الظن باي تصرف غريب يلفت الانظار ولما كان (اليهود) قد حصلوا على اراض زراعية وسيطروا على القطاع الزراعي، فان تنفيذ الاعمال الهندسية في بساتين لليهود تجاور

مجرى النهر امر ممكن وسيؤمن الكتمان والسرية المطلوبة لعمل خطير كهذا استمر لعدة ايام قبل ليلة التنفيذ.

علينا الان مناقشة مسألة متممة ذات بعد نفسي مؤثر تلكم هي دعاوى(اليهود) ان(بليشاصر) كان ليلة اختراق(الفرس) لأسوار(بابل) قد اقام وليمة فخمة لألف من كبار القادة والمسؤولين الحكوميين. وسكروا خلال الوليمة وان الملك امر باخراج آنية(الهيكل) التي جاء به (نبو خذ نصر)* من(أور شليم)ليسقي بها ضيوفه الخمرة [٤٣]حيث ظهرت كف انسان على الجدار المقابل للملك وكتبت على بياض الجدار والملك** ينظر(منا منا تقيل وفرسين)[٤٤] وان(بليشاصر) فزع لذلك وطلب احضار الحكماء والمفسرين فلم يتوصل أي منهم الى تفسير تلك العبارة ثم أن الملكة(لم يحدد واضعو هذه العبارة هل انها كانت والدة بليشاصر ام زوجته) اشارت على(بليشاصر) باستدعاء(دانيال) ليفسر تلك العبارة الغامضة وهذا ما حصل حسب الرواية اليهودية فحضر(دانيال) وفسرها بقوله:

- منا منا: احصى الرب ملكك وانهاه.
- تقيل: وزن الرب ملكك فوجده ناقصا.
- فرسين: قسم ملكك بين(الفرس) و(الميديين).

---

* نص الفقرة كما ورد في سفر دانيال الاصحاح: ٥ "واذ كان بليشاصر يذوق الخمر امر باحضار آنية الذهب والفضة التي اخرجها ابوه(نبو خذ نصر) من الهيكل....الخ". أن(بليشاصر) لم يكن ابن(نبو خذ نصر) وانما هو ابن ابنته مما يجدر التنويه بهذا الخلط التوراتي.

** لم يكن(بليشاصر) ملكا وانما هو ابن الملك(نبونائيد) الذي كان ليلتئذ يعمل على ترصين الدفاعات البابلية ضد الغزاة.

وفي نفس تلك الليلة خرق الغزاة اسوار (بابل) واقتـــادوا(بليشــاصر) واستولوا على ملكه! فهل ثمة من يصدق هذا الكلام الغيبي المغرض بعد الاطلاع على الحقائق التالية:

- لم يكن وصول جيش الغزاة الى(بابل) مفاجأة بل حصــل ذلــك عقب سلسلة من معارك غير موفقة تراجع الجيش البابلي في نهايتها وبلا شك فان حذرا ورعبا قد عما مدينة(بابل) لذا لا يعقل أن يجمـع نائب الملك وهو رجل عاقل يمارس مهمة ادارة المملكة نيابة عـــن ابيه الملك بنجاح منذ عشر سنوات، كل رجالات الدولـــة المـــهمين وعددهم الف شخص في دعوة للسكر والمرح حتى الصباح والعـدو على مشارف المدينة!.
- إنَّ انية الهيكل التي جلبها(نبو خذ نصر) من (أورشليم) مخزونة في خزائن الملك منــــذ(٥٠) عامــا. فمــا مــبرر قبــول دعــوى أن(بلشياصر) تذكرها في تلك الليلة بالذات وامر بإحضارها ليســقي بها مدعويه خمرا ؟ هذا اذا صدقنا انها كانت موجودة حتـــى ذلــك الوقت برغم قيمتها الغالية(فهي عبارة عن ٥٤٠٠قدح مــن الذهــب والفضة) في حين تعصف ببابل أزمة اقتصادية خانقة. ولقد حشــوت تلك الآنية في هذه الحادثة الملفقة لبيان دور غيبي لآنية المعبد(أســئ استخدامها) مع أن الخمرة لم تكن محضورة عند اليهود.

- ليس ثمة ما يحملنا على قبول خرافة ظهور كف انســـان مــن صفحة الجدار لتكتب عليه عبارة ما والملك ينظر اليها. لـــو نقلنــا كلاما مشابها عن حادث نزعم وقوعه لكنا مثارا لســـخرية ومحــط تساؤل عن صلاحية عقلنا للتفكير السوي فلماذا نصدق هذا الافــتراء والهراء؟

- لم يوضح مختلق الرواية هل كانت الملكة صاحبة المشورة هي أم(بلشياصر) أو زوجته فإذا كانت أمه فهي أذن كريمة(نبو خذ نصر)وأن حجم التأثر الفكري اليهودي قد بلغها بسبب التسامح البابلي الذي فتح ابواب القصور الملكية بوجه(اليهود) وإنْ كانت زوجته فأن تحقيق هويتها صار امرا ملزما.
- فسر(دانيال) حسب زعم واضع الرواية(فرسين) بانها تعني(قسم الله ملكك بين الفرس والميديين)في حين أن دولة(الميديين) كانت قد ازيلت من الوجود منذ العام ٥٥٠ق.م أي قبل وقوع احداث هذه الرواية(والتي يفترض أن أحداثها وقعت ليلة سقوط بابل) باحد عشر عاماً.
- إنّ زعم بعض مؤرخينا بأن حكاية(الكف) كانت احدى حلقات الحرب النفسية التي مارسها زعماء اليهود المقيمون في(بابل)[٤٥] يعني اعترافا بصحة الحكاية الخرافية مما يتطلب اعادة النظر بذلك.

ولم تكن مكافأة القائد البابلي الخائن(كوبارو) من قبل الغزاة بحجم ما ناله(اليهود) حيث انعم عليه(كورش) بتولي ادارة(بابل)، وعزله بعد بضعة اشهر ليحل محله ابنه سيىء السمعة(قمبيز) الذي لم يجد بين المؤرخين من يشعل له عود بخور يطيب به ذكراه.

اما نول(اليهود) من غنيمة(الفرس) فكان كثير التفرع، أوله السماح لمن شاء منهم بالعودة الى(فلسطين) محملين بالغنائم التي جلبها(نبو خذ نصر)من(فلسطين) خلال غزواته المتكررة اليها. إضافة الى موافقة رسمية باعادة بناء الهيكل الذي تبرع(كورش) بنفقات إنشائه بعد أن خطط خارطة البناء بنفسه جاعلا طول كل ضلع من أضلاعه ٦٠ ذراعاً.

ترى هل كان كل ذلك كرما من(كورش) لحلفائه(اليهود) لقاء خيانتهم وتسليمهم اياه مفاتيح امنع مدن الدنيا؟. يبدو كذلك، ولكنه ليس كذلك،

فوراء الأكمة ما وراءها. لقد كانت طموحات(كورش)منفلتـــة تتضمـــن احتـــلال(الشـــام) و(مصـــر) وربمـــا مـــا وراءهـــا ايضـــا، ولمـــا كان(اليهود)عنصرا مستعدا للتعاون وتقديـــم الخدمـــات، فـــأن زرعـــهم في(فلسطين) أمر من شأنه أن يخلق قاعدة فارسية متقدمة يعتمد عليها في كثير من العون المعلوماتي واللوجستي والمشاركة الفعلية فـــي القتـــال المعول عليه في تحقيق تلك الطموحات. الا أن اليهود ادهشوا(كورش)!.

فلقد رفض اغلبهم العودة الى(فلسطين) مخيبي امال سيدهم(كـــورش) فهم في (بابل) التي كانوا يتمنون الانتقام منها، وحققـــوا أمانيـــهم علـــى أيدي(الفرس) يشكلون طبقة متميزة تحظى بجاه عريض ومـــال وفـــير وانهم كانوا يمارسون طقوسهم دونما حرج وكل تلك كانت امورا متحققة منذ زمن الحكم الوطني(قبل الغزو الفارسي). وفي(بابل) كتبوا تلمودا هو ارقى مستوى من تلمود(فلسطين) وكانوا يتحكمون بالاقتصاد حتـــى أن التضخم الذي حطم اقتصاد(بابل) كان من صنعهم من خلال ممارســـتهم اعمال الصيرفة وبروز مصارف يهودية عديدة في(بابل) مثل مصـــرف عائلة(ياكيبي) وعائلة(موارشو) وغيرها من عوائل عملت بجد على اثقال كاهل البابليين بالديون والربا الى الدرجة التي اضطروا معها الى بيـــع اولادهم في اسواق النخاسة كما عرض لنا.

وعندما تشبث ولي العهد(قمبيز)لأن يكون حاكما على(بابل) ونجح في مسعاه* فقد كان خاضعا خلال فترة حكمه لتأثير زعماء(اليهود) الذيـــن اغروه بممارسة الربا،كما ورطوا القادة والموظفين الكبار من(الفـــرس) في ممارسته امعانا في أثقال أهل(بـــابل) بديـــون ذات علاقـــة برمـــوز السلطة. وكان(اليهود) يعملون مدراء اعمال ووكلاء وموظفين تنفيذييـــن

---

* لم يستمر الخائن(كوبارو) في المنصب الذي انعم به عليه الفرس لاكثر من بضعـــة اشهر اخلفه فيه(قمبيز) واختفى(كوبارو)في مزبلة لم يحدد التاريخ موقعها بالضبط.

واستشاريين في المؤسسات المصرفية الشخصية التي اسسها حاكم(بابل) الفارسي ولي العهد(قمبيز) خلال عهد والده وكذلك رجال الدولة الفارسية في(بابل) [٤٦].

وكأي رجل اعمال لا يمنعه حنين الى ارض أو قوم، كان رجل الاعمال اليهودي(يبحث عن المال حيث يوجد المال) فقد ذهب عدد كبير منهم للعيش في عاصمة(الفرس الأخمينيين) وعمل مغامروهم جنودا في جيوش(الفرس) حيثما اتجهت ارتالها وطموحاتها ناسين دعاواهم القديمة في العودة الى(فلسطين) كونها فرية اطلقوها في ظرف له خاصيته بحثا عن مأرب معين.

فهل كان اهل(بابل) يشتغلون ضمن الرتل الخامس الذي الفه(اليهود) وافلح في تسليم مفاتيح(بابل) الى الغزاة(الفرس)حقا؟ أن فريقا من المؤرخين غير المنصفين يحوكون على هذا المنوال ليخففوا من وقع فعل(اليهود) الغرباء عن(بابل) والذين تعد خيانتهم للمدينة التي اسرتهم هامشية لخيانة اهل المدينة الاصليين لو تحقق حصول خيانة اهل المدينة فعلا!

إن استعراض تاريخ(الكلدانيين) يجعل الرفض القاطع لتلك المزاعم اساس الاجابة. وأن الثورات والانتفاضات الشعبية التي فجرها (البابليون) ضد الاحتلال الأجنبي آخذاً بعين الاعتبار الحجم الضخم من التضحيات التي قدموها في كل واحدة من ثوراتهم وسيلة خوف من المسلسل الثوري، الدليل المادي على رفض فكرة خيانة أهل (بابل) باستثناء (كوبارو) الذي صار مثالاً للغدر والخيانة على مدى التاريخ ولغرض تقديم صورة واضحة عن رفض سكان (بابل) للسيطرة الأجنبية عن طريق الثورات التي فجروها نشير الى استنتاج(توينبي) المفضي الى أن شعب(بابل) لم يقبل الحكم الفارسي وكان رفضهم لهذا الحكم متمثلا باثنين من الثورات الحاسمة[٤٧] .

لقد سمى الثائر البابلي الذي قاد أولى ثوراتها ضد الأجانب، نفسه(نبـو خذ نصر الثالث) واستمرت ثورته عنيفة مدوية قرابة تسعة اشهر(مـــن كانون الاول ٥٢٢ ق.م –آب ٥٢١ ق.م) ولم يهدأ اوار تلك الثورة التـي قطعت اوصال الامبراطورية الفارسية المفتعلة الا بعـــد أن قـدم ملـك الفرس (دارا) شخصيا يقود جيشاً ضخما فدارت بينه وبين اهالي(بـــابل) معركة واسعة امتدت ساحتها الملتهبة من(دجلة) الى(الفرات) تمخضـــت عن ابادة الجيش البابلي وأسر قائده.

وقبل أن ينقضي العام ٥٢١ق.م فجر (البابليون) ثورة اخرى بوجـــه المحتلين الأجانب، قاد ثورتهم تلك احدهم الذي اطلق على نفسه اسم(نبـو خذ نصر الرابع) مما يدل على انها ثـــورات متواصلـــة، وأن جمـــاهير الشعب كانت تشكل مادة الجيوش الضخمة التي فجرت تلـك الثـورات. ولكن(دارا) الذي كان ما يزال ماكثا في(العراق) وقت الثورة استطاع من القاء القبض على العناصر القيادية فيها وتمت(خوزقتهم)* [٤٨]. حيـــث عدا على النصب الضخم الذي جعلته الملكة الآشورية(ســـميرا اميـس) لوحة لانجازاتها(صخرة بهستون الشهيرة) فمسح نقوشه وكتـــب عليـــه باللغة البابلية[٤٩] والفارسية كيف انه عامل الثوار(البابليين) بقسوة بالغـــة لكي يحذر بقية ابناء(بابل) من الثورة ضد سلطته الاجنبية المحتلة.وظـــل هذا النصب وسيلة قهر على الطريق الرئيس بين(بابل) وبــــلاد فــارس قرب مدينة(اكبتانا) همدان الحالية حتى يومنا هذا وهو يكفي للدلالة علـى خوفه من ثورات(البابليين).

وبرغم القسوة والتفنن فــــي طـرق المـوت الرهيبـــة التـي كـان المحتلون(الفرس) يعرضون الثوار لها ردعا للبابليين عن الثورة، الا انهم

---

*الخوزقة: عملية ادخال الخازوق(الوتد الطويل مدبب الرأس)في دبر المحكوم حتـــى الموت.

ثاروا مجددا عام ٤٨٢ ق.م بقيادة(بعل- شيماني) واعقبه في قيادة السلطة الوطنية التي اسسها الثوار (شمش- اريبا). وقد حكم هذان الثائران (بابل) حكما وطنيا حظي بدعم واحترام المواطنين وكان مقتل المرزبان الفارسي(زفيروس) دليل الرفض الشعبي البابلي القاطع للهيمنة الأجنبية الفارسية، الا أن الملك الفارسي(احشويرش) ارسل اخاه بالرضاعة(مكابسيوس) لاخماد الثورة(وكان اخماد الاخير لثورة بابل وحشيا فقد قام بتعذيب وذبح الثوار بشكل فظيع وأن كان يصعب تقدير حجم الخراب الذي اصاب بابل وقتذاك بشكل مضبوط) (٥٠).

فهل يصدق احد بعد هذه الثورات والتضحيات الجسام ضد المحتلين، أن مواطني(بابل) الذين لم يسجل التاريخ قبولهم باحتلال بلدهم يتعاونون مع الغزاة ضد حريتهم وسيادتهم ويدعون(كورش) لاحتلال مدينتهم ؟ فما كان يمنعهم من الثورة ضد حكامهم أن كان ذلك سببا للخيانة، بدلا من التخابر مع الأجنبي؟.

حواشي الفصل الرابع

١. رو(مصدر سابق) ص٥٠٥.
٢. ناحوم، الاصحاح: ٣.
٣. توينبي(مصدر سابق) ص١٦٣.
٤. محمد، حياة(مصدر سابق) ص٥١.
٥. رو(مصدر سابق) ص٥٠٦- ٥٠٧.
٦. الاحمد(تاريخ فلسطين القديم-مصدر سابق) ص٢٣٣- ٢٣٤.
٧. محمد، حياة(مصدر سابق)ص٦٥.
٨. المصدر السابق ٧٠.
٩. رو(مصدر سابق) ص ٥٠٨.
١٠. الصالحي(مصدر سابق).
١١. ارميا: الاصحاح: ٢٩ وينبغي التذكير بان الاسفار اعيدت كتابتها بعد الاسر بناءً على روايات شفوية مما يعني وجود تعديلات وتغييرات كثيرة فيها ولا نستبعد أن يكون النص الذي حدد فيه موعدا محددا، من الاضافات التي اضافها كاتبو الأسفار.
١٢. ساكز، هاري، عظمة بابل- ترجمة د. عامر سليمان- طبع سيمار وتوماك -فرنسا ١٩٧٩ ص١٧٢.
١٣. محمد، حياة(مصدر سابق) ص٦٩.
١٤. المصدر السابق٧١.
١٥. ارميا، الاصحاح: ٣٧.
١٦. الشريقي(مصدر سابق) ص١٣٨.
١٧. الصالحي(مصدر سابق)ص ١٢٣.
١٨. ساكز، عظمة بابل(مصدر سابق) ص١٧٤.
١٩. الملوك الثاني، الاصحاح:٢٥.
٢٠. المصدر السابق(نفس الاصحاح).

21. نفس المصدر السابق.
22. العبادي، مصطفى، العصر الهيلينستي(مصر) دار النهضة العربية- بـيروت ١٩٨١- ص١١٢.
23. الصالحي (مصدر سابق) ص ١٥٦.
24. فتحي(مصدر سابق) ص٢٣٤.
25. ديورانت(مصدر سابق) ص٢٦١.
26. باقر(مصدر سابق) ص٥٥٧.
27. ديورانت(مصدر سابق) ص٤٠٥.
28. مجموعة باحثين- العراق في التاريخ(مصدر سابق) ص١٧٦.
29. اشعيا، الاصحاح: ٤٥.
30. توينبي(مصدر سابق)ص١٨٨.
31. ساكز، عظمة بابل(مصدر سابق) ص١٧٥.
32. المصدر السابق نفسه ص١٧٨.
33. رو(مصدر سابق) ص٥١١.
34. ساكز، عظمة بابل(مصدر سابق)ص١٨٩.
35. رو(مصدر سابق) ص٥١١.
36. المصدر السابق ص٥١٢.
37. رو(مصدر سابق) ص٦٥٣.
38. المجمع العلمي، أوراق مجمعية العدد٥ آب ١٩٩٨(بغداد) ص ١٤- ١٥.
39. ساكز، عظمة بابل(مصدر سابق)ص١٧٦.
40. ساكز، الحياة اليومية(مصدر سابق)ص١٩٢.
41. المصدر السابق ص١٨١.
42. باقر(مصدر سابق) ص٥٥٧.
43. دانيال، الاصحاح: ٥٠.

٤٤. نخبة من اساتذة التاريخ ،الجيش والسلاح- دار الحرية للطباعة بغداد ١٩٨٨ ج١ ص٣٠.
٤٥. المصدر السابق-نفس الصفحة.
٤٦. جماعة من علماء الآثار السوفييت، العراق القديم- ترجمة سليم طه التكريتي- منشورات وزارة الاعلام بغداد ١٩٩٦ ص٤٥٨ فيه اضواء على ممارسة(قمبيز) للربى في(بابل).
٤٧. توينبي(مصدر سابق) ص ١٨٩.
٤٨. رو(مصدر سابق) ص٥٤٧.
٤٩. المصدر السابق ص٥٤٦.
٥٠. المصدر السابق ص٥٤٨.



الفصل الخامس
الدور الحضاري والتآمر المستمر

* حضارة الآشوريين
* حضارة بابل
* حضارة اليهود

من المفارقات التي يعج بها التاريخ.. ان نجد حضارة بلاد الرافدين تحتاج الى من يدافع عنها.

هذه الحضارة التي هي اساس الصرح الحضاري الانساني الراهن تعرضت الى تآمر مغرض خطط له صانعوه بعناية وعلمية لم توفر من اجل اقناع المتلقي حتى الكذب والافتراء والتزوير. وجردت حضارة (الآشوريين) من أسسها الروحية حيث كانت على وفق هذا التخطيط، عبارة عن مسلسل دموي سادى وصارت اعظم انجازات(آشور بانيبال) (مكتبته الزاهرة التي خص به جزءاً من بيت المعرفة الذي أسسه) سبة تضاف الى سيل السباب الذي خص به هذا الملك برغم ان الرجل لم يقاتل (اليهود). ولا نتحرج عن وصفه بانه اكثر تحضرا من الكثير من قادة الدول في القرن العشرين، فبعض هؤلاء لم يتورع عن استخدام القنابل النووية كما فعلت (أمريكا) التي لم تترفع عن ابادة حتى الحياة النباتية وتدمير البيئة بمختلف الوسائل في كل حروبها. وكذلك فهو لم يقتل الاطفال كما فعل الصهاينة الذين قابلوا الحجارة بالدبابات والطائرات في انتفاضة (القدس) الشريفة (ايلول ٢٠٠٠ وما بعده). ولقد كان أشد اعماله قسوة يتمثل في ترحيله العناصر المثيرة للشغب حرمانا لها من مقومات القدرة على اثارة الاضطرابات وقتل قادة التمرد وتلك سنة الملوك في كل زمان ومكان. اما الترحيل فان تشريد شعب برمته (الفلسطينيون) يفوق كل القسوة التي وصم بها (آشور بانيبال) طيلة مدة حكمه البالغة نصف قرن بالوقت الذي تظل فيه مجازر (كفر قاسم)و(ديرياسين) و(صبرا وشاتيلا) وغيرها امورا يأنف عن تنفيذ مثلها قادة الآشوريين .

وبرغم الدور الحضاري العظيم الذي لعبته (بابل) وخاصة في زمن (الكلدانيين). فان حضارتهم التي خدمت البشرية في مجالات الفلك والرياضيات والجغرافية والمعمار والري والطب والادارة والشعر والحكمة والفن والصناعة وغيرها كثير، باتت مدعاة للتقزز بنظر

هؤلاء الحاقدين كونها حضارة ذات دوافع تجارية بحتة وان الطب فيها برغم تخصصاته(التشخيصية والعلاجية والدوائية) وان الاطباء البيطريين كانوا خارج التوصيف الوظيفي للطب البشري، فهذا كله برغم تطوره وتقديمه لخدمات باهرة للبشرية خففت من آلام الكثيرين، لم يكن سوى ممارسة للسحر والشعوذة.

وان علم الفك الذي ابدعوا فيه ما كان يخدم الا اغراضا لاتتأى في تصنيفها عن تلك الممارسات فهذا العلم كان يسهل عد النجوم وتسهيل مهمة حاسبيها في قراءة الطالع والتنبؤ بمستقبل غير مؤكد لا يتجاوز استغفال السذج والضحك على ذقونهم.

ولم تسلم احجار المدينة التي كانت يوما ما اعظم مدن الدنيا من النهب حيث نشط(اليهود) من سكان (الحلة) في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين من تأسيس عصابات لسرقة اخر القصور والاسوار وصيروا ذلك العمل مهنة لمئات من الجهلة الذين تفننوا في اتلاف أروع البنايات وافخم القصور واعظم الاسوار ونقلوا احجارها الى مدينة(الحلة) وغيرها من المدن المجاورة وبيعها باتفه الاسعار منعا لنشوء صناعة الاجر في المنطقة وابقائها معتمدة على المصدر الارخص والوحيد اطلال (بابل) المهجورة وكان الهدف الخطير لهؤلاء الحاقدين يتمثل في طمس ومحو معالم الأثر الحضاري العظيم استمرارا للتآمر الذي لم ينته بتسليم المدينة الى الغزاة (الفرس).

وكان مهندسو سدة (الهندية) لا يقلون صهيونية عن هؤلاء وهم يبنون بدن السد من آجر المدينة الاثارية العظيمة حيث ادعوا (انهم لن يتمكنوا من انجاز عملهم بدون آجر بابل)[1] ولست ادري كيف كان هؤلاء المهندسون يُنشئون السدود في بلدانهم حيث لايتيسر هناك اجر (بابل)؟.

ومقابل الحط من قيمة هاتين الحضارتين الرائدتين بالتآمر المخطط له فان فبركة واختلاق حضارة يهودية ذات مواصفات تخلب الالبـــاب شكلت الشق الاخير من هذا التآمر وعن طريق الاصطنـــاع والفبركـة شادوا حضارة يهودية ووضعــوا اسســا ماديــة واخلاقيــة للحضــارة المصطنعة وصيروها رائدة في مجالها برغم ان اشد الآثاريين تحمسـا للصهيونية فشل في اثبات وجود أي اثر ذي بعد حضاري كبــير خلفــه (اليهود) في (فلسطين) فكل ما تم العثور عليه لايعدو عن كونه اثـــارا كنعانية حتى ان هيكلهم المزعوم بات يؤرق المتحمسين له الى درجة ان بعضهم عدل عن هذا الاتجاه وعد الهيكل مجرد خرافة ولكن لا بأس من الاستغراق في تلك الخرافة لما فيها من منافع دنيئة فتكريسها والتحمـس لها سيعمل على تقويض أسس وقواعد المسجد الاقصى تحت ذريعة ذلك الوهم الكبير وكانت نتائج أبحاث(وليم فوكسويل اولبرايت) الضليع فـي علم الاثار والتاريخ واللسانيات المتعلقة باليهود خصوصا بالشرق الادنى القديم عموما برغم الحفريات الواسعة التي تطورت من قبله وقبل تلاميذه في عموم (فلسطين) تظهر زيف ما اعتمد لمئات السنين مـــن تـاريخ توراتي ملفق عن حضارة يهودية ودولة موحدة انقسمت الى (يــهوذا) و (السامرة) يقول عنها (زئيف هرتزوك) اليهودي انها (كيان مختلق من نسيج الخيال جرى تأليفه في زمن مملكة يهوذا. ولعل اقوى دليل علـــى ذلك هو حقيقة اننا لانعرف اسم هذه المملكة) كمـــا فصــل ذلــك فـــي صحيفة(ها آرتز)[٢].



المبحث الاول

حضارة الآشوريين

يحاول (البرت اشفيتسر) في كتابه القيم (فلسفة الحضارة) تحديد المفهوم (حضاري) للحضارة وتبعاً ذلك فأنه يتوسع في مناقشة أساسيات هذا المفهوم باستثناء الحصيلة الثرة من المعرفة التي اكتنزها الفكر الانساني على مر العصور وضمن ذلك فأنه يقرر ان الركيزة الأساس للحضارة هي (الاخلاق). وقد خص هذه الركيزة بقسم كامل من كتابه انفاً تحت عنوان (الحضارة والاخلاق) إذ انه يقدم في مقدمة الكتاب" ان الحضارة تنشأ حينما يستلهم الناس عزماً واضحاً صادقاً على بلوغ التقدم ويكرسون أنفسهم تبعاً لذلك لخدمة الحياة وخدمة العلم وفي الاخلاق وحدها نجد الدافع القوى الى مثل هذا العمل [٣] فهو ينطلق من فهم عظيم للحضارة لايخلو من الدهشة عندما يقول (ان مشكلة الحضارة مشكلة أخلاقية)[٤] وان جعل الاخلاق أساسا للحضارة هي لب دعوى المصلحين دائماً منذ زمن فلاسفة الاغريق ومن تلاهم كالفارابي في مدينته الفاضلة وما اطلاق (اشفيتسر) عام ١٩٢٣ لهذه الفكرة إلا تحصيل حاصل لدراسة وخبرة انسانية عميقة.

وتأسيساً على ذلك كله نقول هل كانت حضارة (الاشوريين) ذات مرتكز أخلاقي يضعها في ذات الصعيد مع الحضارات الاخرى ذات الرقي والعمق؟ ثم إذ كانت كذلك فهل تصمد اتهامات المؤرخين المعاصرين التي يوجهونها للآشوريين كالقسوة والوحشية وانهم ليسوا صناع حضارة سامقة حيث لم يخلفوا في سجل الحضارة شواهد دالة؟

المعروف عن (الآشوريين) انهم شعب دوخ معاصريه واستقطب اهتمام اللاحقين على مر الأزمنة والعصور مع تهم لاتعد ولا تحصى من دموية مفرطة وسادية غير مألوفة مارسها قوادهم وجنودهم ضد الشعوب

المقهورة وهذا يقلص سعة الفسحة الاخلاقية التي تشكل قاعدة لحضارتهم، الحضارة التي ينطوي التآمر على إنكارها.

وكان الملك الآشوري الاكثر تعرضاً لتهم الدموية والارهاب هو (آشور بانيبال) حتى ان مؤرخ الحضارة (ول ديورانت) صوره في (قصة الحضارة) بأنه ورجاله (وحوش كاسرة أو اشد قسوة من الوحوش)[٥] ويصفق بحماس لرأي (ديودور الصقلي) بأنه (طاغية فاسق وخنثي)[٦]. فهل كان كذلك حقاً؟!

لسنا بصدد الدفاع عن أخلاق (آشور بانيبال) بقدر محاولتنا تثبيت حقائق عامة هنا تقودنا الى استنتاج يفضي الى تقرير. واذا ما كان (آشور بانيبال) مثالاً للقسوة والوحشية في نظر صناع التآمر الحضاري. فان تقصي حقيقة أخلاقه ستكشف لنا انه كان اكثر اخلاقاً من قادة الكثير من الامم (المتحضرة) في نهاية القرن العشرين، فهو ما ان شعر بان أعداءه التقليديين الذين يؤرقون ليله ويفسدون عليه احلامه (العيلاميون) يتعرضون الى مجاعة قاتلة بسبب الجفاف وان جموعا غفيرة منهم لجأوا الى بلاده فأنه نسي فورا اكثر من الفي عام من التحدي والعداء والحروب بين هؤلاء وسكان بلاد الرافدين، وامر في الحال بفتح اهراء الحبوب الآشورية وسير محتوياتها قوافل تمون شعبا كاملا من الد الاعداء حرصا عليهم وحماية لهم من الموت جوعا. ويؤرخ لتلك الواقعة بشهامة كبيرة "عندما كانت هناك مجاعة في بلاد عيلام ونقص في المواد الغذائية ارسلت الحبوب للابقاء على حياة شعبه. امسكت يده – لمساعدته– واعدت له شعبه الذي هرب من المجاعة وسكن لاجئا في بلاد آشور حتى امطرت في بلاده وضمن الحصاد. وظلوا على قيد الحياة في بلادي"[٧].(فأين اخلاق فارضي الحصار على شعب كامل من اخلاق هذا الملك العراقي الذي يشنعون بسمعته وايديهم ملطخة بدماء الاطفال شهداء الحصار الجائر). وما ان شبعت بطون (عيلام) من

خيرات الآشوريين حتى قام المستولي على عرشهم(تيومان) بمطالبة صاحب الايادي البيضاء(آشور بانيبال) باعادة ابناء الملك الشرعي المخلوع (اور تاكي) الذين لجأو الى (نينوى) طلبا للنجاة. ولكن اخلاق الملك الآشوري ابت ان يسلمهم الى الموت على يد مغتصب عرش ابيهم، وكان ذلك دافعا لملك العيلاميين (تيومان) لان يهاجم اصحاب الفضل عليه متحالفا مع شعوب متخلفة لاتعرف للحضارة معنى، فهزمهم (الآشوريون)، وأعادوا الكرة ثانية فما كان من (آشور بانيبال) الا ان ارسل قسما من جيشه ليؤدبهم وينهي امر هذا الملك الجاحد حيث احتز رأسه على ضفاف نهر (الكرخة) في معركة (توليز) وجيء بالرأس المقطوع ليعلق في حدائق القصر الملكي في (نينوى) بينما سير الملك حملة أخرى لتأديب القبائل المتخلفة، فكيف ينتظر أن يكون التأديب؟

والتزاما بالمبادئ والمواثيق، فقد اعاد (آشور بانيبال) أسرة الملك العيلامي السابق (اورتاكي) لتحكم بلادها التي لم يضمها (آشور بانيبال) الى الدولة الآشورية ووهبها استقلالها. الا ان هؤلاء تنازعوا الملك بينهم وقد رأى من بقي منهم على العرش العيلامي ان يجرب حظه بمهاجمه مدن بلاد الرافدين الامر الذي دعا الملك الآشوري لان يقرر تقويض دعائم هذه الدولة التي ناصبت (العراقيين) العداء الاف السنين ولم يمنعهم احسان (العراقيين) لهم في احلك الظروف عن مزاولة عدائهم ضد الجيران.

وكانت الفعال النبيلة التي بدرت من ملوك(الآشوريين) والنابعة من خلق سياسي واجتماعي قويم دافعا للمنصفين من المؤرخين للاشادة بالدور الحضاري للآشوريين حيث يصرح (جورج رو) المؤرخ الفرنسي الذي درس تاريخ (العراق) القديم وألف فيه" من الخطأ الشنيع اعتبار الآشوريين امة قوامها شعب متعطش للدماء يقوده حكام مستبدون

مصابون بجنون العظمة، فقد كان الآشوريون في الحقيقة شعبا عظيماً وأحد اكثر الشعوب تحضرا في عصره"[٨].

ولقد كان تعامل (اسرحدون) والد الملك (آشور بانيبال) مع مؤامرة يهودية ضده، تعاملا نبيلا حيث القى القبض على الملك اليهودي المتآمر (منسي) وبعد جلبه مكبلا صفح عنه وأعاده الى عرشه[٩] ولم يتصرف معه بقسوة بل كان تعامله مع اسيره اخلاقيا متحضرا.

وليس تقصي الاسس المادية لتلك الحضارة بالأمر الشاق، فان اربع عواصم عظيمة خلفها لنا الملوك (الاشوريون) تدلل على حجم عظيم من رقي المدينة الآشورية. حيث لا تستطيع الامم المتخلفة بناء مدينة ضخمة ناهيك عن اربع عواصم تحدت عوادي الزمن عبر الاف السنين وما زالت ناطقا لتلك العظمة.ولعل من المهم معرفة ان (دور شروكين) وهي العاصمة التي انشأها (سرجون) الآشوري بعمل شاق لتسع سنوات اضافة الى الكلفة الهائلة، وان مجرد ترميم (كالح) من قبل (آشور ناصربال) استغرق خمس سنوات، انه انجاز حضاري عظيم يمكن مقارنته بعجز (الاسكندر المقدوني) عن اعادة ترميم(مجرد ترميم) مدينة (بابل) برغم رغبته الشديدة لانجاز هذا العمل.

وما اقدام (آشور بانيبال) على انشاء مكتبته الشهيرة غير محاولة للاسهام في اعلاء الصرح الحضاري الآشوري، وقد نظلمه بقولنا انه انشأ مكتبة، فهي لم تكن كذلك انها جزء من (اكاديمية) اسماها مؤسسها(بيت مومى) أي (بيت المعرفة) والتي كانت اهدافها تتمثل في استقطاب وتجميع علماء (العراق) في شتى الاختصاصات في عاصمة الآشوريين(نينوى)[١٠]، فاضافة الى الاتجاهات الادبية والدينية والتاريخية لهذا البيت، كانت بحوث اللغات والمعادن والطب والنباتات والحيوان والفلك والجغرافية وغيرها كثير مما يقع ضمن الاهتمامات المباشرة لبيت المعرفة الآشوري.

ويوحي لنا النمط المتقدم من الادارة والعمران والصناعة وغيرها، ان هناك من المؤسسات السابقة لبيت المعرفة ما كان قائماً يفيض على طلاب العلم الكثير، وان بيت المعرفة ذاك لم يكن وليد وقته، فمثلا لايمكن القبول ان العلماء المعاصرين يعتمدون على حسابات فلكية ويعدونها اساسا للحسابات التاريخية ان لم يكونوا قد وقفوا على دقتها المتناهية ومنها تسجيل تنبؤ الكسوف الشمسي الذي وقع في حزيران ٧٦٣ق. م فكيف تسنى تحقيق هذا القدر من الدقة في التنبؤ الفلكي وتسجيل الظواهر دونما وجود اساس علمي راسخ في مجال الاختصاص ذاك؟

واذا ما كان منظرو الادارة الحديثة يرجون من اجراء الاحصاءات السكانية بلوغ تصور سليم عن التخطيط المستقبلي واعداد الخطط الكفوءة بدقة عالية، فان الآشوريين كانوا روادا في اجراء التعدادات السكانية ولم يكتف (اياسما- ادد) ابن الملك (شمشي – ادد ١٨١٤-١٧٨٢ ق. م) باحصاء سكان المدن، وانما اصدر تعليماته لاحصاء البدو في حدود سلطته[١١].

ويبدو ان الاحصاءات السكانية كانت معتمدة بكثرة في مجال الادارة الآشورية بحيث ان ثمة اشارات جلية عن قيام السلطات المحلية باجراء تعدادات سكانية كالذي نفذه حاكم مدينة (حران)[١٢].

وفي (حران) نفسها كانت النزعة الاحصائية قد تعدت احصاء البشر حيث اننا الان نعلم ان عدد اشجار البلوط فيها كان(٤٩,٣٠٠) شجرة [١٣] وان في منطقة جبل (سنجار) وحدها كانت (١٠٠) شجرة من احد انواع البلوط ذات الاهمية الصناعية في مجال ما[١٤]. ولقد ترك لنا (آشور بانيبال) ثبتا يتضمن اشجار حدائق قصره ومنها (٢٣٥٠) شجرة تين[١٥]واربعة الاف شجرة مشمش. وكانت احدى المقاطعات الآشورية تفخر ان فيها (٢٩٠) الف شجرة عنب [١٦].

وكانت الارقام تحظى عندهم باهتمام خاص. فما زال تفسير الربط بين طول سور (دور شروكين) البالغ (١٦٢٨٣) قدماً وبين كتابة اسم (سرجون الثاني) مجالا للاجتهاد، فهل كانوا يأترى يعملون بحساب الجمل كما يفعل العرب حيث يؤرخون حوادثهم المهمة بالشعر؟. يقول (سرجون)"١٦٢٨٣ ذراعا صيغة اسمي جعلتها مقياسا لسور خور سباد".

ان الغرب الذي يسعى مؤرخوه لتشويه التاريخ الآشوري والغاء الدور الحضاري للاشوريين، مازال يستخدم التسميات التي اطلقها هؤلاء الآشوريون على ايام الاسبوع. فالاحد كان عندهم مكرسا لعبادة (الشمس) لذا فهو (Sunday) والاثنين خصّوه بعبادة القمر الذي كانت كبرى معابده في (حران) الآشورية (Monday) ولم يخل الثلاثاء من بصمة (الآشوريين) الذين كرسوه للاله (زحل) (Saturn) بينما كان عيد الفصح من اهم اعياد العراقيين القدماء[١٧].

وبرغم خشونة الاشوريين كأمة حربية ذات مراس في مجال القتال والجلاد وان ملوكهم لم يستحسنوا الموت على الفراش، فقد كانت الصناعات الكيمياوية في المجتمع الآشوري تهدف في جانب كبير من انتاجها الى زيادة رفاهية ونعيم الحياة خلال فترات السلم القصيرة التي يعيشها الشعب وخاصة في فصل الشتاء حيث يقبعون في منازلهم يراقبون نمو سنابل الحنطة بانتظار فصل الصيف عندما يكون طغيان المياه في الرافدين وفروعهما وروافدهما قد تضاءل مما يسهل عبورها بدون خسائر.ومن بين تلك الصناعات، المنتجات الزجاجية ولعل القارورة التي عثر عليها المنقبون مؤخرا تمثل جانبا مهما من صناعات زجاجية متقنة بينما كانت صناعات العطور عنصرا لايقل اهمية عن تلك الصناعة. وليست العدسات محدبة الوجهين التي عثر عليها المنقبون بين خرائب(الآشوريين)، الا دليل على نهوض صناعي وحضاري متطور لم تبلغه امم اعقبتهم بقرون طويلة.

وقد شكل احتكار تقانة تعدين الكثير من المعادن كسبيكة البرونز اضافة الى الحديد سلاحا عظيم النفع بيد (الآشوريين) الذين توسعوا في بناء مصاهره، وكان للبلاط الملكي مصاهره الخاصة لانتاج احتياجاته الذاتية منها بأسلوب الاكتفاء الذاتي. وقد فاض انتاج اللوازم الحديدية عندهم فتحولوا الى انتاج البدلات المدرعة لمقاتليهم ، ثم كسوا جيادهم دروعا واقية مصنوعة بدقة وعناية من معدن الحديد في وقت لم يكن سواهم قد اهتدى الى تلك الأفكار التي تفتقت عنها عبقرية صناعييهم وخبرائهم المتحضرين.

ان الدهشة التي بدت على وجوه افراد بعثة (المعهد الشرقي) بجامعة (شيكاغو) وهم يتفحصون عام ١٩٣٣ م جزءا من مشروع (سنحاريب) الهائل للري والمتمثل بقنطرة حجرية تقع قرب (جروانة) في قضاء (الشيخان) جعلتهم يرفعون مستوى تلك القنطرة الى مستوى الاعجاز الهندسي . فقد انشأها المهندسون (الآشوريون) لكي يمر عليها المشروع المائي المذكور القادم من نهر (الجومل) لسقي الاراضي المرتفعة في (الموصل) بطول (٨٠) كم وكان واجب القنطرة مرور القناة المائية فوقها لتعبر الوادي الذي يعترض مسار القناة والبالغ عرضه (١٠٠٠) قدم ويبلغ عرض القنطرة (٨٠) قدماً ولم يكن اهتمام (سنحاريب) الاروائي متوقفا على منطقة العاصمة. حيث قام بايصال الماء الى (اربيل) بحفر قناة يمر جزء منها داخل نفق قرب وادي (باستورة). وكانت تلك المشاريع استجابة لتحدي جفاف بعض المناطق بسبب ارتفاعها فوق مستوى الانهار مما يصعب ايصال الماء اليها الا من مناطق اعلى منها ارتفاعا[١٨]. بينما كانت شبكة الانابيب الفخارية التي تمتد خارجة من بيوت المدينة لتلتقي في مكان ما خارجها على مشارف الوديان البعيدة تدلل على الجهد الهائل الذي صرفه الآشوريون

من اجل تخليص بيوتهم ومدنهم من المياه الثقيلة[١٩] حفاظا على الصحة العامة ورفع مستوى الرفاه والتمدين.

ومن الظلم الواقع على العلوم الآشورية، عد مهنة الطب احد جوانب السحر والشعوذة، (كذا حاولوا الاساءة الى الطب البابلي) في حين ان الطبيب في اللغة الآشورية كان يطلق عليه اسم(آسو Asu) وممارس مهنة السحر يسمى (آشب Aship) حتى ان بعضهم لما مرض امر بارسال رسالة الى الملك تضمنت " ليعين الملك آسو وآشب تحت تصرفي، ليقوما بواجباتهم معا" وهو امر يدل على ان الطبيب رجل علمي لا علاقة له بالسحر، وانما طلب كليهما يدل على محاولة هذا المريض حشد كل الطاقات العلمية والسحرية املا في الشفاء. وكان الجراحون ماهرين في معالجة الاصابات الخطيرة التي يتعرض لها المقاتلون في ميادين القتال ومنها الكسور حيث كانت عملية تجبير كسور العظام من الممارسات الطبية العادية. في حين كان العمل في البلاط وخاصة جناح الحريم الملكي يتطلب وجود غلمان عديمي الفحولة ، فكان الاطباء يقومون بعمليات جراحية لاخصاء هؤلاء الغلمان، وعندما يشير(ساكز) الى قاموس العالم (تومبسون) عن النباتات الآشورية R. C, Thompsone Assyrian Botany 1949 فان هذا يعني وجود جهود صيدلانية ضخمة لدى (الاشوريين) برغم صعوبة التعرف على الاعشاب التي كانوا يستعملونها بسبب اختلاف التسميات[٢٠].

اما اساليب المعالجة فكانت في كثير من جوانبها تشبه المعالجة التي ينفذها اطباء اليوم كتعقيم الجرح والمعالجة بالتحاميل والحقن الشرجية او اقحام الادوية في الاذن والمنخر والاحليل. بينما كان الكبريت معروفاً عندهم لمعالجة الامراض الجلدية.

وتبقى الشواهد الفنية الرائعة التي ورثناها عن (الآشوريين) تنبئ عن ذوق فني رفيع ، وقدرة عالية على تطوير المفاهيم الفنية، فتماثيلهم ليست

مستوحاة من نماذج حضارات سابقة، وانما العكس هو الصحيح، حيث استفاد (الفرس) من المخلفات الفنية الآشورية كثيرا في خلق مدرسة فنية فارسية ذات أسس آشورية.

لقد تجسدت موهبتهم الفنية الرائعة في تصميم الكثير من الروائع كالجداريات البارزة ذات المساحات الكبيرة ، والنصب الضخمة . ولعل ارتفاع نحت بارز لاله مجنح في احدى الجداريات والبالغ ارتفاعه ثلاثة امتار دليل على ضخامة تلك الاعمال . فالجداريات ، وخاصة التي عثر عليها في قصر (سنحاريب) كانت عبارة عن (بانوراما) ربما هي اقدم بانوراما، صورت معاركه المكللة بالنصر في (فلسطين) ضد (اليهود)، اما التفنن في انتاج البوابات الضخمة للقصور الملكية مع ما تحمله من لمسات فنية رائعة كاكسائها بصفائح نحاسية عليها نقوش بارزة معبرة (عدت لاحقا وثائق تاريخية معتمدة في الاخبارعن الحوادث المهمة)، فقد حولت تلك البوابات الى تحف فنية على ايدي (الآشوريين) مما دعا الحاقدين من ناكري وجود تلك الحضارة السامقة، الى الادعاء انها جلبت من البلدان الاجنبية كغنائم حرب. وبرغم ذلك الادعاء فان بوابات (بلاوات) تحمل نقوشا تصور حملة (شلمنصر) الثالث عام ٨٥٨ ق. م على ساحل آسيا الصغرى. نقول اية امة عظيمة كانت تلك البوابات تزين قصور ملوكها واستطاع الآشوريون جلبها من عاصمتها كغنائم بعد ان قهروها؟. ثم ان تصوير (شلمنصر) على البوابات يؤكد اصالتها الآشورية، وفي جانب آخر من تلك البوابات نجد (شلمنصر) منتصباً فوق عربته متوجها الى احدى غزواته وفي ذات المشهد المنحوت على البوابة تبدو (صور) على شكل جزيرة صخرية . فهل يعقل ان تلك كانت بوابات شعب غير الآشوريين؟.

وثمة نحوت هائلة مازالت قائمة في اماكن نصبها كشواهد مادية على الرقي الحضاري المتجسد في الجانب الفني لامة حربية يفترض انها

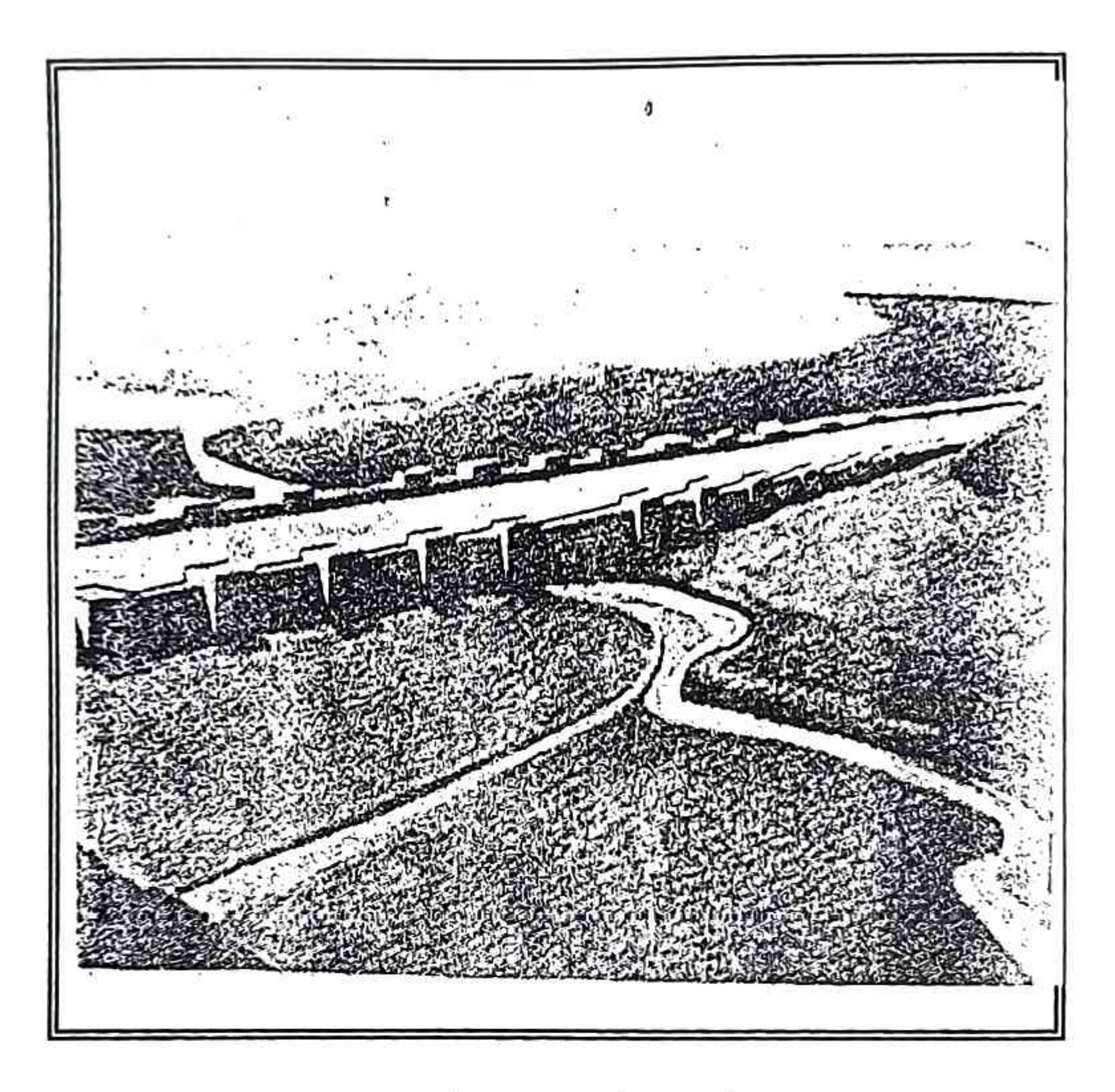
ليست ذواقة للفن بهذا الحجم، منها النقوش التي خلفها (سنحاريب) في منطقة (بافيان) اشارة الى بداية قناته المائية وكذلك في منطقة(بالتلني) شمال (نينوى)، لقد بلغ ارتفاع بعض تماثيل الآشوريين(١٦) متراً.

ولان الخبرات الآشورية في مجال الاعمار والفن والري وسواها اصيلة في مجتمعهم وليست وافدة من المناطق المحتلة او غيرها، فان حاملي تلك الخبرة من ابناء (آشور) كانوا مطلوبين بشدة من قبل الشعوب المجاورة. فقد استعان بهم (الفرس) الأخمينيون) كثيرا في (تشييد مدنهم وتجميل قصورهم، فاستمر الكثير من تراث الحضارة الآشورية، واخذت عنهم الاقوام الاخرى عناصر مهمة من النظم العسكرية والادارية والسياسية، كالبابليين والفرس)[٢١]. ولعل آثار (الفرس الاخمينيين) في ذروة ارتقائهم ايام (دارا) تؤكد تأثرهم بخواص الفن والعمارة الآشورية والمعالم الحضارية الاخرى التي ورثوها عن (الآشوريين) كما اشرنا الى ذلك سابقا. وللتفصيل المفيد انه يوجد في المتحف الانكليزي ختم يحوي اسم ولقب (دارا الملك العظيم) باللغات البابلية والعيلامية والفارسية القديمة، يصوره واقفا في عربة يجرها حصانان مصوبا سهما نحو اسد مهاجم منتصب على ساقيه الخلفيتين وثمة اسد آخر مقتول تحت حوافر الحصانين بينما نحتت نخلتان على جانب المشهد وفي الافق رمز وشعار (اهوار مزدا)[٢٢] وكل ما في هذا المشهد هو تقليد حرفي للممارسات والاعمال الآشورية المعروفة لدينا جيدا. ولعل (دارا) نفسه من بين اكثر ملوك (الفرس) تأثرا بالحضارة الاشورية ، فقد عدا على نصب (سميراميس) الملكة الآشورية وازال مانقشت عليه ونقش مكانه عبارات ارهابية بهدف ارهاب سكان (بابل) الذين اقلقوا مضجعه بثورات متتالية. ولقد تطرقنا الى هذا النصب المسمى (صخرة بهستون) في الفصل السابق.

وتعد القوة الآشورية المسلحة وكيفية استخدامها ونتائج ذلك الاستخدام، مادة جاهزة وشائقة لكثير من المؤرخين وقد تعامل معها المؤرخون من ذوي الغرض السيىء باسلوب يثير المشاعر ضد هذه الامة العظيمة. ونقول هنا هل بمقدور امة غير ذات كعب عال في مضمار الحضارة انجاز واعداد جيش قوي بنفس قوة واقتدار الجيش الاشوري؟ ان قوة هذا الجيش دليل اضافي يعزز ما ذهبنا اليه من اصالة وسمو حضارتهم. حقا ان كثيراً من الامم المتخلفة والفقيرة حضاريا اسست جيوشا قوية كالمغول مثلا، ولكن الفارق كبير جدا بين جيش امة متخلفة وجيش امة متحضرة وان كان المتخلفون اقوياء. فالآشوريون كانوا مبدعين وهم اول من نقل الحرب على ظهر الحصان،وهم اول من أسس سلاح الهندسة العسكرية لاقتضاء حاجة تسيير العربات في المناطق الجبلية وتطوير عمليات حصار واقتحام الحصون. وهم أول مَنْ فكر بتدريع الرجال والخيول. وكانت معاركهم ضخمة مدوية قهروا أعداءهم بقوتهم، في حين لم يكن للجيش المغولي(والمغول هنا مجرد مثال على الامم المتخلفة ذات الجيوش القوية) أي ابداع او ابتكار في مجال التقانة وكذلك كانت ميزتهم (أي المغول) الكثرة والقدرة الفائقة على التحمل وقطع مسافات طويلة، ثم انهم توجوا ذلك بتسجيل انتصارات على جيوش ضعيفة اكسبتهم هيبة ترهب خصومهم، ومع ذلك كله فقد هزموا على ابواب (دمشق)، ثم منعوا من دخول (مصر) فتلاشت قوتهم ولانت شوكتهم، مما يجعلنا نؤكد ان الانتصارات الآشورية كانت مختلفة تماما عن هذه الانماط المتخلفة، فقد كانت نتاجات جيش هو ثمرة حضارة راقية ومبدعة.

اما اعداء الحضارة الآشورية الذين يبرزون جوانب القوة على الابداع الحضاري، وينسبون القسوة والتلذذ بالقتل للقادة الآشوريين، فهم من دول تدعي التربع على قمة الحضارة الانسانية، ومع ذلك فهم

يتفننون بقتل الشعوب باسلحة الدمار الشامل وبالحصارات الاقتصادية وتشريد شعوب كاملة كالهنود الحمر والشعب العربي في (فلسطين) وغير تلك من اعمال مزرية وشائنه في زمن الرقي الحضاري وحقوق الانسان. واذا ما كان (الاستعمار الاشوري) وصمة عار في جبين (الآشوريين) فان " الاستعمار ليس بالضرورة ان يكون مخطئا، فثمة ظروف يكون فيها امرا صحيحا وضروريا من الناحية الاخلاقية" كما يقول(ساكز) محددا بدقة حالة الشرق الادنى في اوائل الاف الاول ق. م، ويبرر ذلك بقوله" ولكن فيما يخص الامبراطورية الآشورية كانت جميع المنجزات في الألفي سنة الماضية من الحضارة يمكن ان تضيع في خضم الفوضى لاقتتال مجموعة من الممالك الصغيرة جدا فيما بينها او انها يمكن ان تسحق تحت اقدام حشود من الشعوب الهمجية"(٢٣) وفي ذلك تبرير علمي ومنطقي لهيمنة (الآشوريين) على مسارح الحرب الفعالة لفرض الاستقرار والنظام ولو عن طريق القوة المتحضرة.



قنطرة حجرية أقامها (سنحاريب) فوق وادي لتمرير قناته المائية

المصدر: حضارة العراق واثاره- بوستغيث



المبحث الثاني

حضارة بابل

على الرغم من سمو الحضارة الآشورية وعظمة انجازاتها كما مر بنا في المبحث السابق، فقد كانت (بابل) محط احترام كبير من قبل (الآشوريين) بسبب المجد الحضاري الذي ورثته عن حضارات (العراق) الاسبق منها. فالمقومات الاساسية للحضارة (منذ زمن حمورابي وما قبله وصلت درجة من الحضارة المادية لم يصل اليها غيرها من مدن آسيا الى وقتنا هذا) كما يقول (كرستو فر دوسن) في كتابه (بحوث في الدين والحضارة)(٢٤). مع ان (هيرودتس) حضر الى (بابل) بعد حقب طويلة من تعرضها الى الاهمال الشديد والنكبات المدمرة على ايدي الغزاة (الفرس) عقب ثوراتها المتتالية، ولكنه يعجب بها كثيرا ويكتب عنها عام ٤٦٠ ق. م " تتجاوز بابل في عظمتها أي مدينة اخرى في العالم المعروف "(٢٥).

ولسنا في مجال تقصي الحضارة البابلية كالباحث عن لمعات قصيرة في قبو مظلم، فشواهد تلك الحضارة الزاهية الروحية منها والمادية انوار تبهر الابصار لا يتجاهلها الا من في قلبه مرض من حقد. ويكفي (البابليين) فخرا أنهم يكتبون بزهو كبير الى (آشور بانيبال) عندما شعروا بتعامل قواده الفوقي معهم يذكرونه ببعض حقائق المجتمع البابلي الراقي " حتى الكلب يصبح في بابل حرا طليقاً" . وهذا بعض من جوهر فكرهم الريادي في مجال الحرية وحقوق الانسان. وربما كانت تلك المساحة من الحرية والصيانة المضمونة لحقوق الانسان سببا لنكبتهم، فهم عاملوا الأسرى اليهود معاملة تنطوي على قدر كبير من الاحترام والتقدير، فلم يسجنوهم في زنزانات او اقفاص للأسر. ولم يبيعوهم رقيقا كعادة التصرف بأسرى حروب تلك الازمنة، او كما فعل (ملوكهم) عندما استعبدوا شعوبا مقهورة برمتها حسب اعتراف واضعي اسفار العهد

القديم، بل اطلقوهم وصاروا بعضا من مجتمع (بابل) يعملون في القصور الملكية ويتحكمون باقتصاد البلاد، ليس لقصر باع اهل (بابل) في ميادين العمل تلك، الا ان مبدأ الحرية والعدالة وحسن النية من امور تمليها عليهم قواعد الحياة السياسية والاجتماعية البابلية كانت وراء التسامح الذي غمروا به اعداء الامس اسرى اليوم الذين استغلوا تلك القواعد فعملوا بحماس منقطع النظير من اجل تدمير (بابل) والقضاء عليها دونما رحمة او تذكر لجميل. وما كان لهم تحقيق نجاح في مسعاهم لولا دواعي الحرية وحقوق الانسان التي كان (البابليون) يحترمونها ويقدسونها ولا يحرمون حتى الكلاب من رحمتها.

يقول الملك (نبو خذ نصر) الذي لم تعجبه قصور اسلافه برغم فخامتها فهو ينشد انشاء قصور اكثر فخامة واوسع واعلى " لم يكن قصري في بابل كافيا لتحفي الملكية. ولان قلبي مفعم بالاجلال والرهبة لربي مردوخ، لذا فانني لم اغير شارع مدينتي المأمونة التي احبها، بسبب توسيع مقري الملكي، ولم اهدم معبدها المقدس، ولم اردم قناتها. ولقد اخذت بنظر الاعتبار الطول والعرض عند تشييد مقر اقامتي الجديد لحماية سور بابل على مسافة ٤٩٠ ذراعا بجانب نيبتي ايليل، وقمت بتشييد سدين كبيرين من سدود الشواطئ من الاسفلت والآجر المحروق وفوقه قلعة لحضرة جلالتي من الاسفلت والاجر المحروق بارتفاع شاهق "[٢٦].

ان ما يدهشنا هو الثلمة التي تركها (نبو خذ نصر) في سجل التاريخ البابلي. فهو لم يدون تاريخا رسميا لحروبه، ولكنه لم يغادر امرا مهما صغر في مجال العمران الا دونه وافاض في تدوينه، وكان ذلك شاهد حضور الابداع الحضاري لديه، مع نية (مفترضة) انه سيخلد ذكره في مجال الحضارة وليس في مجال الحرب برغم براعته فيها مما صيره سيدا مرهوب الجانب على اغلب مناطق العالم المتحضرة وقتذاك. وكان

عزوفه عن تدوين حروبه ازاء انجازاته العمرانية ثغرة كبيرة في التاريخ البابلي حفزت الحاقدين على محاولة املائها زورا.

ولم يكن هم (نبو خذ نصر) الوحيد هو الارتقاء ببـــابل وجعلـــها جديرة بما انيط بها من مهمة جليلة تقود من خلالها عالم ذلك العصـــر، فقد توجه لنشر الاعمار والرفاه في عموم مدن الامبراطورية، وصـــار سهلا التعرف علـــى مشـــاريع العمـــران التـــي خطـــط لـــها ونفذهـــا (نبو خذ نصر) في تلك المدن مع تحديد دقيق لتاريخ الشـــروع بـــالعمل والفترة التي استغرقها من خلال تحديد تاريخ الانتهاء منه بدقة ووضوح، مما يجعلنا قادرين على تامل جهد عمراني هائل يشمل عمـــوم ارجـــاء الامبراطورية في آن واحد وهو جهد لا يحاط بسعته ومقداره ببساطة.

وللتعريف بعظمة قصر هذا الملك نقول ان مساحة المنشآت فيـــه بلغت (٥١) الف متر مربع[٢٧]. وكان طول قاعة العـــرش (٥٢) مـــتراً وعرضها (١٧) مترا. وقد كان عدد مرافق القصر (٢٠٠) مرفق و (٥) ساحات جعلت المنقبين الالمان يتصورون ان هذا القصر هو (الجنـــائن المعلقة)[٢٨]، ولكنهم اكتشفوا لاحقا انهم في القصر الذي يدير منه (نبـــو خذ نصر) شؤون امراطوريته المترامية الاطراف.

والجنائن المعلقة التي اعتمد المؤرخون على وصف متفق عليـــه مستق من مصادر متعددة ولكنها متشابهة في وصف الجنـــائن، عـــدت واحدة من عجائب الدنيا السبع[*] التي تفخر بها البشرية عـــبر تاريخـــها الحضاري العظيم فلا عجب ان نجد هذا التطور الحضاري والذي يؤلف النتاج العمراني احد اوجهه المادية قد صار مصدرا غرفت منـــه الامـــم والشعوب الاخرى بدون حساب او تحفظ. فقد بهر بمستواه حتى الغـــزاة،

---

[*] عجائب الدنيا السبع فضلاً عن هذه الجنائن: اهرام مصر – منـــارة الاســـكندرية – تمثال زفس – هيكل ارتيس – قبر موزول – اثر في جزيرة رودس.

لذا فقد اقتبس (الأخمينيون) كثيرا من عناصر هذه الحضارة بما في ذلك (المصطلحات والاشكال المعمارية)[٢٩]. اما فاتح الدنيا (الاسكندر المقدوني) فقد وقف مبهورا امام عظمة هذه المدينة التي تلتف اسوارها حول عشرة ملايين متر مربع من العمران الرائع. وكان ذلك سببا وجيها في ان يختارها عاصمة للامبراطورية التي اسسها. ويأمر بترميم ما خربه الغزاة (الفرس) من شواهد ... ولكنه برغم عظمته، عجز عن ترميمها كما رأينا سابقا، فكم كانت جهود بناتها عظيمة ومبدعة.

ومساهمات العلماء (البابليين) في تطوير الواقع العلمي والحضاري للانسانية مساهمات مبدعة وسخية كونت اسسا متينة للرقي والنهوض الحضاري الانساني. فهم اول من نظر في تقسيم وحساب الدوائر، فقسموا الدائرة الى (٣٦٠) درجة والدرجة الى (٦٠) دقيقة، والدقيقة الى (٦٠) ثانية. سهل ذلك الابداع اجراء العمليات والحسابات في مجال الرياضيات والهندسة بدقة. اما علم الهيئة (الفلك) فهو علم بابلي النشأة والنمو، ولد هنا قبل اربعة الاف سنة، ولكن نموه توقف قرابة الف عام هي فترة الاحتلال الكاشي لبابل وما اعقبه من فترة خمول، مما يدلل على انه علم خاص بالبابليين ينهض بنهوضهم، ويكبو وقت كبوتهم. وقد بعثه مجددا باني النهضة الاخيرة (نبو خذ نصر). لقد سهل لهم تمرسهم في علم الهيئة التمييز بين النجوم والكواكب[٣٠]. وكان الوقت في المجتمع البابلي مهما، وان اهميته دعتهم لاختراع المزولة والساعة المائية، وضمن هذا الاهتمام عمدوا الى تقسيم الساعة الى (٦٠) دقيقة والدقيقة الى (٦٠) ثانية. واجتهدوا في وضع تقويم اقرب ما يكون الى الدقة، وليس دقة ما ذكرنا من تقسيم للساعة والزاوية واجزائها مما لا نزال نعتمده في عصر الرقي الحضاري الراهن الا ادلة ملموسة على دقة نتائج اعمالهم وابتكاراتهم. وليس غريبا ان يعترف (سترابون) بحقيقة العلم الاغريقي، ولكن الاغرب اننا لم نحفل بما قال الا مؤخرا حيث

يقول " كان اليونان يجهلون احتساب مدة السنة الحقيقية وامورا اخـــرى مشابهة، حتى انتشرت لديهم ترجمات يونانية لمذكرات مصريـــة ومـــن آثار الكلدانيين ورصدهم "[٣١].

وكانت الجغرافية بعضا من كم هائل مـــن العلـــوم التـــي اتقنـــها البابليون وابدعوا في مجال البحث فيها. فثمة خارطة رسمت على لـــوح طيني لا تزيد مساحته على عقدة مربعة واحدة، وقد اســـتعملت رمـــوز دقيقة وسهلة الفهم في تحديد المعالم والتضاريس الارضية. فقـــد مثلـــت الجبال بالدوائر والمسطحات المائية بخطوط مائلة، والانـــهار بخطـــوط متوازية مع اشارة الى اسم كل قصبة دون ان ينسى راســـم الخريطـــة وضع مؤشر اتجاه الجهات الاربع في هامش الخارطة. وكان هذا الرسـم الدقيق انجز قبل ثلاثة الاف وست مئة عام من الان في (بابل)[٣٢].

وعندما نتتبع مسار الحياة العادية فـــي (بـــابل) لمعرفـــة الأثـــر الحضاري على اداء المجتمع، نجد ان المجتمع البابلي متحضر كحـــال المجتمعات الراقية في الوقت الراهن، فهو يتمتع بالعطل الرسمية. وكـــان الاضراب تعبيرا احتجاجيا على تعسف السلطة، فقد اضربوا احتجاجـــا على امر ملكي في غير صالح الجماهير، ففي (بابل) كان الملـــك يعـــد بشرا لم يستسغ مواطنوه عبادته والاذعان المطلق لكل رغباته كما فعلـت شعوب اقل حضارة في العصور المتأخرة. ومن نص كتبه موظف ملكي كبير موجها خطابه الى الملك نطلع على انه " لقد عين الملك نـــابور - الشار - اواصر على شعبه العاملين، والشعب غير موافق على هذا ولن يقوموا بانجاز اعمال الملك"[٣٣].

ومع كل اوجه الرقي الحضاري التي أبدعها العقل البابلي، نجد ان التامر اليهودي قد امتد للتقليل من شأن تلك الحضـــارة، وربمـــا لقلـــب صورتها وتشويهها وانتزاع شواهدها الدالة على مستوى رقيها. فمثـــلا يحاول (ديورانت) في كتابه (قصة الحضارة) الذي الفه عـــام ١٩٣٥م،

جاهدا اقناع قراءه ان اساس الحضارة البابلية تجاري، وكانت كل حضارتهم تتمحور حول هذه المفردة ولا عجب فان مستشاره في تأليف هذا الكتاب هو (ولفنسن) كما مر بنا. ونقول: وهل تقدر المجتمعات المتخلفة على الاضطلاع باعباء تجارة ضخمة تمتد باذرعها الى كل حواضر العالم وتملأ موادها واخبارها سجلات لا حصر لها في مكاتب المؤرخين ؟. لاشك انهم كانوا يعيشون مستوى راقياً من الحضارة مكنهم من بلوغ ذاك المستوى المتقدم من التجارة، وجاءت الابداعات الحضارية لتطور ذاك المستوى. ثم يغمز صاحبنا (ديورانت) من قناة الدين عندما يعزو هذا التطور الحضاري الى تعاون ملموس بين الدين والتجارة وما نجم عنه من علوم رياضية وفلكية وجغرافية وغيرها. والعجيب ان هذه الجمهرة من المؤرخين أنفسهم يشيدون بحضارة يهودية اساسها الدين اليهودي (المشوه بعبادة الاوثان والعجول وذبح القرابين البشرية والزنا المقدس) وفرصة تجارية مسروقة من الشعوب المجاورة، اضافة الى التفنن في ممارسات السحر والشعوذة اللذين يتهم بعض المؤرخين حضارة البابليين والآشوريين فلقد كانت تلك الممارسات من بين طقوس (اليهود)، أسسوا لها مدارس تختص بالعرافة وقراءة الغيب ومعرفة الطالع وباقي العلوم السحرية واسموا اساتذتها (آباء) و (سادة) واسموا تلامذتها (بني الانبياء) وكانت اشهر تلك المدارس في (اريحا) و (الجلجال) و (بيت ايل).

ولعل تهمة ممارسة السحر والشعوذة مما ترمى بها حضارة (العراق) القديمة لهي الخروج على الحقيقة وتجن مقصود، والدليل على ذلك، انه حتى وان كان ثمة سحر، فهو ممارسة سرية تزاول في الاقبية والدهاليز المظلمة، والسبب هو ان (العراقيين) القدماء حرموا ممارسة السحر، فقد تضمنت المادة (٢) من شريعة (حمورابي) التي هي اساس التشريع العراقي القديم ، اشارة خاصة بجريمة ممارسة السحر،

ووضعت طريقة تجريبية لاثبات التهمة او اسقاطها عن طريق التجربــة او الامتحان حيث يجيء بالمتهم بممارسة السحر ويرمى به في النـــهر، فاذا نجا فهو بريء وخلافه فهو مذنب، فاذا مات فللذي اتهمه الاســتيلاء على بيته، واذا نجا وثبتت براءته فيعاقب المدعي بالاعدام. فهل يحق ان تتهم حضارات (العراق) القديمة بالسحر والشعوذة وهم الوحيدون مــــن بين امم وشعوب الارض الذين انزلوا عقوبة الموت بالســـحرة او بمــن يرمي الابرياء بتهمة تلك الممارسات المرفوضة؟ .



المبحث الثالث
حضارة اليهود

باديء ذي بدئ نتساءل ... وهل لليهود حضارة ؟

لقد كان لفقدان (اليهود) للهامش الحضاري بسبب غياب مساهماتهم في صنع نموذج حضاري خاص بهم خلال الفترة التي اتيح لـــهم حكـــم انفسهم ضمنها، وما نتج عن ذلك من مركب النقص، كان ذلك كله ســـببا في اتخاذهم موقفا سلبيا من الشعوب المبدعة الصانعة للحضارات مـــع مظاهر عداء علني وتآمر خفي يشكل استمراراً لتآمرهم في القضاء على الكيانات الصانعة للحضارات. ولقد كان فعلهم التآمري ضد الآشـــوريين والبابليين واضحا وملموسا. وما يزال يفعل فعله الســـيء علـــى ايـــدي البعض من المؤرخين والاثاريين الذين يهمهم الحط من قيمة الحضـــارة الآشورية والبابلية، ويحرجون ازاء عدم وجود مظهر حضاري يـــهودي فيعمدون الى تلفيق حضارة مزعومة مما لا يسهل معه اقناع الآخريـــن، وسنعمد مع ذلك الى مناقشة هؤلاء، وهو الامـــر الـــذي حـــدا بنـــا لان نخصص مبحثا تحت هذا العنوان.

فاليهود بعد ان اتفقوا على تنصيب ملك عليهم عـــام ١٠٢٥ ق. م، لم يكونوا قد عرفوا الاستقرار بعد، الى ان استطاع ثاني ملوكـــهم (داود) عام ١٠١٠ق. م من الاستيلاء على حصن يبوس (اورشـــليم) وجعلـــه عاصمة لمملكته. ان وجود الحصن قبل غزو (اليهود) لفلسطين شـــاهد واقعي على قيام حضارة كنعانية متطورة في ذلك الوقـــت الـــذي كـــان (اليهود) فيه قبائل رحلا لا يملكون غير جلود الحيوانات ملابس. ولعـــل تحديد عمر وسيلة ايصال الماء الى (حصن يبوس) بـــالفي ســـنة قبـــل سقوطها بايدي (اليهود) له معان كبيرة، فهذا الحصن كان يسقى من (نبع جيحون) حيث ينساب ماؤه بواسطة قناة تدخل كتلة الجبل الذي اقيم عليه

الحصن بنفق ينتهي تحت الحصن تماما كما فصلنا ذلــك فــي الفصــل الاول.

وظلت هذه المدينة ذات الاسوار المحكمة والشبكة الاروائية المتقنة عاصمة حكمهم الى ان قوضه (نبو خذ نصر) عام ٥٩٧ ق. م. وعندمــا حصل الانقسام وصار كيانهم دولتين (السامرة في الشمال و يهوذا فــي الجنوب) فقد بحث الشماليون عن مدينة جاهزة ذات مواصفــات معينــة تصلح عاصمة لدولتهم المهددة خصوصا وان عجزهم عن الاضطــلاع بمهمة بناء مدينة كاملة كان امرا متحققا. ولم يوفقوا في اختيــار مدينــة ملائمة الا في زمن سادس ملوكهم المدعو (عمري) عــام ٩٢٥ ق. م. والذي استولى على (السامرة) التي بقيت عاصمة هــذا الكيــان حتــى تقويضه على ايدي (الآشوريين) عام ٧٢٢ ق. م. وعندما افلــح فريــق تنقيب في العثور على اسس بناية قديمة في تلك المدينة فقــد ادعــوا ان ذلكم هو قصر الملك (عمري)، فهو الاثر الوحيد الذي ســمح المنقبــون لانفسهم الادعاء انه من مخلفات العهد القديم[٣٤].

ولاشك ان عجزهم عن انشاء عاصمة لهم تعــد نقطــة الضعــف الاولى في قدرتهم على العطاء الحضــاري خصوصــا وان اتكاليتــهم وعجزهم ونقص عناصر البناء الحضاري لديهم أمور غالبة تحملهم على القعود عن انشاء حاضرة يفخرون بها كما يفخر (الآشوريون) ببناء أربع عواصم زاهرة عامرة. او كما يفخر (الكلدانيون) بانهم اعادوا بناء مدينة (بابل) وصيروها اعظم مدن الدنيا.

وجاء من يعالج امر هذا العجز اليهودي بادعاء ان مدينة (تدمــو) مدينة يهودية بناها (سليمان ٩٦٢ - ٩٢٢ ق. م) في حين ان الكتابــات الآشورية اوردت اسم تلك المدينة منذ العام ١٨٠٠ ق. م وتكرر ذكرهــا زمــن (تجــلات بــلازر الاول) ضمــن اخبـــار حروبـــــه للعــــام ١١٠٠ق.م[٣٥] أي قبل ولادة (سليمان) باجيال.

ولعل ذلك العجز والاتكالية كانا امرا واقعا منذ ان فكروا في بناء (هيكل) في (القدس) المستولى عليها. فقد توددوا الى ملك (صور) خاطبين وده طمعا في مساعدته على بناء الهيكل. وكانت المواد والخبرة والايدي العاملة كلها اجنبية، بنت الهيكل وزينته واثثته، اما الايدي العاملة اليهودية، فكانت تعوزها المهارة، لذا فقد ارسلت الى جبال لبنان لقطع وتجهيز وتحميل خشب الارز. عندما كمل بناؤه، فقد كان صرحاً ملفقا جمعت فيه معالم حضارات مختلفة (اشورية وبابلية ومصرية). ومع كل هذا الجهد الذي وقف (اليهود) امامه مبهورين ظانين انه من عجائب الدنيا في حين انه (لم يكن شيئا مذكورا الى جانب هياكل نينوى وبابل)[٣٦] ولكي نتعرف على متانة بناء هذا الهيكل ومقارنته بما في (بابل) و (نينوى) من صروح عمرانية نقول: بعد ان قوض البابليون دعائمه فقد ضاع تماما (وان موضعه نفسه لا يعرفه احد على وجه التحقيق)[٣٧]، برغم ان (اليهود) بكروا في ارسال من يبحث عن أسسه بعد ستين سنة من تخريبه بدعم فارسي مادي ومعنوي ضخم.

وليس ادل على ضياعه من ان الاثاريين المتحمسين جدا في البحث عنه لم يعثروا على ما يشجعهم على الاستمرار في عملية البحث برغم تعديهم الجائر على المشاهد الاسلامية الى درجة نبش اسس (المسجد الاقصى) بحثا عن اسس هذا الهيكل الضائع مما دعا (فرنسيس نيوتن) الى المجاهرة بانه " لا يوجد في فلسطين نقش واحد يمكن ان ينسب الى المملكة اليهودية، لقد فشلت اليهودية في ان تقدم أي اثر لداود وسليمان "[٣٨].

واذا ما عدنا الى المقارنة بين هذا الهيكل وبين صروح (بابل) و (نينوى) بحثا عن حقيقة ما، فان التخريب الذي احدثه البابليون في هذا الهيكل اقل بكثير من التخريب الفارسي لمدن (العراق)، ومع ذلك فان تلك المدن ظهرت من بين الانقاض شبه كاملة، وما زالت تشكل شواهد ضخمة على حضارات عريقة الى الدرجة التي نستطيع فيها بوقوفنا على

أي من اطلال قصور ملكها تمييز مرافق القصر وقاعاته ومنها قاعات العرش التي لا ينقصها سوى السقف والزينة، في وقت يضيع هيكل (اليهود) برمته، بحيث ان بعض (اليهود) الاقل حماسا عدوا وجود هيكل بالوصف المتوارث لديهم خرافة لا تستحق اشغال البال بها " فقد شملت الحفريات اقساما واسعة من القدس خلال المئة وخمسين عاما الماضية واظهرت بقايا تثير الاهتمام لمدن تعود الى العصر البرونزي الاوسط والعصر الحديدي الثاني - زمن مملكة يهوذا ٠ ولم يعثر على بقايا أبنية يرجع تاريخها الى زمن المملكة المتحدة - أي مملكة داود وسليمان - وانما مجرد بضعة قطع متناثرة من الفخار "[٣٩].

ويستند تلفيق حضارة يهودية الى اسس واهية، من ذلك عد بعضهم القنوات المائية التي يزعم حفرها من قبل اليهود (اساسا ماديا للحضارة اليهودية)[٤٠]. فماذا نسمي قنوات (سنحاريب) التي تمر احداها فوق قنطرة لتعبر واديا عرضه بضع مئات من الامتار؟ وماذا نعد شبكة الجداول التي حفرها (نبو خذ نصر) لتشكيل شبكة اروائية ذات واجب دفاعي مهم ناهيك عن اعجوبة ايصاله الماء الى جنائنه المعلقة؟ هذا اذا ما قررنا التنازل عن قناعتنا وحسبنا تلك القنوات البدائية ابداعا يهوديا صرفا حيث يعدها كاتبو اسفار العهد القديم انجازات ضخمة نفذها الملك (حزقيا) الذي يخصه سفر الملوك الثاني في اصحاحه العشرين باشارة متميزة كونه حفر بركة وقناة مائية[٤١]!. وفي الحقيقة فان انجاز (حزقيا) لا يتعدى تحسين قنوات مائية قديمة كان (اليبوسيون) قد حفروها واشتهروا بها كما رأينا.

ان ملفقي الحضارة اليهودية والذين يحسبون القنوات المائية البسيطة اساسا لتلك الحضارة قد يجهلون او يتجاهلون قنوات (اليبوسيين) التي كانت قائمة قبل الغزو اليهودي لفلسطين بعشرين قرنا كما ذكرنا. وان القلاع الكنعانية كانت تنماز بوجود انشاءات هندسية متقنة تؤمن

ايصال الماء اليها، وهناك نفق في مدينة (جازر) الواقعة شمال مدينة القدس (٣٥) كم ما زال ماثلاً يحكي قصة هندسة الري الكنعانية قبل الاحتلال اليهودي لفلسطين في مطلع الالف الاول ق. م بالفي عام (٣٠٠٠ ق. م).

اما اهتمامات (المؤابيين) بقنوات الماء، فيدلنا الاثر الذي عثر عليه مؤخرا متضمنا كتابات تشير الى ان مستودعا او خزانا كان يخصص لكل مجموعة من البيوت التي يحوي كل منها صهريجا يزود بالماء من الخزان الرئيسي.

في حين ان (عمري) كان قد اختار (السامرة) عاصمة لحكمه كونها تتمتع بنظام كفوء ومتطور للتحكم بمياه الامطار وخزنها للتصرف بها وقت الحاجة.

ماذا بقي اذن من (اسس) مادية موضوعة لهذه الحضارة المزعومة ؟ فالحفاوة التي يحاط بها الكشف عن اثار جديدة في (فلسطين) بهدف اضافتها الى تلك الاسسس اتضح الان انها " ليست في حقيقة الامر الا اشكالا منقحة لامور وموضوعات هي من نتج شعوب وحضارات اخرى "[٤٢]. فالاحتلال اليهودي لفلسطين قبل ثلاثة الاف عام وتأسيس كيان سياسي يهودي على ارضها لم يكن احتلالا لارض قفر، حيث كانت (فلسطين) موطنا لحضارات رصينة وخاصة حضارة (الكنعانيين). فاليهود لم يفشلوا في تأسيس حضارة خاصة بهم فحسب، وانما فشلوا حتى في ادامة وتطوير وتحديث ما استولوا عليه من حجم حضاري ضخم كما فعل (الكلدانيون) مع حضارات (سومر) و (آكد) و (آشور) بل اكتفوا بأخذ التأثيرات الدينية (الوثنية) التي ولدت في نفوسهم ردة عن الاله الواحد التي لقنهم اياها النبي (موسى) ولم يزدهم ذلك الاخذ الا خبالا. فقد قادهم خبالهم المتزايد الى اعماق التخلف حيث رجعوا يعبدون الابقار والأصنام أي ان استفادتهم من حضارات السابقين كانت تقتصر

على الالحاد والفحش المقدس بتخصيص بغايا للمعابد. واحــراق الاولاد قرابين لآلهة نهوا كثيرا عن عبادتها. ولم تعمل (التوراة) على وقف هذا الانحدار الروحي والتراجع الفكري الشائن. برغم انها كانت (الرابطــة التي تربطهم جميعا) كما يدعي (هــ . ج ويلــز) والتــي لا توازيــها قيمة(اورشليم) التي لم تكن منذ البداية" الا عاصمتهم الاسمية، اما مدينتهم الحقيقية الجامعة لشملهم فهي هذه التوراة – سفر الاسفار– وذلك شــيء جديد"(٤٣) ولم يفسر لنا (ويلز) عجز (التوراة) عــن وقــف انــهيارهم الفكري وانحدارهم باتجاه الوثنية وعبادة العجــول والافــاعي وتقديــس الاشجار(الاشيرا) والزنا المقدس (القديشين) وتفشي السحر والشــعوذة بينهم(٤٤) وحتى في قصور ملوكهم.ثم هل يعد وجود التوراة تعويضا عن عجزهم في انشاء شواهد حضارية بعّدها اهم من بناء العواصم مثلا؟ انه وهم كبير ومساهمة مفضوحة في تلفيق الحضارة المزعومة وهو بعض من المادة الشريرة التي يشير لها عندما يدعي (ولم يكن كــل الانبيــاء يتكلمون على هذه الشاكلة،كما ان القارئ الفطن يجد في كتــب الانبيــاء الكثير من البغضاء. والشيء الكثير من التميز والتحامل والشيء الكثـير مما سيذكره بتلك المادة الشريرة، الا وهي المؤلفــات التــي تسـطرها الدعاية في الزمن الحاضر)(٤٥).

ولم يكن المجال الصناعي افضل حالا مــن المجــالات المعماريــة والروحية، فاليهود كانوا عاجزين عن انتاج وتصنيــع حتــى البضــائع البسيطة من الضروريات، فقد كانوا يستوردون ملابسهم مــن (بــابل) و(دمشق) و (صور)(٤٦).

ولم يكن القرار السياسي الذي اتخذته حكومة (الليكــود) بزعامــة (مناحيم بيغن) في ٢٤ شباط ١٩٨٠م والقاضي باســتحداث (الشــيقل) واحلاله في التداول بدلا عن (الليرة) ، الا محاولة للنســج علــى هــذا المنوال الواهي الرامي الى افتعال وتلفيق حضارة يهودية. اذ ان هــؤلاء

يعدون (الشيقل) عمله يهودية قديمة، وحقيقة (الشيقل) انه عمله نقدية من ابداع(العراقيين)، ابتكرت في (سومر) لتسهيل التعامل النقدي،وورث(الاشوريون) و (البابليون) سبكها وتداولها[٤٧]. ومع اندفاع جيوشهم ، انتشرت عملتهم، وكانت (فلسطين) من بين مناطق انتشار تلك العملة العراقية. ولا جدال في ان (اليهود) الاسرى في (بابل) كانوا يتعاملون بالشقيل، وعندما اعاد (كورش) من شاء منهم العودة الى (فلسطين)، كانت ثرواتهم تتألف في عمومها من الشيقلات، واجزاء ومضاعفات (بالشيقل) التي جلبوها من (بابل).

واذا ما بحثنا عن المرتكز الاخلاقي للحضارة المزعومة، فسنجد ما يخجل زاعمي وجودها.فوصف (الآشوريين) بالدموية المبالغ بها ينطبق تماما على (اليهود) مذ قادهم (يشوع) نحو (فلسطين)، فقد كانت فلسفته تتلخص في (ان اكثر الناس قتلا هو الذي يبقى حيا)[٤٨] وبسبب من هذه الفلسفة الدموية فقد كانت القسوة والسادية طقسا يمارسونه، ولم تزكم روائح الدم البشري المسفوح انوف المؤرخين الذين استفزهم صراع (الآشوريين) مع متحديهم من اجل البقاء والحياة، ولم تروعهم المجازر التي نفذها (اليهود) بحق الآمنين وخاصة السكان الاصليين (الكنعانيين) الذين يفخرون بأنهم قتلوا اكثر من استطاعوا قتلهم منهم وسبوا من بقي من نسائهم وجرت دماء قتلاهم انهارا.. وكزكاة للرب قتلوا (١٢) الف رجل من سكان مدينتين تمكنوا من احتلالهما[٤٩].

ولعل الافراط في السادية والاغراق في الدموية لم يكونا ممارسات يهودية ضد الخصوم من خارج المعتقد اليهودي فحسب، بل مارسها (اليهود) فيما بينهم عندما لم يجدوا عدوا يتلفون حياته بابشع الصور. فما زالت طريقة تصفية الحساب بين (ياهو) واسرة الملك السابق (عمري) عندما تآمر الاول ضد ملكه تذكر كمثال للبشاعة في القتل والظمأ القاتل للدماء والرغبة الشنيعة في تمزيق الاجساد البشرية

والتمثيل بها ولم يسلم حتى الاطفال والنساء من تلك الممارسات اللاانسانية التي امتدت لتشمل كل انصار الاسرة الملكية السابقة من قادة عسكريين وكهنة وموظفين، الى الحد الذي القى فيه بالنساء الى حلقات الكلاب المفترسة كما فعلوا مع (ايزابيل) زوجة (اخاب) التي احطنا بخبرها علما في مبحث سابق. ولكي يخفف الملفقون من بشاعة تلك المجازر فقد اطلقوا على انقلاب القصر (ثورة)، وعدوا (ياهو) ثائرا تبريرا للوحشية الفظيعة التي استولى على وفقها على السلطة،ولا ندري هل الثورية مبرر مقنع للافراط في الفعل الاجرامي؟.

اما الدموية الرهيبة (عثليا) فان افعالها الشائنة التي حفل بدمويتها سفر الملوك الثاني فهي مثال على الاخلاقية اليهودية. اذ انها بعد ان سمعت بان عدو عائلتها اللدود (ياهو) كرر هجماته متوخيا ابنها (اخزيا) الجريح وظفر به وباخوته وقضى عليهم جميعا، بينما تمكن (اخزيا) من الافلات من القبضة الدموية فعندما حانت الفرصة لتلك الام (عثليا) فقد ابادت كل افراد البيت الملكي التي هي سيدته الاولى، وبضمنهم الاطفال ولم ينج من مجزرتها غير حفيدها الرضيع (يواش بن آخزيا) الذي افلح احد الخدم باخفائه وتهريبه برغم البحث الشديد والتحري الدقيق الذي قامت به هذه الجدة لتذبحه؟[٥٠] وبذا فقد كررت اعمال (ياهو) الذي القى بأمها الى الكلاب الجائعة.

ويعترف (ديورانت) الذي اجتهد كثيرا في خلق أسس للحضارة اليهودية المزعومة بان الدموية كانت وسيلة للتعامل الذاتي بين(اليهود) منذ زمن (موسى) لوجود نص الهي بزعم(اليهود)، يأمر (موسى) بأخذ" جميع رؤوس الشعب" ليعلقهم للرب مقابل الشمس حيث يخفف من وقع هكذا مزاعم ويغمز من قناة اخرى مغرضة فيقول" وتلك هي اخلاق آشور بانيبال والآشوريين" [٥١]وليس دفاع عن (آشور بانيبال) فانه لم

يسئ التصرف وتظهر قسوته (المزعومة) الا مع الجاحدين.. وان كـل مافعله (الاشوريون) ضد (اليهود) هو الترحيل فقط.

ولان حضارة يهودية لم تكن قد وجدت اطلاقا، فان ادبا يهوديا وثقافـة يهودية لم يكونا قد برزا حتى و (اليهود) في ارقى مدن الدنيـا (بـابل) حيث الادب والفن في ازهى صورهما جراء الرقي الحضاري البـاهر، فان كل ما لدينا من ادب هؤلاء هو بعض قصائد كانوا يغنونـها تملقـا لذوي الشأن في (بابل) و(نينوى)، وكانوا في اسرهم يقولـون شـعرا بكائيا لا يرقى الى مستوى نتاج المبتدئين من شعرائنا المعاصرين.

على انهار بابل جلسنا وبكينا على ذكرى صهيون(*)

وفي وسط الصفصاف علقنا اعوادنا

لان من سبونا طلبوا الينا ان نغنيهم،

والذين عذبونا ارادوا ان نطربهم

ونادوا هلا انشدتمونا احد أناشيد صهيون؟

وهل نستطيع ان ننشد نشيد الرب في بلد غريب؟

ولعل الغناء هو (العلامة) المشرقة الوحيدة في حياة (اليهود) الـذي كان مطلوبا من قبل ملوك (العراق) القديم حيث كان المغنون(اليـهود) بعضا من مكونات الغرامة الحربية التي فرضـها (سـنحاريب) علـى (حزقيا) ملك(يهوذا) كما مر بنا، وكان (البابليون) يطـالبون بسـماع الاغاني اليهودية.

اما الادب الديني ان جازت تسميته كذلك ، فان ارقى النصوص مـن وجهة النظر اليهودية، وهي تلك التي يسمونها (نشيد الانشـاد) والتـي ينسبونها الى (سليمان) وصيروها سفرا من اسفار توراتهم الموضوعة، فهي مقتبسة من الادب البابلي بل تشكل (سـرقة ادبيـة)[٥٢] بمفـاهيم

---

* صهيون: اسم جبل في (القدس).

عصرنا. وغير هذا السفر الذي نقتبس مقطعا منه مع مايقابله من نص بابلي (لاغراض المقارنة والمضاهاة)، فهناك الكثير على هذه الشاكلة:-

النص البابلي	النص التوراتي
" ايها العريس العزيز على قلبي	" ليتك كاخ لي- الراضع من ثدي امي
ما الذ وصالك، حلو كالشهد	فاجدك في الخارج واقبلك فلا يخزونني
ايها الاسد العزيز على قلبي	واقودك وادخلك بيت أمي وهي تعلم
ما الذ وصالك، حلو كالشهد	فاسقيك الخمر الممزوجة بسلاف الرمان
لقد اسرتني فها انا اقف مرتعشة امامك	شماله تحت رأسي ويمينه تضمني
ايها العريس دعني اقبلك	احلفكن يابنات اورشليم لاتوقظن
فقبلتك احلى من الشهد	ولاتنبهن الحبيب حتى يشاء"
ايها العريس تعال ونم في بيتنا حتى الفجر"	

لقد اورد الدكتور (احمد سوسة) رأيين لباحثين يثق بهما كل من يقرأ لهما، ينفيان من خلال ذينك الرأيين وجود (حضارة يهودية) حيث يقول (غوستاف لوبون) ما نصه:" لم يكن لليهود فنون ولا علوم ولا صناعة ولا أي شيء تقوم به حضارة واليهود لم يأتوا قط باية مساعدة مهما صغرت في اشادة المعارف البشرية، واليهود لم يجاوزوا قط مرحلة الامم المتوحشة التي ليس لها تاريخ" في حين يؤكد(جيمس هنري برستد) ان بني اسرائيل" عندما جاءوا الى بلاد كنعان فقد كانت المدن الكنعانية ذات حضارة قديمة نشأت منذ الف وخمس مئة سنة ومنازل

متقنة فيها كثير من اسباب الراحة وحكومة وصناعـــة وتجـارة وعلـم ومعرفة بالكتابة وديانة وحضارة اقتبسها هؤلاء العبرانيون الساذجون من مواطنيهم. وقد أحدث الامتزاج مع الكنعانيين تغيرات جوهرية في حيـاة العبرانيين فغادر بعضهم سكنى الخيام وشرعوا يبنون بيوتا كبيرة كبيوت الكنعانيين وخلعوا عنهم الجلود التي كانوا يلبسونها وهـم فـي الباديـة ولبسوا عوضا عنها الثياب الكنعانية المصنوعة من منسوجات صوفيـة زاهية"[٥٣].

حواشي الفصل الخامس

١. كولد فاي وفشل،القلاع الملكية في بابل- المؤسسة العامة الاثار بغداد ١٩٨١ ص٧١.
٢. هرتزوك، زئيف،هدم اسوار اريحا (مقال) الترجمة العربية في نشرة(قضايا صهيونية) اصدار بيت الحكمة- بغداد -العدد٣- تموز ٢٠٠٠ ص٧.
٣. اشفيتسر، البرت، فلسفة الحضارة- ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي- المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الترجمة و الطباعة و النشر- مطبعة مصر ١٩٦٣ ص٥.
٤. المصدر السابق ص٣.
٥. ديورانت(مصدر سابق) ص٢٧٠.
٦. المصدر السابق ص٢٧١.
٧. رو(مصدر سابق) ص٤٤٢.
٨. المصدر السابق ص٤٥٣.
٩. اخبار الايام الثاني،الاصحاح:٣٣.
١٠. رو(مصدر سايق)ص٤٧٩.
١١. المصدر السابق ص٢٩٦.
١٢. نفس المصدر ص٤٥٢.
١٣. هيئة تحرير، موسوعة الموصل الحضارية- دار الكتب للطباعة والنشر- جامعة الموصل ط/١/١٩٩١ ج١ ص١٧٩.
١٤. المصدر السابق ص١٧٩.
١٥. المصدر السابق ص١٠٨.
١٦. نفس المصدر -نفس الصفحة.
١٧. النجفي(مصدر سابق)ص٢٤-٢٥.

١٨. الحمداني، محمود شوقي، لمحات من تطور الري في العراق قديما وحديثا- مطبعة السعدون- بغداد ١٩٨٤ص ١٣٨- ١٤٠.
١٩. موسوعة الموصل(مصدر السابق) ص٤٤٠.
٢٠. ساكز، قوة آشور(مصدر سابق) ص٣٢٧- ٣٢٨.
٢١. باقر(مصدر سابق)ص٣٢.
٢٢. نخبة من الباحثين العراقيين، حضارة العراق- دار الحرية للطباعة -بغداد ١٩٨٥ج٤ ص٢٨٦-٢٨٧.
٢٣. ساكز، الحياة اليومية(مصدر سابق) ص١٣٣.
٢٤. ديورانت(مصدر سابق) ص١٩٣.(الحاشية)
٢٥. رو(مصدر سابق) ص٥٢٢.
٢٦. كولد فاي(مصدر سابق) ص١٥.
٢٧. محمد، حياة(مصدر سابق) ص٩٩.
٢٨. (المصدر السابق) ص١٠١.
٢٩. (المصدر السابق)ص١٠٣.
٣٠. ديورانت(مصدر سابق) ص٢٥١.
٣١. روثن، مركريت، علوم البابليين- تعريب وايضاح د. يوسف حبي- دار الرشيد للنشر- بغداد ١٩٨٠ ص١٧.
٣٢. ديورانت(مصدر سابق) ص٢٥٢.
٣٣. ساكز، هاري، عظمة بابل- ترجمة وتعليق د. عامر سليمان -سيمار وتوماك فرنسا ١٩٧٩.ص١٩٨.
٣٤. محمد، قاسم(مصدر سابق) ص٦٤٥(الحاشية).
٣٥. النجفي(مصدر سابق)ص ٢٦.
٣٦. ديورانت(مصدر سابق) ص٣٣٥.
٣٧. المصدر السابق ص٣٢٦.

٣٨. سنقرط، دواد عبد العفو، جذور الفكر اليهودي- دار الفرقان عمان ١٩٨٣ص ١٧.

٣٩. هرتزوك(مصدر سابق) ص٦.

٤٠. ديورانت(مصدر سابق) ص٣٢٢.

٤١. الملوك الثاني، الاصحاح:٢٠.

٤٢. كونا(مصدر سابق) ص٢١.

٤٣. ويلز، هـ.ج، موجز تاريخ العالم- ترجمة عبد الغني توفيق جاويد- مكتبة نهضة مصر- القاهرة ١٩٥٨ص ٩٦- ٩٧.

٤٤. الاحمد، تاريخ فلسطين(مصدر سابق) ص٢٠٧.

٤٥. ويلز(مصدر سابق) ص٩٨.

٤٦. ديورانت(مصدر سابق) ص٣٢٩.

٤٧. النجفي، مقتبسات اليهود(مصدر سابق) ص٣٩.

٤٨. ديورانت(مصدر سابق) ص٣٢٧.

٤٩. المصدر السابق(نفس الصفحة).

٥٠. الملوك الثاني، الاصحاح:٢٠

٥١. ديورانت(مصدر سابق) ص٤٣١.

٥٢. خضير، ضياء، دراسة في بعض اوجه اثر الادب العراقية القديمة في الاداب(مقال) -مجلة الموقف الثقافي- الشؤون الثقافية- بغداد- العدد ١٤ لسنة ١٩٨٨ ص٢٠.

٥٣. سوسة(مصدر سابق) ص٢٢١- ٢٢٢.

الاستنتاجات

قادنا ما ثبتناه في اعطاف هذا البحث الى استنتاجات كثر اهمها:

١. إن بلاد الشام لا غنى عنها لسكان بلاد الرافدين وقت وقوع احداث بحثنا. فبلادنا لم يكن فيها غير الطين وسداد الرمق، وفي الشرق منها يكمن خطر لا مجال للتعايش معه متمثل باقوام متعجرفة طامعة سالت على خط الحدود معهم أنهار من الدماء نتيجة الحروب معها اولئك هم(العيلاميون).

وأن اقرب الاسواق وادنى المناجم واسهل الغابات وامن الطرق، هي بلاد الشام، وأن أي تهديد لامن وسلامة تلك البلاد يعني الاجهاز على اسس الصرح العظيم المنوي تشييده في بلاد الرافدين، فلا يمكن غض الطرف عن أي تهديد هناك أو التساهل مع أي تآمر. برغم صعوبة تلك البلاد ذات التباين التضاريسي الحافلة بالكثير من الموانع المائية والجبلية والصحراوية، والبشرية. وفي هذه البلاد بالذات نشأ الكيان السياسي اليهودي يروم مكانة كبيرة بين الكيانات وحيزا عريضا من الارض ليخنق بلاد الرافدين. لهذا كله جعلها (الآشوريون) ومن خلفهم في السيادة(حكام بابل) مسرحا دائما لفعالياتهم الحربية.

٢. وكانت(مصر) التي لم يسجل لها التاريخ دورا في تهديد امن وسلامة بلاد الرافدين غير مرة واحدة عندما اقترب فرعونها في عطفة(الفرات) شمال(سوريا)، تعيش في اوهام كبار لفراعنتها في أن يقوضوا دعائم القوة العراقية لينفردوا ببلاد الشام دونما حاجة الى تقديم تضحيات جسام. فسخروا(اليهود) الذين جيروا خدماتهم طوعا لصالح هؤلاء، مع عدم وجود ما يبرر ذلك التجيير فكانوا اداة طيعة وسهلة الاستخدام بيد الفراعنة، الامر الذي استوجب انزال العقاب

الصارم بهم وبمن استخدمهم حيث قوضت جيوش (الآشوريين) دعائم المملكة اليهودية الشمالية، وجيوش(البابليين) دعائم المملكة الجنوبية، وبين هذا وذاك استباحوا الكيان المصري تأديبا وتقزيما.

٣. وبرغم عظمة القوة الآشورية، الا انها في غموض من زمن ضعفت وطمع فيها حتى من استعبدتهم. فتآمر عليها(اليهود) الحالمون بخراب مدنها ودمار حواضرها. وبرغم قصر الباع الذي ينيلهم تلك الحواضر، فقد انطلقوا يغنمون ما تركت بعد غيابها عن المسرح لولا سرعة بروز دولة لا تقل خطرا عنها، نشأت قوية منذ الولادة في(بابل).

٤. ولان ملوك(بابل)، حلفاء الامس، كشفوا النيات اليهودية مبكرا، فقد حاولوا مع هؤلاء ليعيدوهم الى رشدهم، ولكن ماذا ينفع مع العقرب غير خفق النعال. فكان السمل والقتل والاسر للعتاة المتجبرين. وفي اسرهم كانوا(سادة) بسبب عظمة(بابل) ومراعاتها الشديدة لحقوق الانسان والحريات الفردية والجماعية، فاستغلوا وضعهم الجديد حيث شكلوا رتلا خامسا لقوات الغزو، وكان(كلام الرب) بضاعة بأيديهم يرفعون بها من معنويات(الفرس) ويشدون بها من عزم زعيمهم.

٥. ويستمر التآمر الى يوم الناس هذا حيث صارت حضارة(بابل)، تافهة، وحضارة(الآشوريين) دماءً واحقادا، يجمع بين الحضارتين السحر والشعوذة والجشع والفساد. بينما هناك وحسب بنود هذا التآمر، حضارة يهودية شامخة الصرح، وضع لها ملفقوها اسسا وشواهد. وكان التصدي لذلك مطلبا عادلا... وملحا.

الخلاصة

سعينا في ما مضى من صفحات استنفدت جهدا مضنيا وسهرا طويلا وخلقت متعة لا تنسى الى تبيان ما انطوى عليه الوجود اليهودي متمثلا بكيان سياسي برز في غفلة من الزمن منذ بداية الالف الأول ق.م في (فلسطين) من تحد خطير وتآمر على عظيمات الامبراطوريات التي عرفها التاريخ(الآشورية والبابلية)، وما انتجتا من صروح حضارية سامقة خدمت الانسانية التي مازالت تستمرئ حلاوة تلك النتاجات. وقد توزعت مادة البحث على خمسة فصول خصصنا الأول منها للطبيعة الجغرافية لبلاد الشام(مسرح الاحداث الجسام في هذا البحث) بما فيه من تنوع سكاني واهمية اقتصادية وعسكرية لا غنى عنها لسكان بلاد الرافدين وقتذاك.

وكان فصلها الثاني عرضا مفصلا للعناصر الرئيسية المتصارعة على هذا المسرح خلال الحقبة المعنية، وهم المصريون الذين يشتغلون من وراء كواليس المسرح محركين الدمى اليهودية بخيوط يعمل الآشوريون على تقطيعها باستمرار، وكذاك كان فعل البابليين الذين عانوا كثيرا من هذا اللعب المصري المصيري.

اما الفصل الثالث، فقد فصلنا فيه الفعل العسكري المقتدر للآشوريين معرفين بعناصر وأسس القوة الآشورية التي اعجب بها كل عسكريي العالم على مر الازمنة والعصور، مرورا بالحوادث الصاخبة في بلاد الشام وانتهاءً بموت آخر ملوكهم، الحدث الذي لم تغب عنه الاصابع اليهودية.

وكرسنا الفصل الرابع لبابل في عصر(الكلدانيين) حيث سادت الدنيا طرا، فدولة هؤلاء القوم كانت قوية منذ ساعة الولادة، حطمت جيوش الفرعون الطامع في كسرة من الرغيف الذي مات عنه ملوك(الآشوريين). ولكن(اليهود) الطامعين تحدوا هذه الدولة، فكانت

نهايتهم السياسية على ايدي ملكها القوي(نبو خذ نصر). ولانه حباهم وهم سبيه بحريات وحقوق، فقد نقبوا في اسس صرحه، ديمومة لتآمرهم، وكان فعلهم الوسيلة التي جعلت استباحة أمنع مدن الدنيا، مجرد نزهة قام بها سادتهم(الفرس).

ولان اعظم حضارات الكون مما بناه ابناء الرافدين صار عرضة للسباب والشتم ينال منه الجاحدون والمرجفون... فقد كرسنا استكمالا لصورة ذاك التحدي والتآمر الفصل الخامس، لبيان الدور الحضاري للآشوريين والبابليين، وفيه تصدينا لفرية مخجلة، تلك هي ما سماها الملفقون(حضارة اليهود).**وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.**

ثبت المصادر والمراجع

الكتب

الاحمد، د. سامي سعيد

١. تاريخ فلسطين القديم- مركز الدراسات الفلسطينية -جامعة بغداد- بغداد ١٩٧٩.

٢. السومريون- منشورات الجمعية التاريخية العراقية- بغداد ١٩٧٥.

احمد، د.زبيد

٣.الاداب العربية في شبه القارة الهندية- ترجمة عبد المقصود محمد شلقامي- وزارة الثقافة والفنون بغداد ١٩٧٩.

اشفيتسر، البرت

٤.فلسفة الحضارة- ترجمة د.عبد الرحمن بدوي -المؤسسة العامة للتأليف والترجمة مصر ١٩٦٣.

الاصفهاني، حمزة بن الحسن

٥.تاريخ سني ملوك اهل الارض والانبياء عليهم الصلاة والسلام- منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت - بدون تاريخ.

اوبنهايم،ليو

٦.بلاد ما بين النهرين- ترجمة سعدي فيضي عبد الرزاق - دار الرشيد - بغداد ١٩٨١.

ايس، جون فان.

٧.اقدم اصدقائي العرب- ترجمة جليل عمسو- مطبعة بغداد- ١٩٤٩.

باقر، طه.

٨. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة- دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد ج١/ ١٩٨٦..

برستد، جيمس هنري.

٩.أنتصار الحضارة ترجمة د. احمد فخري- مكتبة الانجلو مصرية- القاهرة – بدون تاريخ.
البستاني، المعلم بطرس.
١٠. دائرة المعارف- دار المعرفة – بيروت ج ٥ – بدون تاريخ.
بوستغيت، نيكولاس.
١١.حضارة العراق وآثاره – ترجمة سمير عبد الرحيم الجلبي- دار المأمون – بغداد ١٩٩١،.
توينبي، ارنولد.
١٢.تاريخ البشرية- ترجمة نقولا زيادة- الاهلية للنشر – بيروت ج١ ١٩٨١.
الثور، عبد الله احمد.
١٣.هذه هي اليمن – دار العودة- بيروت- بدون تاريخ.
جماعة من علماء الآثار السوفييت.
١٤.العراق القديم- ترجمة سليم طه التكريتي- وزارة الاعلام- بغداد ١٩٧٦.
حمادي، محمد جاسم.
١٥.الجزيرة الفراتية والموصل – دار الرسالة – بغداد ١٩٧٥.
الحموي، شهاب الدين ياقوت.(ت٦٢٦هـ).
١٦.معجم البلدان- دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر – بيروت ج ٣ و ج ٥ ١٩٧٩.
الحمداني، المهندس محمد شوقي.
١٧.لمحات من تطور الري في العراق قديما وحديثا- مطبعة السعدون- بغداد ١٩٨٤.
ديورانت، ول.

١٨.قصة الحضارة – ترجمة د. زكي نجيب محمود- الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية- القاهرة ج ١ ١٩٦٥.
رفله، فيليب واحمد سامي مصطفى.
١٩. جغرافية الوطن العربي –دار السعادة – مصر ١٩٦٢.
رو، جورج.
٢٠. العراق القديم – ترجمة حسين علوان حسين دار الشؤون الثقافية بغداد ١٩٨٤.
روثن، مركريت.
٢١.علوم البابليين- تعريب وايضاح د. يوسف حبي- دار الرشيد للنشر- بغداد ١٩٨٠.
ساكز، هاري.
٢٢.عظمة بابل- ترجمة وتعليق د. عامر سليمان- سيمار وتوماك- فرنسا ١٩٧٩.
٢٣.قوة آشور- ترجمة د. عامر سليمان- منشورات الجمع العلمي- بغداد ١٩٩٩.
٢٤.الحياة اليومية في العراق القديم- ترجمة كاظم سعد الدين- دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد ٢٠٠٠.
سنقرط، داود عبد العفو.
٢٥.جذور الفكر اليهودي- دار الفرقان- عمان ط١/ ١٩٨٣.
سوسة، أحمد .
٢٦. العرب واليهود في التاريخ- مديرية الثقافة العامة-بغداد ١٩٧٢.
٢٧.حياتي في نصف قرن- طبع دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد ط١/ ١٩٨٦.
٢٨.ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق- مركز الدراسات الفلسطينية –جامعة بغداد- مطبعة السعادة- بغداد ط١ /١٩٧٨.
الشريقي، ابراهيم.

٢٩.اور شليم وارض كنعان- حوار مع أنبيـــاء وملــوك إســرائيل- مؤسسة العرب-لندن ١٩٨٥.
الصالحي، رافد كاظم كريدي
٣٠.حقيقة الوقائع التاريخية بين عرض التوراة ومعالجـــة النصــوص العراقية القديمة(رسالة ماجستير) جامعة القادسية- طبـــع رونيــو ١٩٩٩.
صايغ، القس سليمان
٣١.تاريخ الموصل- المطبعة الكاثوليكية- بيروت ج ١٩٣٨.
الطعان، عبد الرضا
٣٢.الفكر السياسي في العراق القديم- دار الرشيد- بغداد ١٩٨١.
العبادي، مصطفى.
٣٣.العصر الهلنستي(مصر) -دار النهضة- بيروت ١٩٨١.
علي، د. جواد .
٣٤.المفصل في تاريخ العرب قبل الاســـلام -دار العلـم للملاييــن- بيروت ج١ ط١/ ١٩٦٨ و ج٣ ط١ ١٩٦٩.
فتحي، الفريق الركن محمد .
٣٥.قاموس المصطلحات العسكرية- المطابع العســكرية- بغــداد ط٣ بدون تاريخ.
الكتاب المقدس.
٣٦.اسفار العهد القديم-جمعية الكتاب المقدس في الشـــرق الادنـــى- بيروت ١٩٦١.
كولد فاي، روبرت وفريد ريش فيشل
٣٧.القلاع الملكية في بابل- ترجمة د.علي يحيى منصور- المؤسســـة العامة للآثار- بغداد١٩٨١.
كونا، وكالة الأنباء الكويتية
٣٨.فلسطين والقدس في التاريخ- طبع دار الطليعة- الكويت ١٩٨٧.

كونتنيو، جورج .
٣٩.الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور –ترجمة سليم طـــه التكريتـــي وبرهان عبد التكريتي– دار الشؤون الثقافية العامة– الطبعة الثانيـة بغداد ١٩٨٦.
لودفيغ، اميل .
٤٠.البحر المتوسط(مصاير بحـــر) –ترجمـــة عـــادل زعيـــتر– دار المعارف بمصر ١٩٥٢.
المجمع العلمي.
٤١.وقائع ندوة كتب الانساب مصدرا للتاريخ– مطبعة المجمع العلمي– بغداد ٢٠٠٠.
مجموعة باحثين.
٤٢.العراق في التاريخ– بغداد ١٩٨٣.
٣٤.المنجد في اللغة والاعلام– دار المشرق– بيروت ط٢٧/ ١٩٨٦.
محمد، حياة ابراهيم
٤٤.نبو خذ نصر الثاني– المؤسسة العامة للاثار والـــتراث – بغـداد ١٩٨٣.
محمد، محمد قاسم.
٤٥.التناقض في تواريخ احداث التوراة من آدم حتـــى سـبى بـــابل– مطابع– ستار بريس للصحافة ١٩٩٢.
موريز، اريك.
٤٦.مدخل الى التاريخ العسكري– تعريب اكرم ديري والمقدم الـــهيثم الايوبي– المؤسسة العربيـــة للدراســـات والنشـــر– بـــيروت ط٣/ ١٩٧٩.
مونتكمري، المارشال.
٤٧. الحرب عبر التاريخ – ترجمة العميد فتحي عبد الله النمر– مكتبة الانجلو مصرية– القاهرة ١٩٧١.

النجفي، حسن.
٤٨.التجارة والقانون بدءا في سومر- مركز البحوث والمعلومات- بغداد ١٩٨٢.
٤٩.مقتبسات من الشرائع العراقية القديمة- مطبعة البنك المركزي العراقي- بغداد ١٩٨١.
نخبة من اساتذة التاريخ.
٥٠.الجيش والسلاح- دار الحرية للطباعة- بغداد ج٤ /١٩٨٨.
نخبة من الباحثين العراقيين
٥١.حضارة العراق دار الحرية للطباعة -ج٤/ ١٩٨٥.
هيئة تحرير
٥٢.الموسوعة العسكرية- المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت ج١
٥٣.موسوعة الموصل الحضارية- دار الكتب للطباعة والنشر- جامعة الموصل ج١ ط١ ١٩٩١.
ولي، ليونارد
٥٤.وادي الرافدين مهد الحضارة- ترجمة احمد عبد الباقي- طبع على نفقة مكتبة المثنى- بغداد ١٩٤٨- طبع دار الكتاب العربي بمصر.
ويلز، هـ.ج
٥٥.موجز تاريخ العالم-ترجمة عبد العزيز توفيق جادر- مكتبة النهضة- مصر- القاهرة ١٩٥٨.

المجلات

٥٦. اوراق مجمعية اصدار المجمع العلمي- بغداد- العدد٥ السنة الاولى -آب ١٩٩٨.
٥٧.دراسات للاجيال- نقابة المعلمين- بغداد العدد١و٢ آب ١٩٨٢.
٥٨.الرواد- ملتقى الرواد- بغداد العدد ١ السنة ١٩٩٩

٥٩.المؤرخ العربي- الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب- بغـــداد العدد- ٢١ لسنة ١٩٨٢.

٦٠.الموقف الثقافي- دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد - العدد٤ لسنة ١٩٩٨.

٦١.قضايا صهيونية - دورية توزع بالاشتراك- اصدار بيت الحكمة- بغداد- العدد٣ تموز ٢٠٠٠.

المصادر الاجنبية

62.Luckebill, Dnaiael Daved.

Ancient Records of Assyria and Babylonia, chicago 1927.

63.Grayson, A.Kirk.

Assyrian Rulers of the Early, University of Toronto press 1996.

المحتويات

هذا الكتاب

لقد دفع قادة الحركة الصهيونية بعدد غفير من توابعهم للعمل في المجال التاريخي ، وكان تاريخ بلاد الرافدين واحداً من اهم الاختصاصات التي اندس فيها هؤلاء يزورون ويحرفون أملا في تشويه تاريخ حضارة عظيم هو تاريخ بلاد الرافدين ، واصطناع تاريخ حضاري مزيف لطغمة دخلت(فلسطين) وهي ترتدي جلود الحيوانات، سلاحها التامر والحقد، اقلقت المنطقة ما يربو على اربعة قرون ثم ال مصيرها الى الاهمال كما كانت في(سينا) وكان هذا الجهد الذي بذله المندسون في مجال التاريخ **تآمرا(حضاريا)مازال يستصرخ ذوي الهمة والعزم** للتصدي له ، نأمل ان يكون هذا الجهد استجابة لذلك

بيت الحكمة / جمهورية العراق - بغداد

هاتف / ٤١٤١٢٠٤ فاكس / ٨٨٦٢٠١٥ - ص/ب : ٥٣٦٤٠

رقم الايداع في دار الكتب

والوثائق بغداد (٨٠٧) لسنة ٢٠٠٢

مطبعة الرشاد